

منير محمد الغضبان

معاوية بن أبي سفيان

دار القلم

هذا الكتاب

لم يحدث أن ثـار الكلام والجدال وتشعّب وتفاقم حول شخصية من شخصياتنا التاريخية كما ثار حول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

لقد سارع الكثيرون فاتهموا الرجل .. إنه تمرد على أمير المؤمنين الشرعي « علي بن أبي طالب » ، ونازعه الخلافة ، وعرّض الأمة لسفك دمائها .. إنه أعادها كسروية هرقلية استبدادية بعد ان كانت راشدية شورية .. إنه ، إنه ...

أما علماؤنا الكبار أئمة الإسلام : محدثوه، وفقهاؤه ومفسروه، ومؤرخوه ؛ فقد برّأوا الرجل ، وقالوا عنـه : مجتهد أخطأ ، وله الأجر والثواب إن شاء الله تعالى .. هذا ما قاله البخاري، ومسلم، والغزالي ، والنووي ، وابن تيمية ، والذهبي ، وابن كثير ، وابن حجر ، وغيرهم .

لكن الكثير ممن عانوا كتابة التاريخ ولم يفقهوا الإسلام ولم يرجعوا إلى آراء علمائنا اتهموا معاوية ، والكثير أيضاً من الكتاب الإسلاميين ممن لم يفقهوا « الفتنة الكبرى » وملابساتها سارعوا واتهموا الرجل .. وذلك على الرغم مما عنده من أوسمة خالدة : أولها الوسام النبوي ، فقد جرى تعيينه في جملة الكتبة الأمناء عند رسول الله فور اسلامه ، وثانيها وسام عمر بن الخطاب فقد جعله أميراً على الشام طوال خلافته ، وثالثها وسام التاريخ فقد سجل أنه ملك فعدل ، وجاهد أعداء الإسلام ، وأحسن السيرة في الأمة .

ولقـد كتب عن الرجـل كتب كثـيرة ؛ أساءت إليـه ولـم تنصفه ، وهذا الكتاب محاولة نرجو أن تكون قد وفقت إلى حدٍ جيّد في فهم الرجل وتفسير تاريخه وأعماله ، ونرجو أن تكون محاولة جادة لإعادة فقه شخصية معاوية وتقديمها للناس من جديد على ضوء الدراسة المنصفة الواعية .

محمد علي دولة

الثمن : ١٠ ل.ل أو ما يعادلها

تطلب جميع منشوراتنا :
دمشق - دار القلم - حلبوني - ص.ب ٤٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧
بيروت - الشركة المتحدة للتوزيع - ص.ب ٧٤٦٠ - هاتف ٢٩٥٥٠١

أعلام المسلمين
٢١

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

صحابي كبير وملك مجاهد

تأليف

منير محمد الغضبان

دار القلم
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

دار القلم
دمشق - بيروت

الإدارة : دمشق ـ حلبوني ـ ص. ب ٤٥٢٣ ـ هاتف ٢٢٩١٧٧

هذا الرّجُل

انعقدت الكلمة على معاوية واجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى واربعين ، فلم يزل بالأمر مستقلاً إلى سنة وفاته ، والجهاد في بلاد العدو قائم ، وكلمة الله عالية ، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض ، والمسلمون معه في راحة وعدل ، وصفح وعفو .

الامام ابن كثير

معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين ، ملك الإسلام ، أبو عبد الرحمن ، القرشي الأموي ، المكي .

الامام الذهبي

ما رأيت أحداً أعظم حلماً ، ولا أكثر سؤدداً ، ولا أبعد أناة ، ولا ألين مخرجاً ، ولا أرحب باعاً بالمعروف من معاوية .

قبيصة بن جابر

سئل المعافى بن عمران :

أيهما افضل : معاوية أو عمر بن عبد العزيز ؟

فغضب وقال للسائل :

أتجعل رجلاً من الصحابة ، مثل رجل من التابعين ؟! معاوية صاحبه ، وصهره ، وكاتبه ، واامينه على وحي الله !!

إن معاوية كان عود العرب ، وجدّ العرب ، قطع الله عز وجل به الفتنة ، وملكه على العباد ، وفتح به البلاد .

الضحاك بن قيس

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي البحث

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه . وبعد :

ما اعتقد ان شخصية فيتاريخنا الإسلامي ، ومن الرعيل الأول من الصحابة الذين تربَّوا على يدي رسول الله ﷺ وعاشوا وحي السماء ؛ قد نالها من التشويه والدس والافتراء ما نال معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما . لقد اصبح كثير من المعلومات ثابتة في اذهان الناس لا تقبل الشك ولا تقبل الجدل ، لا تتناسب ابداً والمستوى اللائق بصحابة رسول الله ﷺ . وصورة معاوية في اذهان الناس انه طالب سلطة ، وسياسي بارع ، ونهّاز للفرص ، لا يرعوي عن شيء في سبيل الوصول إلى الحكم . صارع من أجل السلطة وسعى إلى قتل عشرات الالوف من الناس لكي يصل إلى الخلافة .

وهذه الصورة تتنافى مع حسّ المسلم وفطرته ؛ لكنه لا يجد لها بديلاً ، فكتب التاريخ تذكر ذلك .

وعندما جاء المؤرخون المحدثون وكتبوا عن معاوية ، زادوا الطين بلّة ، وكرّسوا هذه المفاهيم في اذهان الناس وزادوهم قناعة بها .

فكان لا بد من الكتابة عن معاوية بن ابي سفيان .

لقد اقدمت على هذا الأمر وانا اعلم وعورة الطريق واشواكه ، واعلم اني سأخوض في بحرٍ من الروايات ، هيهات ان يبتغي الدر من احشائها إلا من امده الله بعونه وعنايته .

واحب ان أعلن من اول الطريق اني لم اصل إلى الصـورة الصحيحة الكاملة من خلال الروايات التاريخية ، ولكن حسبي أن أرود الطريق ، ولعل باحثاً يأتي من بعدي يرسم الصورة كاملة صحيحة .

ولماذا لم أرسم الصورة كما احب واهوى ؟

لاني كنت لا اجد في كثير من المواطن إلا الرواية الضعيفة أو المنكرة ، فأفضل ان أتجاوز هذا الموطن من أن اثبته برواية ضعيفة او موضوعة .

وأود ان أوضح للأخ القارىء المنهج الذي سرت عليه من بداية البحث إلى نهايته ، وأن اذكر بعض المصادر والجهات التي افدتُ منها ، وبذلك نسير معاً ونحن على بيّنة من خطة البحث وموارده :

اولاً : كان دليلي في البحث قبل الحـوادث التاريخيـة ، الأحاديث النبوية ؛ تلك الأحاديث التي صحت عن رسول الله ﷺ وأنبأ بها ـ بما علّمه الله ـ عن وقائع ستحدث ، كان هذا هو الدليل الذي تحرّكت من خلاله قبل كل شيء .

فالحديث الصحيح هو بعد كتاب الله مصدر الحق في هذا الوجـود .

وإذا كانت الروايات التاريخية لم تمحّص بعد ؛ فإن حديث رسول الله قد بلغ بفضل علمائه وجهدهم وتوفيق الله لهم المرتبةَ الثانية بعد كتاب الله تعالى .

فلو أن كل الروايات التاريخية في قضية ما خالفت حديثاً صحيحاً ؛ لأعرضتُ عن هذه الروايات كلها وأخذت بالحديث .

ثانياً : وكان الخط الثاني الذي سرت فيه هو تمحيص الروايات التاريخية والكشف عن رجال أسانيدها في كتب التراجم والجرح والتعديل ، ولكن الفرق كبير كبير بين الرواية التاريخية ، والحديث النبوي .

فما تشدّد المحدثون في الأخذ عنه في حديث رسول الله ؛ تساهل المؤرخون والإخباريون في الرواية عنه .

وأضرب مثالاً على ذلك :

لقد كان ابن جرير الطبري يكثر من الرواية عن : السري ، عن شعيب ، عن سيف . فماذا قالت كتب التراجم عن هؤلاء :

فالسري قال عنه الإمام أحمد : تركوا حديثه ، وقالوا عن شعيب ـ كما أورد ذلك الذهبي ـ : راوية كتب سيف عنه ، فيه جهالة . وسيف قال عنه يحيى بن معين : ضعيف ، وقال أبو حاتم : متروك !!

لكن علماء الرجال شهدوا لسيفٍ في التاريخ والفتوح ووثّقوه وقالوا عنه : كان إخبارياً عارفاً ، وقالوا عنه : ثقة في التاريخ ، ضعيف في الحديث .

فإذن لن نطمع أن نصل في الحدث التاريخي إلى مستوى الحديث النبوي . ولكننا نحاول أن نصل به بعيداً عن الكذابين ، وبعيداً عن المجهولين .

ثالثاً : الرواية التي نرفضها هي التي تحمل أسماءً لم يتعرض لها علماء الرجال بشيء ، ولم يذكروا عنها شيئاً ؛ وخاصة إذا كانت

تتعارض مع مستوى صحابة رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنهم ، فرواتها مجهولون . ولا ندري ماذا يدخلون على هذا التاريخ من زيف .

رابعاً : لا نقبل اية رواية خالية من السند . وهي التي يقال فيها : وزعم ، وقيل ، وروي .

خامساً : إن المدقق في تاريخ الطبري . وهو عمدتنا في البحث ـ لأنه هو الوحيد الذي يحوي السند ويمكن تمحيص رواياته ـ يلاحظ ان أحد رواته وهو لوط بن يحيى والذي يكنى بأبي مخنف ؛ قد روى جزءاً كبيراً جداً من تاريخ هذه الحقبة ، بل يكاد لا يخلو حدث تاريخي إلا وله فيه رواية ؛ خاصة بعد وقعة الجمل .

ولا ابالغ إذا قلت : إن جلّ التحريف في وقائع هذه الحقبة من تاريخنا ـ إن لم اقل كله ـ مصدره ابو مخنف الشيعي الذي لم يقبل إخبارياً ولم يقبل محدّثاً ، ولو ان روايات ابي مخنف حذفت من تاريخ الطبري لزال اكثر التشويه في تاريخنا الإسلامي .

سادساً : هناك كتاب آخر هو « تاريخ خليفة بن خياط » الذي نشر حديثاً بتحقيق الدكتور اكرم ضياء العمري . وخليفة بن خياط من شيوخ البخاري ، ومن طائفة رجال الحديث ، ومنهجه في التأليف هو منهجهم ، وعن هذا المنهج يقول محقق كتابه الدكتور العمري :

« وكان خليفة محدثاً اهتم بجمع الحديث وكتابة المسند ، فلا عجب ان يهتم بالإسناد حتى في روايته التاريخية ، ولم يكن خليفة أول من استعمل الإسناد في دراسة التاريخ ؛ فقد كان المحدثون الذين يهتمون بالأخبار ينقلونها بالأسانيد . وقد امتد الاهتمام بالإسناد إلى أهل الأدب ايضاً في هذه الفترة المبكرة ، على ان دقة

الإسناد آنذاك ظلت ملازمة للحديث ، اما الأخبار ؛ فقد ابدى اصحابها تساهلاً في استعمال الإسناد ؛ ولذلك نجد خليفة بن خياط يلتزم الإسناد بدقة في الحديث ويتساهل باستعماله في الأخبار والأنساب ، ويرجع ذلك إلى اهمية الحديث وتعلق الأحكام به ، فلا بد من التشدد في نقده قبل قبوله والاسناد هو المحور الأساسي الذي يدور حوله النقد .

اما الأخبار فلا تترتب عليها احكام تتعلق بمصالح الناس وامور حياتهم ، لذلك كان التساهل في اسانيد الأخبار مما تعارف عليه المحدثون ؛ فرووا ما كان في إسنادها انقطاع او ارسال ، كما رووا عن بعض المجروحين الذين لا يقبلون مروياتهم في الحديث ، فلاغرابة ان ينقل خليفة عن ابن الكلبي والواقدي مثلاً . وهم متهمون عند المحدثين ...

وكذلك اهتم بذكر الإسناد كثيراً عند ذكر الأحداث التي تحتاج اخبارها إلى تدقيق ، لتاثير الأهواء فيها ، مثل : الفتنة زمن عثمان، موقعة الجمل ، موقعة صفين ، اخذ معاوية بيعة اهل الحجاز لابنه يزيد ، وقعة الحرة ، ثورة ابن الأشعث . ونجده يعتمد في هذه الأخبار على المحدثين في الدرجة الأولى »(١) .

واقول : إنني مدين ولا شك لهذا المؤرخ والمحدّث الكبير في بعض الفترات الهامة من تاريخنا الاسلامي ، فلقد افدت منه كثيراً وكان بالنسبة لي كماء السماء يسقط على الأرض اليابسة ، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، لقد روى لي ظمأ قلبي ، وانا انقب في التواريخ باحثاً عما يطمئن إليه قلبي وترتاح إليه نفسي .

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٤ ، طبعة دار القلم بدمشق.

سابعاً : ولا شك أن كتاب العواصم من القواصم ، وتحقيق وتعليق الأستاذ محب الدين الخطيب عليه ومن بعده الأستاذ محمود مهدي استانبولي ؛ كان له أثر كبير في اتساع آفاق البحث ، ومدّي بمصادر جديدة أعطت إضاءات أوضح على الأحداث .

ثامناً : ولعل الفضل الأكبر في تدقيق هذا الكتاب وتصويبه كان لشيخنا وأستاذنا العلامة محمد سعيد طنطاوي ، الذي حصر العلم في قلبه لا في كتبه ، فقد قرأ الكتاب وأبدى عليه ملاحظات كثيرة حملتني على إعادة النظر فيه ومراعاة جميع هذه الملاحظات ، ومع ذلك فأنا على يقين أن الكتاب لن يحوز على رضاه ؛ لأنه ينشد الأكمل والأمثل دائماً . وهذا ما لا نملكه .

وارفعه نداء له باسم الشباب الإسلامي من على صفحات هذا الكتاب أن يتناول قلمه ، ويمد الشباب المتعطش بتراجم مركزة مستوفاة دقيقة عن شخصيات التاريخ الإسلامي ، فهي أمانة في عنقه . وقد يغضب لهذا النداء ؛ لكننا نحرص على كلمة الحق نقولها أكثر من حرصنا على مراعاة العواطف ، ولو أنه كتب في هذه المجالات لا ستغنى الشباب الاسلامي عن كثير من الكتابات التي لم تنل الحظ الجيد من التحقيق والتدقيق .

تاسعاً : ولا أنسى الجهد المشكور الذي بذله الأخ الحبيب محمد حسن بريغش والملاحظات القيمة التي قدمها على الكتاب ، وقد كان يرفض أية نقطة ضعف فيه ، ويجتهد في إبعادها عنه وهو أعرف الناس بخطتي في البحث ، ولا يمنعني هذا من أن أثبت رأيه في هذه المحاولة ، وهي اني جنحت إلى المبالغة في حق معاوية رضي الله عنه ؛ حتى ليحس القارىء أن لو بايع الناس

معاوية من بداية الطريق لتم تجاوز كل الأزمات والحروب العنيفة في تاريخنا الإسلامي !!

هذا رايه . ولو اقتنعت به لأعرضت عن إصدار الكتاب .

اما رايي فهو اني ارفع الحيف والظلم الذي وقع في تاريخ معاوية دون أي مساس ولو مرة واحدة بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

اما لماذا لم اناقش آراء أمير المؤمنين علي ؛ فلأن الكتاب ترجمة لمعاوية وليس ترجمة لعلي ، فلا بدّ من عرض وجهة نظر معاوية بأمانة كاملة . ويكفيني وأنا اذكر أمير المؤمنين علياً ان اقدم حديثاً صحيحاً يكون حكماً في كل القضايا التي جرت بينه وبين معاوية .

أنا اعتذر لمعاوية ، لاني على ثقة انه كان يقصد الحق . ولا يضيره بعد ذلك أن يكون أصابَ الحقَّ أم أخطأه .

أما أنه كان يعرف نفسه أنه على باطل ويقاتل عليه فهذا كلام مرفوض لأن رسول الله ﷺ شهد للطائفتين أنهما يقصدان الحق ، وعلي رضي الله عنه والمسلمون معه أصابوه ، ومعاوية رضي الله عنه والمسلمون معه أخطؤوه . وذلك كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم :

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة » .

والحديث في رواية الإمام احمد له تتمة قيمة ، ونصه :

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة ، فبينما هم كذلك مَرَق منهم مارقة؛تقتلهم أوْلَى الطائفتين بالحق» .

والمارقة التي خرجت قد قاتلها علي رضي الله عنه وهم الخوارج.

وذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث فقال :

« قال الإمام احمد : حدثنا أبو احمد ، حدثنا سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن الضحاك المشرقي ، عن ابي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في حديث (ذكر قوماً يخرجون على فرقة من الناس مختلفة، يقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق) اخرجاه في الصحيحين(١).

والحديث الصحيح الذي ورد في مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه :

« يا عمار تقتلك الفئة الباغية » . يؤكد أن الفئة الباغية هي فئة معاوية ، ولكنه لا يعني أبداً أن معاوية والمسلمين معه يعرفون ذلك ويصرون على البغي .

واعود لأقول ما قاله أهل السنة في هذا الصدد :

« أهل السنة المحمدية يدينون لله على أن علياً ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا جميعاً من أهل الحق ، وكانوا مخلصين في ذلك ، والذي اختلفوا فيه إنما اختلفوا عن اجتهاد . كما يختلف المجتهدون في كل ما يختلفون فيه . وهم لإخلاصهم في اجتهادهم مثابون عليه في حالتي الإصابة والخطأ ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطىء . وليس بعد رسول الله ﷺ بشر معصوم أن يخطىء ، وقد يخطىء بعضهم في أمور ويصيب في أخرى وكذلك الآخرون .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٩٩ .

ومن مرق عن الحق في إثارة الفتنة على عثمان لا يعد من إحدى الطائفتين اللتين على الحق وإن قاتل معها والتحق بها ؛ لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغي الظالم على امير المؤمنين عثمان ــ كائناً من كانوا ــ استحقوا إقامة الحد الشرعي عليهم ؛ سواء استطاع ولي الأمر ان يقيم عليهم الحد أو لم يستطع . وفي حالة عدم استطاعته ؛ فإن مواصلتهم القتال بين صالحي المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الاصلاح والتآخي ــ كما فعلوا في وقعة الجمل وما بعدها ــ يعد إصراراً منهم على الاستمرار في الاجرام ماداموا على ذلك .

فاذا قلنا أن الطائفتين كانتا من أهل الحق ، فإنما نريد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا في الطائفتين ومن سار معهم على سنته ﷺ من التابعين .

ونرى أن علياً المبشر بالجنة أعلى مقاماً عند الله من معاويةخال المؤمنين وصاحب رسول رب العالمين ، وكلاهما من أهل الخير .

وإذا اندس فيهم طوائف من أهل الشر فإنّ من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »(١) .

وليس الكتاب إلا عرضاً لهذه العقيدة في الطائفتين من خلال الواقع التاريخي ، فإن وفقت في ذلك فالحمد والمنة لله سبحانه ومنه العون ، وإن لم أوفق فحسبي اني شققت الطريق .

---

(١) العواصم من القواصم ، من تعليق الأستاذ محب الدين الخطيب على الكتاب ص ١٦٩ .

عاشراً : واحب ان أسوق الشكر الجزيل لفضيلة الأستاذ المؤرخ الشيخ نايف العباس ، فقد أفدت منه اموراً كثيرة ، ولقد أجرى قلمه في هذا الكتاب ، فصحح العديد من الأحداث والوقائع ، والروايات والأسماء ، وقوّم المائل من الآراء والأحكام والتعبيرات ، فجزاه الله عني وعن المسلمين كل خير .

كما أحب أن أشكر الأخ الأستاذ محمد علي دولة المدير المسؤول في دار القلم وصاحبها ، فقد كان له الفضل في إصدار هذا الكتاب ، ولقد قرأ مخطوطته كلمة كلمة ، فصوّب ودقّق وأفاد.

وفي الختام :

أود أن أعتذر للأخ القارىء من بداية لقائي معه اني سأطنب في عرض الفتنة الكبرى التي حصلت في خلافة عثمان وأدت إلى استشهاده ؛ رغم أن الكتاب ترجمة لمعاوية رضي الله عنه ؛ وذلك لقناعتي أنه لا يمكن أن تفسر الحوادث كلها في الصراع والحرب بين الطائفتين ؛ إلا بدراسة واقع العالم الإسلامي إثر مقتل عثمان ولأن هذه القضية هي محور الأحداث كلها فيما بعد .

أسأل الله ـ سبحانه ـ ان يجنبنا العثرة . وأن يغفر لنا ما أخطأنا فيه في اجتهادنا ، ويثيبنا على ما أصبنا فيه . وأن يكون عملنا هذا في كفة حسناتنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



المَلِك المجاهِـدُ وَالزّاهِـدُ المجاهِد

إنه الإسلام العظيم الذي يجمع في ساحته كل النماذج البشرية. لتؤدي طاقاتها كاملة .

ومن هذه النماذج : الزاهد المجاهد ... والملك المجاهد .

الزاهد المجاهد أبو ذر الغفاري الذي طلب الإمارة يوماً من رسول الله ﷺ ، فقال له :

« يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها امانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا لمن اداها في حقها » .

وبذلك وجه الرسول العظيم هذه الطاقة للتفرغ للدعوة ، والجهاد في سبيل الله ، وجهه إلى الزهد في الدنيا ، والتقلل منها .

فسار أبو ذر على هذا الدرب ، يرفع الناس إلى آفاق سامية ويذكرهم بالآخرة ، ويحثهم على الجهاد . حتى لقي وجه ربه .

والملك المجاهد ، معاوية بن ابي سفيان الذي قال له رسول الله ﷺ :

« يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » .

فوقر في نفسه منذ تلك اللحظة أنه سيلي أمر هذه الأمة .

(فما زلت أظن أني سأبتلى) بالحكم .

فطاقات معاوية رضي الله عنه في الحكم والإدارة والسياسة طاقات هائلة ، ولا بد أن تمارس ، وتكون على المسلمين خيراً وبركة.

أبو ذر على زهد عيسى بن مريم عليه السلام .

ومعاوية على منهج سليمان عليه السلام .

ويحضرني دائماً وانا اذكر الزاهد المجاهد والملك المجاهد نموذجان من انبياء الله ، لا تذكر قصتهما إلا معاً : من ابتلي بالضراء فصبر ، ومن ابتلي بالسراء فشكر .

« ولقد فتنـّا سليمان ، والقينا على كرسيّه جسداً ثم اناب . قال : ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك انت الوهاب . فسخـّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرّنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب . وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب . وخذ بيدك ضغثاً واضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه اوّاب» .

سليمان عليه السلام قال :

رب اغفرلي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي .

وكان بشهادة ربه له ، خير من يحمل المسؤولية .

« وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

وأيوب مسّه الضر وابتلي بلاء لا حدّ له ، ونجح في ابتلائه بشهادة ربه له .

« إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب » .

والملك المجاهد ، معاوية رضي الله عنه قال : رضينا بها ملكاً .

وقال : ملك الله يؤتيه من يشاء .

وقال : اما ابو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، واما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، واما عثمان فأصاب منها واصابت منه . واما نحن فتمرغنا بها تمرغاً .

وقال لأحد الصحابة :

فما الذي يجعلك أحق بأن ترجو أنت المغفرة أكثر مني ؟!

فوالله لما إليّ من إصلاح الرعايا ، وإقامة الحدود ، والاصلاح بين الناس ، والجهاد في سبيل الله ، والأمور العظام التي لا يحصيها إلا الله ، ولا تحصيها ؛ أكثر مما تذكر من العيوب والذنوب .

وإني لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات، ويعفو عن السيئات.

والله على ذلك ما كنت لأخيَّر بين الله وغيره ؛ إلا اخترت الله على غيره مما سواه .

هذه هي نفسية الملك المجاهد رضي الله عنه .

اما الزاهد المجاهد ، فقال لأحد صحابة رسول الله ﷺ : الا تنظرون إلى ما تأمرني به هذه السويداء ـ يعني زوجته ـ تأمرني أن آتي العراق ، فإذا اتيت العراق ما لوا عليّ بدنياهم .

وإن خليلي ﷺ عهد إلي أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دَحْض ومزلة ، وإنا إن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار واضطمار ـ خفة ـ أحرى أن ننجو من أن نأتي عليه ونحن مواقير .

وقال :

كان قوتي على عهد رسول الله ﷺ صاعاً ، فلا أزيد عليه حتى ألقى الله عز وجل .

تخفف من الدنيا وأعبائها رجاء مغفرة ربه .

والملك المجاهد :

حمل الدنيا على كتفيه ، ورجا مغفرة ربه .

إنه الإسلام ، الذي يحوي كل النماذج ، وكل الطاقات ، لتؤدي رسالتها في الأرض .

ولنعش مع أول ملوك الاسلام الملك المجاهد « معاوية » ، خطوة خطوة ، من قبل أن ترى عيناه النور وإلى أن لقي وجه ربه .

● ● ●

أبو سُفيَان وَهنـد بنت عُتبَة

البيئة والمنبت اللذان نشأ فيهما معاوية رضي الله عنه يعطيانا صورة صادقة عن أهم العوامل التي اثرت في تكوينه وهو صغير من الناحية العاطفية والفكرية . ونستطيع أن نقف علـى وصف مسهب لأبي سفيان يوم رشحه عتبة بن ربيعة زوجاً لابنته هند فقال :

« إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك :

اما الأول ففي الشرف الصميم ، والحسب الكريم ، تخالين به هوجاً من غفلته ، وذلك إسجاح من شيمته . حَسَن الصحابة ، حسن الإجابة . إن تابعته تابعك ، وإن ملت كان معك . تقضين عليه في ماله ، وتكتفين برأيك في ضعفه .

واما الآخر ففي الحسب الحسيب ، والراي الأريب . بـدر أرومته وعز عشيرته ، يؤدب اهله ولا يؤدبونه ، إن اتبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توعّر بهم (١) . شديد الغَيرة ، سريع الطِيرة ، شديد حجاب القبة (٢) . إن جاع ففير منزور، وإن نوزع ففير مقهور.

---

(١) إن جانبوه توعر بهم : إن عصوه قسا عليهم .

(٢) شديد حجاب القبة : حريص على ستر نسائه .

قد بينت لكِ حالهما .

قالت : امــا الأول فسـيد مضـياع لكريمته ، مؤات لها فيما عسى إن لم تعصم أن تلين بعد إبائها (١) ، وتضيع تحت جنائها .

إن جاءت له بولد احمقت ، وإن انجبت فعن خطأ ما انجبت . اطو ذكر هذا عني فلا تسمه لي .

واما الآخر فبعل الحرة الكريمة ، إني لأخلاق هذا لوامقة (٢)، وإني له لموافقة ، وإني لآخذة بأدب البعل مــع لزومي قبتي وقلة تلفتي ، وإن السليل بيني وبينه (٣) لحري أن يكون المدافع عــن حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبتها ، المحامي عن حقيقتها ، الزائن لأرومتها . غير مواكل (٤) ولا زَمّيل (٥) عند ضعضعة الحوادث (٦) . فمن هو ؟

قال : ذاك ابو سفيان بن حرب .

فقالت : فزوجه ولا تلقني إليــه إلقــاء المتسلس السلس ،

---

(١) « مؤات لهــا فيما عسى .. » : لا يثور لخطئهــا الذي يسيء سمعتها وسمعته .

(٢) وامقة : محبة حباً شديداً .

(٣) السليل بيني وبينه : الولد الذي ننجبه .

(٤) مواكل : معتمد على غيره ، عاجز .

(٥) الزميل : الضعيف الجبان .

(٦) ضعضعة الحوادث : وقوع المصائب .

ولا تسمه سوم المواطس الضرس . استخر الله في السماء ، يخر لك بعلمه في القضاء » (١) .

فصورة ابي سفيان عن كثب هي صورة الإنسان الذي حاز على مجموعة من الفضائل في المجتمع الجاهلي هيأته لزعامة عشيرته ، فهو في الحسب في الأرومة والذروة من قبيلته .

ابو سفيان بن حرب، بن امية، بن عبد شمس، بن عبد مناف .

ولقد غدا بدر ارومته ، وعز عشيرته ، لأنه استطاع بقوة شخصيته ان يضبط اهله ، ويفرض عليهم وجوده ، وحين اسلسوا له عنان الطاعة ، اكرمهم ونمى فيهم جوانب القوة والمجد ، لكنه لا يسكت على هَنَة او خطيئة تبدر منهم ، فهو وعر لا يصلون إلى رضاه إلا بالجهد .

وقد دفعه حرصه على اهله ان يكون غيوراً على نسوة عشيرته، قاسياً في فرض سلوك اجتماعي عليهن يتناسب وطبيعة هذا المجتمع، وقد حاز على شرف المال علاوة على شرف النسب ، وحاز على شرف الشجاعة وقوة الشكيمة ، فيرفض ان يستذل او يهان ، ولا يسكت على ضيم ينزل به .

فيكاد يكون قد حاز على قيم المجتمع الجاهلي التي تؤهله للزعامة والقيادة .

غير ان عتبة بن ربيعة اشار من طرف خفي إلى خلق في أبي سفيان قد لا يرتضيه وهو (إذا جاع غير منزور) فجوعه ليس عن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٨ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ . نشر دار صادر ودار بيروت .

حاجة ، وما لم يكن الجوع عن حاجة فهو عن اقتصاد ، وهو الذي اشارت إليه هند بنت عتبة بعد إسلامها فقالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وانا آخذ من امواله الهنة بعد الهنة ، فهل هذه سرقة . فقال : خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف(١) .

لكن ابا سفيان كان يتكلف الجود إذا اقتضى الأمر يدفعه ضريبة وثمناً للزعامة .

هذه شخصية أبي سفيان كما يراها كبير مكة عتبة بن ربيعة .

ولم يتقدم ابو سفيان خاطباً هند بنت عتبة عرَضاً كذلك . فعتبة ابوها في اعتقاده سيد قريش بلا منازع ، وهو يريد أن يصل زعامته بزعامة عتبة بسبب ، نلحظ هذا من حوار جرى بين ابي سفيان ، وبين امية بن ابي الصلت صديقه ونديمه :

« امية لأبي سفيان : حدثني عن عتبة بن ربيعة ، ايجتنب المظالم والمحارم ؟

ابو سفيان : إي والله .

ـ ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

إي والله .

ـ وكريم الطرفين وَسَط في العشيرة ؟

نعم .

ـ فهل تعرف قرشياً اشرف منه ؟

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة في ترجمة هند بنت عتبة وهو مخرّج في الصحيحين .

لا والله لا أعلم . . . » (١)

هذا شرف محتد هند بنت عتبة . فكيف تبدو لنا هند في هذا البيت ؟

انها قوية الشخصية ، وتبدو قوة شخصيتها من خلال موقفين يبرزان نفسيتها الأنوفة وشخصيتها القوية .

فهي تقول لأبيها في جراة لا تحد :

« إني امراة قد ملكت امري ، فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه علي » .

إنها ترفض ان تقاد والاّ تملك من امرها شيئاً .

كما يبدو ذكاؤها الوقاد ، وحصافة عقلها في حسن سبرها للرجال ، وتقديرها لهم يوم خيرت بين الرجلين .

فالمراة العادية ترى في النوع الأول من الرجال منيتها . فهو سمح لين جواد ، حسن المعاملة لزوجته لدرجة الضعف والانقياد لها .

فهي تستطيع ان تحظى عنده بأوفر قسط من السعادة والمتعة، لا تحمل عبء غضبه لأنه سمح ، ولا تحمل عبء بخله لأنه جواد . ولا تحمل عبء نسبه لأنه حسيب نسيب . وماذا تريد المراة أكثر من هذه الوفرة من المزايا في المال والحسب وحسن المعاملة ؟!

بينما تخشى المراة العادية منالنوع الثاني من الرجال . فهو قاسٍ في معاملته ، لا تستطيع ان تصل إلى مآربها لقوة شخصيته ،

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٢٢٢/٢ .

التي تقف سداً منيعاً دون أهوائها وملذاتها ، وتعاني من شدة غَيرته وتطيره الأمرَّين في تأويل كل تصرف لها بسوء ، وقمعها عن كل تحرك عادي يمكن أن يرى به خروجاً عن الجادة .

أما المرأة الحصيفة التي يحركها المجد ، وتستهويها السيادة فترفض ذلك المطواع لها زوجاً ؛ لأن الناس سيتندرون به في مجالسهم ، وهي تقبل بسوط ذلك الوعر القاسي الذي يشهد له قومه بعزته ومنعته ، وتقبل مراقبته لها حتى لو وجدت في ذلك عنتاً ورَهَقاً ؛ طمعاً في جانب آخر تعتز فيه ، هذا الجانب هو أن يكون حامياً لنسائه ، يذود عنهن بالدم والروح .

وكانت هند من الطراز الثاني من النساء ، اللاتي يرين في حسن السمعة والأحدوثة وشرف المجد ؛ ما يضحى بكل شيء في سبيلها .

إن عمق تفكيرها وبعد نظرها ليبدو يوم تتخيل الولد الذي ستنجبه ، فعن أولاد النوع الأول تقول :

(فإن جاءت له بولد أحمقت ، وإن انجبت فعن خطأ ما انجبت) .

بينما تراها تقول في أولاد النوع الثاني :

« وإن السليل بيني وبينه لحريٌ أن يكون المدافع عن حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبتها ، المحامي عن حقيقتها ، الزائن لأرومتها ، غير مواكل ولا زميل عند ضعضعة الحوادث .

ويتبدى لنا بعد هذا كله ـ من خلال محادثة هند وابيها ـ وعيها العجيب حتى في طريقة قبولها لأبي سفيان .

هي ترفض القبول السهل حتى لا يظن أبو سفيان أنه نال فتاة عادية ، ومن غير جهد ؛ فلا يشعر بكرامتها على أبيها .

كما ترفض التعنت حتى لاينصرف أبو سفيان عنها ؛ وهي وامقة لخلاله ، معجبة بخصاله . فكانت وصيتها لأبيها :

« ولا تلقني إليه إلقــاء المتسلس السلس ، ولا تسمه سوم المواطس الضرس » .

وبذلك تحفظ كرامتها ، وتحقق ماربها .

غير ان ختام حديثها يعطينا جانباً جديداً من جوانب شخصيتها فهي تقول : « استخرِ الله في السماء يَخرْ لك بعلمه في القضاء » . ومعنى الاستخارة في المفهوم الجاهلي هــو الاستقسام بالأزلام . وهذا يعني اننا امام فتاة عريقة في جاهليتها ، محافظة على تقاليــد دينها ، وهذه التقاليد متغلغلة في أعماقها .

فرغم كل إعجابها بأبي سفيان ترى أن الاستخارة هي الحل الحاسم في الأمر ومعرفــة رضى الله في السماء يكون بالاستقسام بالأزلام في الأرض ، وهذا ما يضيء لنا معالم الطريق الوعر العنيف الذي سارت به هند وأبو سفيان ضد الدعوة الجديدة التي حمل لواءها الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

والذي لا بد من الإشارة إليه هو أن هند بنت عتبة لم تصــل إلى هذا المستوى من النضج إلا بعد أن عركتها السنون وحنكتهــا التجارب ؛ إذ قد كانت زوجة للفاكه بن المغيرة قبل زواجهــا بأبي سفيان بن حرب وقد طعنها في أعز ما تملكه ؛ في عرضها وشرفها ، واحتكموا إلى كاهن باليمن ، فبرأ ساحتها من هذا الاتهام الظالم . وابت بعدها أن تعود لزوجها الفاكه بن المغيرة الذي اقبل عليهــا بلهفة وشوق بعد براءتها ، ومرت ثمان سنين بين زواجها من أبي سفيان وتركها للفاكه بن المغيرة .

ولقد تركت هذه الحادثة ـ التي هزت كيان هند ـ اثـراً عميقاً وعنيفاً في نفسها ، فهي تنضح بالكراهية والحقد للفاكه بـن المغيرة زوجها السابق وهي تزداد انفة واستعلاءً يوم ترى اهل مكة جميعاً قد براوا ساحتها بعد تبرئة الكاهن اليمني لها .

لكن الذي يعنينا من الأمر هو تلك الإضافة الجديدة لقناعات هند في دين قومها وتقاليدهم ، فهي قد لمست في هذا الكاهن صدقاً لا يعتريه الشك يوم كشف الخبء الذي خبأه له ابوها عتبة ، ويوم براها نظيفة طاهرة من بين العديد من النسوة التي كانت بينهن .

نحن إذن مع امراة متمسكة بدين قومها وتقاليدهم اشـد التمسك ، وعاشقة للشرف والشهرة أعظم العشق واقواه .

بينما لا نجد جانب التعصب والتدين لدى ابي سفيان . فهو الذي امضى حياته في التجارة والسفر ، ولقد راى اديانا غير دين قومه وعوالم غير عالم قومه ، والتقى مع عصـارات الحضـارات العالمية ؛ فلقد زار الشام والعراق ، ووصل إلى بلاط الغساسنـة والمناذرة ، وبلاط كسرى وقيصر . لقد كان لهذه الخبرة اثر كبـير في تفكير ابي سفيان . لقد كان تاجراً قبل كل شيء . يجمع ويطرح فما يحقق له الزعامة يتبناه ، وما يحقق له الثروة يسعى إليـه ، وما يلبي أشواقه وعواطفه يهجم عليه دون ان يخل بمروءته . وهو مستعد أن يقدم ضريبة الشرف والسؤدد مهما كان الثمن غالياً .

فعندما بنى أبو سفيان بهند بنت عتبة حدث ما أثار انظار اهل مكة وكان حديث نواديها .

فلقد وصل مكة عشر جزائر (جمال) هدية من ملك اليمن ، وامر أن ينحرها اعز قريش ، ومضى الناس يتساءلون عمن سيقدم على نحرها ويغامر بحياته في بلد يتنافس اهله على الشرف والزعامة؟!

وهند التي تمضي أحلى أيام شبابها وساعات أحلامها الرغيدة مع أبي سفيان ؛ لم تنس ما اهتزت له من قصة الجزائر العشر . فقالت لزوجها ابن حرب : لا يشغلنّك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك .

فأجاب وهو غارق في لذتــه :

يا هذه ، دعي زوجك وما يختاره لنفسه . والله ما نحرها أحدٌ غيري إلا نحرته .

وبقيت الجزائر العشر معقولة في مكة دون أن يجرؤ من التقدم إليها أحد ، وعندما انهى أبو سفيان يومه السابع خرج من بيته ، ومضى إلى الإبل فنحرها معلناً على الملأ انه اعز شباب قريش ، وراحت هند تفاخر بهذا الشرف الـذي أصابـه زوجها وجعلت تنفس على النساء أن تكون عقيلة اعز رجل من قريش .

ترى ، هل ينتهي طموح هند عند هذا الحد ؟!

لا ، أبداً . فعندما كان وليدها معاوية يحبو في فناء بيته نظر أبو سفيان إليه ، ثم قال لهند : إن ابني هذا لعظيم الراس ، وإنه لخليق أن يسود قومه !!

فأجابته : قومه قط ، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة(١) !!

فهي ترى به علائم النبوغ وتتطلع من خلاله إلى ملك عريض واسع يكون هو الآمر الناهي فيه .

* * *

---

(١) رواه محمد بن سعد في الطبقات . كما أورده ابن كثير في البداية ١١٨/٨ .

الإسْـلام يَغـزو قلبَ معَاويَـة

شاءت الأقدار أن يكون البيت الأموي عمومـاً ـ ولسنوات طويلة ـ في جانب والدعوة الإسلامية في جانب آخـر ، وأن يدرج معاوية في هذه البيئة بعيداً عن الإسلام ورسوله .

وبعد غزوة بدرٍ نما الحقد على الإسلام ورسوله وتمكن في بيت أبي سفيان،وحزن معاوية لمقتل جده عتبة ولمقتل خاله الوليد واخيه حنظلة وزاد من حزنه شدة وَجْد أمه هند عليهم . ومضت سنوات ومعاوية يعيش في هذا البيت الذي نصب العداء شديداً للاسلام ، واحتوت ذاكرته صوراً ومشاهد كثيرة عن تلك الفترة لكن مشهداً منها هز كيانه كله وحفر في ذاكرته !!

هذا المشهد هو مقتل خبيب بن عدي رضي الله عنه في مكة وقد اخذ أسيراً إليها يوم الرجيع ، وها هو خبيب يرفع يديه للسماء قائـلاً :

اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا !!

كان أبو سفيان في مقدمة من شهد مصرع خبيب ، وكان معاوية ابنه واقفاً جنبه . وعندما قال خبيب ضارعاً إلى ربه : اللهـم ، أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً ؛ سرعان ما رأى أباه يهوي به إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب !! يقول معاوية :

حضرته (أي مقتل خبيب) يومئذ فيمن حضره مع أبي‌سفيان. فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقاً من دعوة خبيب ، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه (١) .

كان لهذا الموقف اثر كبير في نفسه جعله نهبة لكثير من الأفكار. ترى لو كان خبيب وصحبه مبطلين فما الذي حدا بأبيه أن يهوي به إلى الأرض خوفاً من دعوة خبيب الا ّ تصيبه ؟! وإن كان محقاً ففيم لا تأتلف كلمة قريش براي واحد ، وتنتهي الحرب مع محمد وأصحابه ؟! إنه لم يكن على ثقة تامة من صواب موقف قومه ومعتقداتهم .

ثم إن هذا المشهد ـ مشهد مصرع خبيب ـ قد زرع في نفسه قلقاً اخذ ينمو مع الزمن ؛ ليدفعه إلى موقف محدد بعد حين .

* * *

كان في الثانية والعشرين من عمره حين تجمعت الأحزاب من غطفان وقريش لغزو المدينة ، وكان يرى أن هذه المعركة ستكون حاسمة في مصير الإسلام والمسلمين . ولكنه عاد مع من عاد يجر أذيال الخيبة ، وأصغى إلى ابيه وهو يخاطب أهل مكة ليلة انسحاب الأحزاب :

« يا معشر قريش : إنكم ـ والله ـ ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكرَاع والخف (٢) وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام . مقتل خبيب واصحابه (سرية الرجيع) .

(٢) الكراع : الخيل ، الخف : الإبل .

نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون : ما تطمئن لنا قدر ، ولاتقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا فإني مرتحل » ثم رأى اباه قد قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه . ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم (١) .

وتوترت اعصاب معاوية وهو يرى الحرب وقد أعطت ثمارها المرة ، إذ استهلكت الأموال ، ومحت الآمال وبدا له ان تحقيق نصر حاسم على محمد بعيد المنال .

* * *

وعندما فاجأ رسول الله ﷺ اهل مكة في العام التالي برغبته في زيارة البيت الحرام اعتبروا ذلك إهانة بالغة لهم ، واعلنوا انه لا يدخلها عليهم عنوة أبداً . وتمضي الرسل بينهم وبين المسلمين ، وتسفر المباحثات عن عقد صلح الحديبية بين الفريقين .

وليّن هذا الصلح شيئاً من الجمود الذي ران على النفوس ، ومحا شيئاً من الحقد الذي غلّف القلوب ، وتفتحت نوافذ النور على قلوب القرشيين فبصرت الحق : فهذا خالد بن الوليد قائد الفرسان تتزعزع نفسه عقب هذا الصلح ، ويرى ان امر محمد يعلو علواً منكراً . ويرى أن الله بجانب محمد واصحابه ولن يتخلى عنهم !! وهذا عمرو بن العاص يتغير موقفه ، وهذا الفتى اليافع الذي دخل في الرابعة والعشرين من عمره « معاوية » ابن زعيم مكة « أبي سفيان » يتفتح قلبه للنور أيضاً .



---

(١) السيرة لابن هشام (غزوة الأحزاب) .

كان يعرف هول الموقف إذا أعلن إسلامه وهو يرى أباه يقود الحرب ضد محمد وأصحابه . لقد دخـل اليقين إلى قلبه . ولكن هذا اليقين مالم يعلن ويتحمل صاحبه عواقبه لاجدوى منه . وفكر في أن يعرض على أمه هذه القناعة . .

كان يعلم مدى حقد امه على المسلمين آنذاك . فمقتل أخيها وابيها وعمها وابنها لايزال غضاً في قلبها ؛ لكن علاقته بأمه كانت من العمق بحيث لم يكن يرى أن يخفي عنها ما يعتمل في نفسه . وحبها له من القوة بحيث تفتفر له كل ما يصدر عنه مما تكرهه .

وتشجع معاوية ذات يوم ، وقصَّ عليها قناعته بهذا الدين ورغبته بالهجرة إلى يثرب .

وغضبت هند وقالت له مهددة متوعدة : إن خرجتَ قطعنا عنك القوت (١) .

وغدت هند تخشى ان تستيقظ في أي يوم فلا ترى ابنها إلى جانبها . فتسأل عنه فيقال لها : هاجر إلى يثرب .

وصارت كالذي يقف بين نارين فلايدري أيهما أخف فيقحمها : هل تكتم الخبر عن أبي سفيان حتى لايؤذي ولدها الحبيب معاوية . أو أن تلقي إليه بالخبر فيحول دون هجرة ولدها إلى المدينة ؟

وعانت من هذين الموقفين الكثير . غير أنها رجحت في النهاية الموقف الأول وبلغ أبا سفيان ما يعتمل في فؤاد ابنه معاوية ـ وكان هو نفسه يعاني بعض ما يعاني ابنه لكنه مضطر لكظمه ـ فقال له :

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ج٣ ص١٤ .

هــذا اخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه .

فأسرّها معاوية في نفسه ولم يبدها له . وقال : لم آل نفسي جهــداً .

* * *

يحدثنا معاوية رضي الله عنه عن إسلامه فيقول :

لقد اسلمت قبل عمرة القضية ، ولكني كنت اخاف ان اخرج إلى المدينة لأن امي كانت تقول لي : إن خرجت قطعنا عنك القوت .

ويقول :

ولقد دخــل علينا رسول الله ﷺ مكة في عمــرة القضاء وإني لمصدّق بــه .

ثم لما دخل عام الفتح اظهرتُ إسلامي فجئته فرحب بي (١) .



(١) البداية والنهاية ج٨ ص ١١٨ .

الإسلام يدخل بيت أبي سُفيان

دخل رســول الله ﷺ مكة فاتحاً في العــام الثامن للهجرة ؛ وعانى يومها أبو سفيان من آلام الاستسلام والهزيمة مالايوصف ، وهو وإن كان قد أعلن في ظاهر الأمر دخوله في الإسلام ؛ إلا أن طعم الهزيمة مر . وهاهو ينظر إلى رسول الله ﷺ والناس قد اجتمعوا حوله . فعرض له خاطر استسلم له قليلاً ، وقال في نفسه : لــو جمعت لمحمد جمعاً .

إن إمكانية النصر في هذا الجمع وإن كانت بعيدة ، لكنها ليست مستحيلة . . إنه لو انتصر لكانت هذه الجموع من الناس كلها تتجه نحوه ، وتنتظر كلمة من شفتيه ، تقرر مصير الألوف من الناس . ها هو الآن امرءاً عادياً لايلتفت إليه أحد ، ولا يعبأ به أحد . ومــا أغنى عنه فخر البارحة ــ من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ــ .

وراح يراجع رصيده من جديد . أيمضي إلى اقاربه من ثقيف يجمع الجموع . ام ماذا يفعل ؟ .

وبينا هو على هذه الحال إذا بيد تصكه بين كتفيه ، فينتفض كمن لسعته حية ، ويستيقظ من ذهوله وينظر ؛ فإذا هــو محمد رسول الله ﷺ ، فيتكلف له الابتسامة ، لكن الذي افقده صوابه هو قول الرسول ﷺ :

« إذاً يخزيك الله » (١) .

وفي أسرع من لمح البصر ربط بين قوله في سريرة نفسه : (لو جمعت لمحمد جمعاً) وبين قول رسول الله له : (إذاً يخزيك الله).

فعرف يقيناً انه بين يدي نبي مبعوث من السماء ، عرف مايجول بخاطره بوحي من الله . فقال وقد رفع رأسه إليه :

ـ ما أيقنت انك رسول الله حتى الساعة .

وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، والله ما تفوهت به ، إلا شيءٌ حدثت به نفسي .

ودخل أبو سفيان في الإسلام صادقاً موقناً . وفي المساء والناس يكبِّرون ويهللون أحب أبو سفيان أن يدغدغ مشاعر هند زوجه . فقال لها وأصوات التكبير من المسلمين تصك آذانها : أترين هذا من الله ؟

قالت : نعم هذا من الله .

وهكذا بدأت معالم الصورة الحاقدة على رسول الله تمحي شيئاً فشيئاً . إن هؤلاء الذين حاربتهم هند ، وتقربت إلى آلهتها بحربهم . لم يغمض لهم جفن ليلتهم وهم يكبرون ويهللون ، ولقد عبرت عن إعجابها بهم حين قالت لزوجها : (ما رأيت اللهَ عُبِد حق عبادته حتى اليوم) .

---

(١) أصل الرواية عند ابن سعد عن الواقدي ، وقد أوردها ابن كثير في البداية ج٢ ص ٣٠٤ . ولها شاهد عند البيهقي قريب من ذلك .

وعندما بلغها أن الناس يبايعون على الإسلام جاءت تقود نسوة مكة إلى رسول الله ﷺ وذلك عند الصفا ، وعمر بن الخطاب يأخذ البيعة منهن .. كانت متنقبة متنكرة تخشى أن يعرفها النبي فيأمر بقتلهـــا .

لقد ولغت من قبل بكبد حمزة عمه وشوهته ، ولقد أثارت أعمق مافي نفسه من آلام !!

كان قلبها يخفق خفقاً رهيباً فهي بين الأمل بالعفو ، والخوف من الانتقام .

ويقول رسول الله ﷺ للنسوة :

ـ بايعنني على أن لاتشركن بالله شيئاً .

هند : والله إنك لتأخذ علينا مالاتأخذه من الرجال (وبايعت على ذلك) .

رسول الله : ولا تسرقن .

هند : والله إني كنت أصبت من مـــال ابي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا .

أبو سفيان : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل .

رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟!

هند : نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك .

رسول الله : ولا تزنين .

هند : يا رسول الله وهل تزني الحرة ؟!

رسول الله : ولا تقتلن اولادكن .

هند : قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم انت واصحابك ببدر كباراً (ويضحك عمر من قول هند حتى يستغرق) .

رسول الله : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وارجلهن .

هند : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز امثل .

رسول الله : بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم .

وتقبل هند على رسول الله وتقول له :

يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض اهل خباء احب إلي من أن يذلوا من اهل خبائك . ثم ما أصبح على ظهر الأرض اهل خباء احب إلي من أن يعزّوا من اهل خبائك .

ويجيبها رسول الله ﷺ : وايضاً والذي نفس محمد بيده (١).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص ٣١٩ . وقد أخرجه مسلم والبيهقي عن عائشة .

ومعنى كلمة النبي ﷺ : وايضاً والذي نفسي بيده : وستزيدين من ذلك ، ويتمكن الإيمان من قلبك ويزيد حبك لله ولرسوله ﷺ ، ويقوى رجوعك عن بغضه . عن شرح صحيح مسلم للنووي .

قلت : وهذا لعمر الحق شهادة رائعة بصدق إيمان هند ، وفضيلة كبيرة سافرة نطق بها الصادق المصدوق لهذه الصحابية الجليلة التي كانت على ماكانت عليه ، ثم صارت إلى هذه المنزلة الرفيعة . (الناشر)

وانتهت بذلك مرحلة مـن الصراع استمرت مـاينوف عن عشرين عاماً .

واصبح ابو سفيان وزوجه هند بنت عتبة جنديين من جنود الدعوة الإسلامية ، ومسح الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه الجراحـات بيده الحانية ، وغض النظر عن الاسـاءات الكبرى ، والأحقاد الهائلة التي أجج ابو سفيان وزوجه أوارها حين قال لهند :

وأيضاً والذي نفس محمد بيده .

وعادت إلى بيتها والإيمان يعمر قلبهـا ، فوقع نظرهـا على الصنم في زاوية من البيت فاندفعت بغضب شديد إلى الصنم تهشم وجهه وتحطمه قائلة :

كنا منك في غرور !!

* * *

أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على ظهر الكعبة .

وكان أبو سفيان بن حرب وعتّاب بن أسيد والحارث بن هشام قد خلوا ثلاثتهم بفناء الكعبة ، فلما سمعوا النداء قال عتاب :

لقد اكرم الله أسيداً الاّ يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. واجابه الحارث : اما والله لو أعلم انه حق لاتبعته .

لكن أبا سفيان قال : والله لا اقول شيئاً . ولو تكلمتُ لأخبرت عني هذه الحصباء !!

وخرج عليهم النبي ﷺ ، وفاجأهم بقوله :

« **قد علمت الذي قلتم** » ثم ذكر لهم ذلك .

وصاح الحارث وعتّاب : نشهد أنك رسول الله . والله ما اطلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك (١) .

* * *

ومضى أبو سفيان ومشيخة قريش مع رسول الله ﷺ إلى هوازن ، وحضر الحرب دون قتال (٢) .

ثم تابع السير مع الجيش الإسلامي إلى ثقيف ، وقد رأى بأم عينه كيف أنجز الله وعده، ونصر عبده محمداً ﷺ على هوازن، وآلمه أن المعركة انتهت دون أن يشارك فيها ولو بسهم . فجاشت نفسه إلى لقاء العدو ، ومن أجل هذا ما إن توجه رسول الله إلى ثقيف حتى اندفع أبو سفيان يقاتل وينازل . وبينا هو كذلك إذا بسهم يهوي إليه فينال منه أغلى ما يملك ، ينفرز السهم بعينه ، فتخرج سائلة على وجهه . ومضى أبو سفيان إلى رسول الله يقول له : هذه عيني أصيبت في سبيل الله .

---

(١) السيرة لابن هشام : ج٤ فتح مكة ص٢٧ . ط كتاب التحرير ١٣٨٤ هـ .

(٢) روى ابن اسحاق أن أبا سفيان قال في حنين عندما فر المسلمون في بداية المعركة : (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر . وإن الأزلام لمعه في كنانته) . وقد ساقها ابن اسحاق دون إسناد عن احد ، فلا ندري مقدار صحتها ، ومن أين استقى خبرها ؟!

قلت : إن الخبرالتالي الذي ساقه المؤلف مما روته كتب السير وتراجم الصحابة ، والذي يظهر بلاء ابي سفيان في حصار الطائف وذهاب عينه في ذلك ، يرد هـذا الخبر الذي ساقه ابن اسحاق .

(الناشر)

واجابه عليه الصلاة والسلام : إن شئت دعوت فردت عليك، وإن شئت فالجنة (١) .

وصاح ابو سفيان : الجنة .

ورأى أبو سفيان في لحظة واحدة تاريخ جاهليته يطوى بهذه المأثرة التي ساقها الله إليه ، وايقن انـه قد مشى على الطريق ، طريقِ الجهاد الذي سوف ينتهي به إلى الجنة !!

وعاد الجيش الإسلامي من حصار الطائف ، ونزل رسول الله بالجعرانة يريد قسمة الغنائم الهائلة التي غنمها المسلمون في معركة حنين ، ولم يدرِ ابو سفيان هل سيناله منها شيء أم لا ؟

وتقدم ابو سفيان على استحياء من رسول الله وقال له :

(يا رسول الله انت اليوم أغنى قريش) .

فتبسم رسول الله ﷺ ، وأدرك ماذا يعتمل في خاطر الرجل.

وقال ابو سفيان : حظنا من هذه الأموال .

وأمر رسول الله بلالاً فأعطاه مائة من الإبل واربعين اوقية من الفضـــة .

فقال : حظ ابني يزيد .

فأعطاه ايضاً مائة من الإبل واربعين اوقية .

فقال : فأين حظ ابني معاوية .

فأمر له ايضاً بمائة من الإبل واربعين اوقية .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ، رواه الزبير عن طريق سعيد ابن عبيد الثقفي ج٣ ص١٧٣ .

ورأى أبو سفيان انه قد حصل له من الغنائم شيء لم يخطر له على بال ، وأن النبي قد بالغ في اعطائه، فقال: بأبي وأمي يا رسول الله لأنت كريم في الحرب والسلم هذه غاية الكرم، جزاك الله خيراً (١).

* * *

أسلم سيد ثقيف عروة بن مسعود صهر أبي سفيان فقتلته ثقيف عندما دعاهم إلى الله وقال فيه رسول الله ﷺ :

مثله في قومه كمثل صاحب « يس » في قومه .

وتسلل أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود ليلاً من ثقيف ويمما صوب المدينة يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعاها على شيء أبدا .

فسلما على رسول الله بتحية الإسلام .

فقال لهما رسول الله ﷺ : توليا من شئتما .

قالا : نتولى الله ورسوله .

فقال رسول الله ﷺ : وخالكما أبا سفيان .

قالا : وخالنا أبا سفيان بن حرب .

ثم جاء وفد ثقيف بإسلام القبيلة كاملة . وكان رسول الله ﷺ يحب أن يكرم أبا سفيان، ويفجر طاقاته في سبيل الله، فكلفه مع المغيرة بن شعبة بهدم اللات صنم العرب الأكبر الذي كان في ثقيف .

---

(١) مختصر السيرة لعبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣١٨ .

وبطبعه السياسي الأريب لم يشارك في هدمها خوفاً من ثورة ثقيف عليه كما قال ، اما المغيرة بن شعبة فقد قام قومه بحمايته أثناء عملية الهدم .

وكان أبو سفيان يستشعر حياته الطويلة في حرب الإسلام ، ويراجع رصيده وكيف كان يعظم اللات حتى ليقسم بها قبل العزى، وهاهي الآن تندكُ بمعاول الإسلام بيد المغيرة كما دكت العزى على يد خالد بن الوليد .

فينظر إليها ساخراً منها ومن نفسه ، شامتاً بها وبنفسه يوم كان يعبدها وقال : واهاً لك ، واهاً لك !!

وسرّه مابها من حلي وجواهر كانت له وللمغيرة . وإذا برسالة رسول الله ﷺ له أن يدفع دين ولدي أخته أبي مليح بن عروة ، وقارب بن الأسود قائلاً له :

إن رسول الله قد أمرك أن تقضي عن عروة والأسود دَينهما فقضى عنهما (١) .

وراح المال يصهر الحقد الذي حمله على الأيام على محمد رسول الله وصحبه المجاهدين .

* * *

احس أبو سفيان أن الناس لا يزالون ينقبضون منه ، ويزورّون عنه . فلم ينس الناس له بعد حربه الطويلة لله ورسوله. فجلس ذات يوم يستعرض هذا الواقع الذي يتجرع منه الغصص

---

(١) مختصر السيرة ص٣٢٥ .

المرة ، ويذكره بأيامه السود الكالحة التي جبّها الإسلام ، ولكنها لم تغب عن أذهان الناس بعد،وضاقت به الدنيا وهو يستعرض الحلول التي يطوي فيها من أذهان الناس تلك الصفحة القاتمة . وبعد تفكير عميق وكد ذهني اهتدى إلى الحل . فمضى على جناح السرعة إلى الرسول ﷺ فاستقبله ورحّب به وأدناه .

فقال أبو سفيان : يا نبي الله ثلاث اعطيهن .

قال : نعم .

قال : عندي أحسن نساء العرب واجملهن عزة بنت أبي سفيان أزوجكهـا .

رسول الله : إن ذلك لايحل لي (١) .

قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك .

قال : نعم .

قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين .

---

(١) الذي ورد في رواية مسلم هو زواج أم حبيبة وليس زواج عزة . والرواة مجمعون على وهم راوي الحديث ـ عكرمة بن عمار ـ لأن أم حبيبة رضي الله عنها زوجها النجاشي من رسول الله قبل فتح خيبر بأمر رسول الله وبقيت في بيت رسول الله ﷺ منذ ذلك الوقت، ونزل عليها أبوها أبو سفيان وهو مشرك يوم جاء المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة . وطوت عنه فراش رسول الله . وقد اختار ابن كثير هذا الرأي وهو زواج اختها . واعتذار رسول الله ﷺ عن ذلك لأنه لايجوز الجمع بين أختين ، وهو الأقرب للصواب .

قال : نعم (١) .

وانفرجت أسارير أبي سفيان ، وملأت الغبطة جوانحه ، وملكت عليه فؤاده ، ثم حمل البشرى إلى ولده معاوية ، الذي دخله من السرور مالايوصف أن صار كاتباً بين يدي البشير النذير ﷺ .



---

(١) رواه مسلم وقال : قال أبو زميل : ولولا أنه طلب ذلك من النبي ﷺ ما أعطاه ذلك لأنه لم يكن يسأل شيئاً إلا قال نعم .

قلت : أبو زميل هذا أحد الرواة واسمه « سماك بن الوليد » ولا نسلّم له بقوله: (ولولا أنه طلب ذلك من النبي ﷺ ما أعطاه ذلك لأنه لم يكن يسأل شيئاً إلا قال نعم) على إطلاقه ؛ فقد كان النبي ﷺ يمنع الإمرة من يطلبها ، وفي البخاري أن النبي ﷺ قال لرجلين من الأشعريين سألاه الإمرة : (لن نستعمل على عملنا من أراده) ؛ أما وقد سألها هنا أبو سفيان وأعطاه إياها ، فهذا مزيد إكرام منه عليه السلام لهذا الرجل، وهذا يعدّ في فضائل أبي سفيان رضي الله عنه.

(الناشر)

معاوية في مدرسة النبوة

أقام معاوية في المدينة وكان أسعد ما يكون ساعة يستدعيه رسول الله ﷺ ليملي عليه الوحي غضاً كما سمعه من جبريل عليه السلام. فينبلج قلبه بالنور، ويغمر فؤاده اليقين، وكان أحب شيء إليه أن يمضي وقته عند أم حبيبة أخته. فهو عندئذ في بيت النبوة، فأم حبيبة زوج النبي ﷺ. وكان يحرص أن يجلس إلى النبي ﷺ في المسجد ينهل من معين النبوة، ويرتشف من منهلها فينصرف مروياً بعد صدى.

لقد صار كل همه أن يتلقى العلم والحكمة من الرسول صلوات الله عليه فلقد فاته خير كثير. وغدا لا يأتي إلا والقلم معه، ينتظر أن يسمع المنادي يناديه ليكتب لرسول الله ﷺ.

وذات يوم وقد عرف أن رسول الله سيدخل على أخته أم حبيبة، وكانت عائشة أم المؤمنين تلحظ آنذاك حجرة أم حبيبة؛ فرأت معاوية يستأذن على أخته، والقلم على أذنه.

أقبل يومها ثم طرق الباب وقلبه يخفق خوفاً أن لا يؤذن له، فقال النبي ﷺ:

ـ انظروا من هذا؟

ـ قالوا: معاوية.

ـ قال: ائذنوا له.

فدخل وعلى أذنه القلم ، فقال (عليه الصلاة والسلام) :

ــ ما هذا القلم على أذنك يا معاوية ؟

ــ قال : قلم أعددته لله ورسوله .

فقال له : جزاك الله عن نبيك خيراً ، والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله .

(وكانت أم حبيبة تستمع إلى ثناء رسول الله على أخيها فتطرب من الفرح . فأصغت إلى رسول الله ﷺ حيث تابع قائلاً) :

وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من الله . .

وتابع يقول :

كيف بك لو قمصك الله قميصاً ؟

وما أن صكّ هذا الكلام أذني أم حبيبة . حتى بادرت تسأل النبي :

ــ يا رسول الله وإن الله مقمصه قميصاً ؟؟

ــ نعم ، ولكن فيه هنات وهنات .

ــ يا رسول الله فادع الله له .

ورفع رسول الله يديه يدعو لمعاوية :

ــ اللهم اهده بالهدى ، وجنبه الردى ، واغفر له في الآخرة والأولى). (١) . وخرج معاوية كأنما ملك الدنيا كلها بعد الذي سمعه من دعاء رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه الطبراني عن عائشة ورواته ثقات وهم أحمد بن محمد الصيدلاني عن السري عن عاصم عن عبد الله بن يحيى عن هشام ابن عروة عن أبيه .

وما من مرة كان رسول الله ﷺ يستدعيه إلا وكان أسرع مايكون بين يديه عليه السلام ، إلا تلك المرة التي حدثنا عنها ابن عباس قائلاً :

« كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ . فقلت : ماجاء إلا إليّ ، فاختبأت على باب ، فجاءني فخطاني خطاة أو خطاتين (١) ، ثم قال :

اذهب فادع لي معاوية .

قال : فذهبت إليه فدعوته له ، فقيل : إنه يأكل .

فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنه ياكل .

فقال : اذهب فادعه .

فأتيته الثانية فقيل : إنه يأكل .. فاخبرته .

فقال في الثالثة : لااشبع الله بطنه » (٢) .

---

(١) خطاني : صفعني على رقبتي .

(٢) اخرجه مسلم عن ابن عباس .

قلت: أورد مسلم حديث «لا أشبع الله بطنه» ثم اتبعه بحديث رواه البخاري أيضاً ، وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة، ان رسول الله ﷺ قال : « اللهم إنما انا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه ، وليس لذلك اهلاً ، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة » وهكذا ركّب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية . وهذا من فقهه العظيم رحمه الله ، واقره على ذلك العلماء .

(الناشر)

ولشد ما تألم معاوية عندما بلغه أن رسول الله دعاه ولم يلب ، ولعل أهله لم يخبروه بذلك .

وكان كل ما يخشاه أن يكون رسول الله قد غضب منه أو تغير قلبه عليه ، فكان يحرص على أن لايفارقه ، وكان ينظر في وجهه هل يعتب عليه بشيء ؟ . ولم يكن ليستقر له قرار في ليل أو نهار ، بل كان يوصي أخته أم حبيبة أن تذكره أمام رسول الله . لتعلم هل في قلبه شيء عليه . أم لا .

إلى أن جاءته البشارة ذات ليلة أن رسول الله دعا له .

وكان ذلك حين دخل العرباض بن سارية المسجد النبوي في السحر ، فرآه الرسول فقال له : هلم إلى الغداء المبارك .

يقول العرباض رضي الله عنه :

ثم سمعته يقول :

اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ، وقه العذاب (١) .



وشغلت كلمة رسول الله التي قالها له من قبل (كيف بك لو قمصك الله قميصاً) بال معاوية وجعل يتساءل : هل سيلي أمر المسلمين ذات يوم ؟

كيف يكون ذلك وهو الشاب الغَمْرُ ، وقد سبقه السابقون في الجهاد والتفقه في دين الله .

---

(١) أخرجه الامام أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه ورواته ثقــات .

وجعل يطرد هذا الهاجس من راسه ويقول في نفسه : ألم يقل له رسول الله ذلك ، ولا يقول النبي إلا حقاً !! فلم يبحث عن الكيفية؟ ولكن ما هذه الهنات والهنات .

إنه لايجرؤ أن يرفع بصره في وجه رسول الله ﷺ فكيف يتمكن إذاً أن يسأله عن هذه الهنات والهنات ؟!!

لايمكن أن يكون ذلك إلا اذا انفرد به صلوات الله وسلامه عليه ومع ذلك فهل يجرؤ أن يفاتح رسول الله فيه .

وحانت له الفرصة ذات يوم .

فلقد اشتكى أبو هريرة ـ وكان يحمل الأداوة لرسول الله ﷺ ـ فأسرع معاوية واخذ الأداوة ليوضىء بها رسول الله ، وجعل قلبه يخفق إجلالاً لرسول الله .

هاهو يسكب الماء على يديه عليه السلام . والهواجس تدور في خلده وتعتلج في صدره . فماذا يسأل رسول الله ؟

ونظر رسول الله ﷺ نظرة فاحصة إلى معاوية ، فأغضى معاوية حياءً وهيبة من رسول الله .

وأعاد رسول الله نظره إليه وهو يبتسم وقال له :

« يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله واعدل » (١) .

وامتلأ معاوية سروراً بما سمع ، وتابع صبه الماء على يدي النبي ﷺ .

---

(١) أورده ابن كثير عن أبي يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا وابن منده ، ورواه الإمام أحمد عن روح عن عمرو بن يحيى عن جده.

ونظر رسول الله ثانية إليه وقال :

(أما إنك ستلي أمر أمتي بعدي ، فإذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم)(١) .

وايقن معاوية بعد ما سمع هذه الكلمة الصريحة من النبي انه سيبتلى بأمر المسلمين .

بَيْدَ انه لم ينس كلمته عليه السلام:« فيه هَنات وهَنات»!!

ترى الا يتعرض لدعوة ينالها من رسول الله فتذهب هناته وتريح نفســــه ؟

وانتظر معاوية هذه الدعوة ، وجاءت فيما بعد ، وقال لــه يوماً ــ وعبد الرحمن بن ابي عميرة عنده ــ : « اللهم اجعله هادياً واهد به » (٢) .

واقبل معاوية على رسول الله يتعلم منه ، ويقتبس من هديه ، وزاده شغفاً بالعلم تلك الكلمة الرائعة التي سمعها من رسول الله يحض بها على طلب العلم والتفقه في الدين ، لقد سمعه يوماً يقول:

(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما انا قاسم ، والله عزوجل يعطي . ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) (٣) .

---

(١) ابن كثير عن غالب القطان عن الحسن . ورواه البيهقي بلفظ : إذا ملكت فأحسن .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه البخاري .

لقد أخذ من الدنيا ما فيه غناه ، فلقد قسم له رسول الله ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة .

وما عليه إلا أن يجتهد اجتهاداً عظيماً في صحبة رسول الله والأخذ عنه .

وكان اشد ما يشغل باله أن يتخلص من رواسب جاهليته كلها .

لقد كان في جاهليته يشرب الخمر ويلبس الحرير ، ويهوى تقاليد الجاهلية ، والآن يريد أن يخلع كل جاهليته ، وجعل يصغي إلى كل حديث يتحدثه الرسول ﷺ ، ويسارع إلى تطبيقه .

أما بالنسبة للخمر فقد عرف تحريمها من كتاب الله . لكن لفت انتباهه ماسمعه من رسول الله ﷺ في هذا الصدد وهو :

كل مسكر حرام على كل مؤمن (١) .

فلا بد له إذاً أن يتجنب كل مسكر ، أو فيه شبهة الإسكار . حرصاً على مرضاة الله .

وثار في ذهنه سؤال عن اللباس ، فهو يجد معظم المسلمين بعيدين عن التنعم ، حتى ولو كانوا أغنياء . وراح يسائل نفسه : هل هو رغبة منهم في الزهد في نعيم الدنيا ، أم هو محرم يجتنبوه . إنه يود أن يعرف الحلال والحرام في هذا المجال .

وذات يوم سمع رسول الله ﷺ ينهى عن لبس الحرير والتختم بالذهب ، فأدرك الحكم الشرعي ، بيد أنه فوجىء يوماً برسول الله ﷺ يقول :

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن معاوية بن أبي سفيان . كتاب الأشربة . رقم الحديث ٣٣٨٩ .

لا تركبوا الخز ولا النمار (١) .

فعلم أن الأمر إذاً أوسع مما كان يتوقع ، فليس النهي منصباً على اللباس فقط .

لكنه منصب كذلك على الاستعمال والتباهي به سواءً كان على الجسم أم على البرذون أم في البيت . وبذلك عرف حكم الله في اللباس وعرف الحد بين الحلال والحرام في هذا المجال .

وسمع معاوية ذات يوم النبي يذم التمادح ، فاضطرب لما سمع فهو ممن يحب المديح والثناء ، ويحب كذلك أن يثني على من هم أهل للثناء .

أجل قرع سمعه رسول الله ﷺ يقول :

« إياكم والتمادح » .

ويردف هذا التحذير بقوله : « فإنه الذبح »(٢) .

وخلا إلى نفسه ملياً يفكر في هذا النهي والحكمة منه ، وانتهى بعد لأي إلى أن النهي منصب على المديح الكاذب ، والتملق الذي ينبت النفاق في القلب . والثناء على الباطل واهله طمعاً في المال ، ورغبة في المجد . حيث عرف من إخوانه أن رسول الله ﷺ قال:

« احثوا في وجوه المداحين التراب » .

---

(١) سنن أبي داود أخرجه عن معاوية بن ابي سفيان ج٢ ص ٣٨٨ . باب في جلود النمور والسباع .

(٢) سنن ابن ماجه اخرجه عن معاوية بن أبي سفيان . ص١٢٣٢ . رقم الحديث ٣٧٤٣ . وهو حديث حسن .

وهم الذين يتسكعون على ابواب الأمراء والملوك وزعماء القبائل يكيلون لهم الوان المديح بالحق والباطل ليصلوا إلى اموالهم .

لكنه عرف كذلك من قول الله جل شأنه ان القيمة الحقيقية للإنسان ليست في راي الناس فيه وإنما في منزلته عند ربه ؛ وذلك عندما تلا قوله تعالى : (فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى) وتعلّم من رسول‌الله ادب‌الإسلام في الثناء وذلك في ان يقول لمن يود مديحه:

احسبه كذا ، والله حسيبه ، ولا ازكي على الله احداً .

وعرف المقصود من الذبح انه يولّد في نفس الممدوح غروراً قاتلاً اشبه مايكون بذبحه،حيث قد سمع شبهاً لهذا المعنى من بعض إخوانه الذي روى له عن رسول الله ﷺ قوله لأحد المادحين لأخٍ له :

« قطعت عنق صاحبك » .

إنه يحس أن نفسه تطهر يوماً بعد يوم ، وتزكو ساعة بعد ساعة وهو يغبق من رحيق النبوة ، ويسعى جاهداً أن يقوم بكل مايسمعه من رسول‌الله بدقة متناهية . بل ويبلغه لإخوانه‌ليقوموا به.

لقد كان أسعد ما يكون يوم يرى الناس يقفون إجلالاً له . اما الآن ، وما أن يقف له بعض اتباعه حتى يأمرهم بعدم الوقوف ، وذهلوا لذلك ، وسألوه : فقال لهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار (١) .

---

(١) سنن الترمذي اخرجه عن معاوية بن ابي سفيان باب كراهية القيام رقم ٢٩٠٣ وهو حديث حسن .

وانتقل معاوية من السلبيات إلى الايجابيات . لقد حرص على تنفيذ أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام : (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) . فاجتنب كل ما نهى رسول الله عنه ، وصفّى نفسه من آثار الجاهلية ، وها هو الآن يتجه إلى أن يمضي قدماً في تزكية نفسه بالعمل الصالح . ويحرص على أن يكون أساس العمل طيباً زكياً لأن الله تعالى لا يقبل إلا طيباً . خاصة وقد سمع رسول الله ﷺ يقول :

« إنما الأعمال كالوعاء . إذا طاب أسفله طاب أعلاه ، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه »(١) .

فخرج يوماً إلى المسجد وجلس بنفس هادئة رضية يذكر الله عز وجل مع إخوانه فخرج عليهم رسول الله ﷺ . قال : ما يجلسكم ؟

قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ومنّ علينا به .

فقال : آلله ما اجلسكم إلا ذاك ؟!

قالوا : آلله ما اجلسنا إلا ذاك .

قال : أما إني لم استحلفكم تهمة لكم ، إنه أتاني جبريل واخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته (٢) .

(١-٢) سنن الترمذي اخرجه عن معاوية بن أبي سفيان ، أبواب الدعوات ، وقال عنه : حديث حسن غريب .

وحفظ في فقه الصلاة عن رسول الله ﷺ :

« لا تبادروني بالركوع ولا بالسجود . فمهما أسبقكم به إذا ركعت تدركوني به إذا رفعت ، ومهما أسبقكم بـه إذا سجـدت تدركوني به إذا رفعت . إني قد بدّنت» .

وحفظ عنه قوله عن المؤذنين :

« المؤذنون اطول الناس أعناقاً يوم القيامة » .

وحفظ أحاديث كثيرة ، لكن ثلاثة أحاديث كان لها أعمق الأثر في نفس معاوية وبدا أثرها واضحاً خلال خط حياته كلها :

الحديث الأول : حديث الطائفة الظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله .

الحديث الثاني : « الا إن من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هـذه الأمة ستفترق على ثـلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة . (وزاد ابن يحيى وعمرو) وإنه ستخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولامفصل إلا دخـله .

الحديث الثالث : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

لقد كان معاوية رضي الله عنه حريصاً أشد الحرص على أن يكون من هذه الطائفة القائمة على الحق . كما كان حريصاً على أن يكون من الفرقة الناجية. ولا شك أن هذه الفرقة الناجية هي الثابتة

على الحق القائمة بأمر الله . ويسعده ان يكون اميرها لأن رسول الله ﷺ بشره انه سيملك ، وسيقمصه الله قميصاً .

ولكن هذا لا يمكن ان يأتي إلا عن طريق الجهاد ، وأن يمضي قدَماً في بلاد الله يغبر قدميه في سبيل الله . مهاجراً من ارض إلى أرض ، وينتقل من معركة إلى معركة .

ومن أجل هذا ما إن قبض رسول الله ،ونهل من علمه ما نهل . حتى كان صافاً قدميه في عداد المجاهدين في سبيل الله .

ووطن نفسه على ان يطوي صفحة حياته السابقة كواحد من اهل مكة المعاندين للدعوة ، وعلى ان يخوض غمار الجهاد غير عابىء بكل ما يجره عليه من متاعب وبلاء وتضحيات ، فلقد وقر في قلبه حديث رسول الله ﷺ :

« لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة » .



أمراء في سبيل الله

بدات الكتائب الغازية في سبيل الله تنطلق إلى ساحات الجهاد. وكان لا بد لشباب مكة أن يتقدم ويحمل مسؤولياته ، فقد كفاه ما قام به من صدٍ عن سبيل الله ، ولا بد له أن يكفِّر عن سيئاته ، ويصارع الشرك كما صارع الإسلام .

وطالما أن قيادة مكة كانت كلها بيد أبي سفيان ، وقد غدا شيخاً مسناً ؛ فكان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إلى يزيد ابنه ليكون واحداً من الأمراءالذين أوكل إليهم جانب مهم من الفتوح الخطيرة .

واختار الصدّيق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان لفتح دمشق عاصمة بلاد الشام ، وكان جمهور الناس مع يزيد ، وخرج الخليفة الصديق يودعه ماشياً إلى خارج المدينة ويزيد أمير الجيش راكباً ، فقال للخليفة :

إما أن تركب وإما أن انزل .

فأجابه : ما انا براكب ولا انت بنازل ، إني احتسب خطاي هذه في سبيل الله . ولم ينسَ أن يشيعه بوصيته التاريخية المشهورة، والتي نذكر منها :

« يا يزيد إنك شاب تذكر بالخير قد رئي منك ، وذلك لشيء خلوت به في نفسك . وقد أردت أن أبلوك واستخرجك من أهلك .

فأنظر كيف انت ؟ وكيف ولايتك ، فإن أحسنت زدتك ، وإن اسأت عزلتك (١) .

وعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك. وإياك وعبية الجاهلية ؛ فإن الله يبغضها ويبغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ... وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ... وامنع من قِبَلك عن محادثتهم ، وكن انت المتولي لكلامهم .. واسمر في الليل في أصحابك تأتك الأخبار.. واكثر حرسك وبددهم في عسكرك ... ستجدون قوماً حبسوا انفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا انفسهم له »(٢) .

ولم يجد أبو سفيان غضاضة في ان يمضي مع هذا الجيش الغازي ، فهو يحس ان الراية لا تزال في يده طالما أن ابنه يزيد هو الذي يحملها ، وشكر للصدّيق صنيعه هذا فدعا له بخير ، وقال : وصلته رحم .

ورأى بأم عينه كيف تنقلب الموازين رأساً على عقب، فالصدّيق ـ الذي كان كما قال عنه في بداية خلافته : من اذل حي في قريش واقله ـ يصبح اليوم صاحب الكلمة العليا في الدولة الإسلامية . وغدا كبار قريش جنوداً تحت لواء ابنه يزيد ، وكان الخطر يقترب رويداً رويداً ، والمسلمون يواجهون كل يوم جموعاً من العدو إلى

---

(١) حياة الصحابة نشر دار القلم ج٢ ص ٢٦٧ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير دار صادر ودار بيروت .

أن آذنت ساعة اللقاء الحاسم معه . واجتمع القادة الكبار : يزيد وشرحبيل وعمرو وخالد وأبو عبيدة لبحث الموقف ، وبلغ ابا سفيان الأمر ــ وقد تحركت في قلبه ذكريات الماضي القريب يوم لم يكن يقطع برأي ولا يبت بمشورة دونه ــ وترك هواجسه نهبة لهذه الأفكار ، ومضى ليلتقي مع القادة ليخططوا لأشرس لقاء واعنفه بين المسلمين والروم .

استقبله يزيد بحفاوة ، وعمرو وخالد كذلك ــ وهم من رفاقه السابقين فيما مضى من حروب ــ وهنا قدّم الراي التالي : وهو أن يتجزأ الجيش إلى ثلاثة اجزاء ، فيسير ثلثه فينزلون تجاه الروم، ثم تسير الأثقال والذراري في الثلث الآخر ، ويتأخر خالد بالثلث .

وحان موعد اللقاء ، وكان الروم في العدد اضعاف المسلمين ، فكان لا بد من تحريك العواطف ودفع الطاقات إلى اقصى مدى ممكن .

وخطب عدد من القادة ، وكان لا بد لأبي سفيان أن يخطب وهو شيخ القوم ، فقال ــ وهو يستعرض في ناظريه أربعين ألفاً من المسلمين تحت لواء الإسلام ــ :

يا معشر المسلمين أنتم العرب وقد اصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن الأهل ،نائين عن أمير المؤمنين ، وامداد المسلمين .

وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، قد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم . والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء ، والصبر في المواطن المكروهة . الا وإنها سنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري ليس

لأحد فيها معقل ولا معول إلا الصبر ؛ رجاء ما وعد الله فهو خير معوّل . فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون (١) .

ثم ذهب إلى النساء فوصاهن ثم عاد فنادى :

يا معشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم (٢) .

وكان معاوية جندياً من جنود المسلمين يتأهب لأول لقاءٍ مع الروم ، وقد وجد في نفسه راحة يوم رأى أخاه يزيد على راس الجيش الإسلامي .

إنه في هذه المعركة يحس بحماس عجيب واندفاع عميق ، إنه يقاتل ببسالة وشجاعة في هذه الحرب ، اليوم يحس بانسجام كامل بين الهدف العظيم الذي يقاتل من اجله وبين اغوار نفسه . فلقد انتهى من ذلك الازدواج المقيت الذي كان يعانيه يوم آمن بالإسلام ، ولم يجرؤ على إظهاره خوفاً من أمه وأبيه . يوم كانت أمه تهدده بأبيه الذي سيقطع عنه القوت ، ويوم كان أبوه يعيّره بأن أخاه يزيد خير منه وهو على دين أبيه .

كم كان يعاني في تلك الفترة من قلق نفسي وصراع داخلي ، بين ما آمن به وبين ما فرض عليه من سلوك ، لكن ما اسعده اليوم فها هو وأبوه وامه واخوه جميعاً جنود في سبيل الله .

وكان اكثر ما سره وهو يستمع إلى خطبة ابيه ان المسحة الجاهلية قد ذهبت نهائياً منه . إن المعاني التي يطرقها والقيم التي

(١-٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٩ .

يوضحها إسلامية صرفة، فحديثه عن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين. لقد انتهى إلى غير رجعة هبل الذي نادى باسمه يوم أحد بعد أن تحطم يوم فتح مكة. ومضى إلى غير عودة حديثه عن قريش وآلهتها، والعزى التي اعتز بها يوم أحد حين نادى المسلمين: لنا العزّى ولا عزّى لكم. إنه اليوم أمام الروم أعداء الله يحدد للمسلمين أعظم أمانيهم: رسول الله والجنة، ويحذرهم من عدوهم الرهيب من الشيطان والنار.

ولم يكتف أبو سفيان بهذا، بل إنه كلما حامت غمامة حروبه ضد رسول الله على فكره، لاذ أكثر وأكثر بالإسلام، ويود لو يقضي شهيداً إلى ربه ليكفر عن سيئاته تلك، فكان يمضي إلى كل كردوس على حدة يخطب ويعظ قائلاً: (الله، الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك)(١).

كانت المعركة ضارية رهيبة، وكان القتال عنيفاً لا هوادة فيه، وأبو سفيان يرى هول القتال فلا يقر له قرار يريد أن يوجه كل طاقات المقاتلين ليبرزوا كل ما عندهم من إمكانات. لقد اضطرت ضراوة القتال عمرو بن العاص أن يتراجع حتى ليصل إلى النساء، وانكشف شرحبيل بن حسنة وأصحابه.

فأتاهم وَعْظُ خالدٍ هزّ كيانهم كلّه وسمعوا قول الله عز وجل:

« إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٩.

والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

وراع هذا التراجع أبا سفيان ، وخشي أن يتراجع ابنه يزيد فيصير إلى العار والنار . وتقدم نحوه ، وشق الجموع حتى صار بقربه وراح يعظه قائلاً :

(يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين ولوا أمر المسلمين ؟! أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة ، فاتق الله يا بني ، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ، ولا أجرأ على عدو الإسلام منك) (١) وكان يزيد من أسعد الناس بأبيه ، وهو يذكره بالله . فقال وقد قرت عينه وتمالك أعصابه : أفعل إن شاء الله .

وثبت يزيد ثباتاً حسناً ، فكان عند حسن ظن أبيه فيه ، فقاتل قتالاً شديداً وكان في ناحية القلب .

وهدات الأصوات ولم يبقَ هناك إلا صوت تلاقي الأسنة ، وارتطام الأجساد بالأرض ؛ وكان كما قال المسيب ـ والد سعيد ـ: هدات الأصوات يوم اليرموك ، فسمعنا صوتاً يكاد يملأ المعسكر يقول : يا نصر الله اقترب . الثبات الثبات يا معشر المسلمين .

قال : فنظرنا فإذا هو أبو سفيان بن حرب تحت راية ابنه يزيد (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤ .

وأبلى الأبطال بلاء حسناً وتقدم عكرمة بن أبي جهل إلى المسلمين يناديهم : من يبايعني على الاقدام والموت . .

وعاهده اربعمائة من المسلمين على ذلك، ونادى أبطال المسلمين قائلاً :

قاتلتُ رسول الله في كل موطن ، وأفر منهم اليوم . من يبايعني على الموت ؟؟ وكان هذا الحشد من الأبطال هو الحصن الذي تكسرت على أعتابه هجمات الروم وارتدت على أعقابها خاسرة، ليتابع المسلمون هجومهم بعد ذلك ويأذن الله بالنصر .



يزيد أمير دمشق

حين غادر أبو سفيان المدينة ، بعد ان ودّع الخليفة العظيم أبا بكر الصديق ؛ وعده إن فتح الله على المسلمين دمشق أن تكون إمرتها لابنه يزيد. ويوم كان الحصار مضروباً علىدمشق من كل جانب كان نصيب يزيد وعسكره في الحصار باب الجابية الصغير ، ومن اجل هذا ما إن فتحت دمشق حتى اوكل امرها ليزيد رضي الله عنه.

لم يركن يزيد إلى الدعة، فالأرض حوله لا تزال كافرة، تلك التي لم تصل إليها بعد فتوح الإسلام ، فوجه (دحية بن خليفة الكلبي إلى تدمر في سرية ليمهدوا أمرها، وبعث أبا الزهراء القشيري إلى البثنية وحوران وصالح اهلها) (١) ولم يقف الأمر عند حوران وتدمر . فكما قال ابو عبيد القاسم بن سلام(افتتح خالد دمشق صلحاً وهكذا سائر مدن الشام كانت صلحاً دون أراضيها. فعلى يدي يزيدبن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبي عبيدة) (٢) .

كان على يزيد أن يحمي دمشق وما حولها غرة مدن الشام ، وهي التي كان يقيم بها قادة الروم وعظماؤهم . ولقد احسّوا بأمرّ من الشوك يوم غادروها ، وكان خالد رضي الله عنه قد مضى بخيله إلى حمص ليفتحها .

(١ و ٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٢٤ .

أما « توذرا » قائد جيش الروم فكان يعض أصابعه ندماً وغيظاً على هزيمته المنكرة من المسلمين، وراح يمعن فكره ، فرأى أن الحامية التي بقيت في دمشق قليلة، وبرز له الرأي الذي يغسل به عار هزيمته كما تصور ، وهو أن ينهد إلى دمشق فيحتلها ثانية ويبيد حاميتها ، ولكن عين يزيد الساهرة لم تكن لتغفل عن مثل هذه المفاجأة ، فأعد للأمر عدته ، واحتاط أكثر فأكثر ، وأخبر خالداً بتوجه توذرا قائد الروم نحـوه . وكانت فرصة من أثمن الفرص للإجهـاز على جيش الروم . برز يزيد وجيشه من المسلمين للروم من الأمام ، وانقض عليهم خالد من الخلف،وأعملوا فيهم قتلاً وضرباً (حتى أناموهم ولم يفلت منهم إلا الشارد ، وقتل خالـد « توذرا » وأخـذوا من الروم أموالاً عظيمة فاقتسماها ، ورجع يزيد إلى دمشق ، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة) (١) .

* * *

لايزال معاوية الصامت يرنو إلى مجال يبرز فيه طاقاته ومواهبه والفتوحـات تمتد يمنة ويسرة ، ولايجد لنفسه فيهـا إلا الجندية الخالصة . بينما كـانت أعين الخليفة العظيم في المدينة تتطلع لأمثال هؤلاء الشبان ، وتتلهف لسماع أخبارهم ، وتعمل لاستثمار المكنوز من طاقاتهم . وكان من بين هؤلاء الشباب معاوية بن أبي سفيان الذي كانت الأنظار تتجاوزه فتنظر إلى أبيه وأخيه ، لكن أمير المؤمنين عمر لم يغفل عنه ، فقد اختاره في تجربة فريدة هي فتح قيسارية وكتب إليه رسالة هذا نصها :

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص٥٢ .

(أما بعد فقد وليتك قيسارية ، فسر إليهـا ، واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير) (١) .

لقد كانت الرسالة ضرورية وبهذه الصورة لشاب كمعاوية .

كان لابـد منها لكسر غرور الشباب الذي يمكن أن يتحرك من جراء إمرة جديدة ، ثم إذا ما تحقق النصر فلن يطال هذا الغرور ؟ .

كان البناء النفسي الذي يقوم به امير المؤمنين ضرورة لازمة ، لابد للقائد من أن يعتمد على الله ، ولو فقد القائد المسلم هذه المعاني لكان احد شيئين :

إما غرور بالنصر ، وهذا يقود إلى الكبر .

وإما انهيار بالهزيمة ، وتحطم للأعصاب في أول معركة يقودها ؛ خاصة وهو يواجه عدواً شرساً لاقبل له به في مقياس العدد والعدة ، وهذا يعني انحساره وانتهاءه لأن يكون امرءاً ذا شأن في التاريخ .

إنه الإسلام العظيم الذي ربط نفوس الشباب باللهفي كل خطوة، وقيد أنفاس المقاتلين برجاء الله في كل لحظة .

وبذلك يتضح المفهوم الإسلامي المنبثق من العقيدة : أن النصر من عند الله « .. واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا ، فنعم المولى ونعم النصير » .

ومضت هـذه الكلمة ترن في ضمير معاوية وهو يقود زحفـه الكبير على العدو فحاصر مدينة قيسارية ، لكن أعصاب أهلها كانت

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣ ــ ٥٤ .

قوية متينة ، فزاحفوه مرات عديـدة ، وجرى الاشتباك بالسيوف والسنان ، وكان اللقاء الأخير الـذي ارتجت به الأرض ، وتساقط الفرسان ، وكادت الهزيمة أن تنال من المسلمين ، لولا ثبات معاوية وصبره ، وتصميمه على النصر ، ومقارعته الأبطال وأذان الله بشمس جديدة لتشرق على هذه الأرض .

بدأ المشركون يتزعزعون ويتراجعون، ثم ولّوا الأدبار،وسيوف المسلمين تقع عليهم من كل صوب ، وإذا بالآلاف من القتلى تهوي ، فيشتد الهول على المشركين، وترتفع نبضات الإيمان في قلوب المؤمنين فما ترى في المشركين إلا فاراً يبغي النجاة أو قتيلاً ذاق كأس المنية ، وكثر عدد القتلى كثرة عظيمة ، حتى لقد انجلت المعركة عن ثمانين ألف قتيل من المشركين ، بل لقد ارتفع العدد (وكمل إلى المائة ألف من الـذين انهزموا في المعركـة ، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه) (١)

وكان هذا الفتح العظيم على يدي معاوية رضي الله عنه وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة.

وكان يمكن لهذا الحادث لو كان فريداً أن يكون شغل الناس الشاغل (٢) . لكن الشباب الإسلامي يفتح في كل يوم أرضاً جديدة ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٤ .

(٢) لو لم يكن لمعاوية إلا هذه المعركة التي افتتح بها حياته العسكرية لكفته فخراً على مدى الدهر ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . إنه قاتل في فلسطين ، وفتح قيسارية ، وكان صرعاه مائة ألف من العدو . ومع هذا بقي الجندي الأمين الذي ينتظر أوامر قائده إلى لقاء جديد . والمسلمون اليوم ثمانمائة مليون مسلم وهم عاجزون عن تحرير شبر من أرض فلسطين . فمن هؤلاء ؟؟؟

ويخوض معركة عنيفة ، ولئن كانت الفتوح قد هدات في الشام ، لكن العراق ما تزال تشتعل بالقتل والقتال ليل نهار في حرب ضارية مع الفرس . وتوجت فتوحات الشام بالفتح الأكبر ؛ فتح بيت المقدس على يدي الخليفة العظيم عمر رضوان الله عليه .

ومرت السنة السادسة عشرة هادئة لحدٍ ما في الشام ، بينما كانت الأرض الإسلامية تموج بالسرور لانهيار المدائن عاصمة الفرس على يد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .



مَعاويَـةُ الأمِـيرُ

واقبلت السنة السابعة عشرة وكانت تحمل في ثناياها المصاعب والمحن بالنسبة للمسلمين ، فلقد اتجه الروم من جديد إلى أبي عبيدة ليحاصروه كما فعلوا مع يزيد من قبل ، واحتاط امين الأمة للأمر ، فطلب الأمداد من عاصمة الخلافة (المدينة) ، وتحرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ليحمي المسلمين ويذود عنهم ؛ بعد أن ولّى على المدينة علي بن ابي طالب ؛ لولا أن ثناه المسلمون عن الخروج بنفسه . واضطر ابو عبيدة رضي الله عنه أن يخوض الحرب فخاضها غير عابىء بأخطارها ، وحقق الله النصر قبل وصول امداد المدينة وأمداد العراق .

وكان المدد من العراق قد تحرك في فرقتين عظيمتين : على رأس الأولى منها القعقاع بن عمرو ، وعلى رأس الثانية منها عياض بن غَنْم ، بينما وصل أمير المؤمنين إلى الجابية ،واستطاعت حمص المسلمة أن تصد الهجوم وتفك الحصار .

اما المحنة الثانية التي شهدتها هذه السنة فهي طاعون عَمَواس الذي نزل بالمسلمين نزول المطر على الأرض ، فكانوا يتساقطون صرعى منه ، ولما اشتعل الوجع قام ابو عبيدة في الناس خطيباً فقال :

أيها الناس ، إن هذا الوجع رحمة بكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وإن ابا عبيدة يسأل الله أن يقسم لأبي عبيدة حظه .

فطُعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل . فقام خطيباً بعده فقال :

أيها الناس ، إن هذا الوجع رحمة بكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وإن معاذاً يسأل الله تعالى أن يقسم لآل معاذ حظهم .

فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا لنفسه فطُعن في راحته ، فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقلّب ظهر كفه ثم يقول :

ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا (١) . .

وكانت دمشق تشهد المحنة نفسها ، وكان أميرها يزيد بن أبي سفيان .

وكان عمر رضي الله عنه يشعر بالألم على وفاة أمرائه ، فلقد حاول جاهداً إنقاذ امين الأمة ابي عبيدة رضي الله عنه ، لكن أبا عبيدة رفض مغادرة الشام أسوة بإخوانه المسلمين ، وعندما كان الخليفة العظيم يقرأ كتاب ابي عبيدة إليه اغرورقت عيناه بالدموع . فسئل :

أومات أبو عبيدة ؟؟

فأجاب : وكأن قد !!

وما هي إلا ايام قلائل حتى تناهى إليه نبأ وفاة احب أمرائه إليه : أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، ويزيدبن أبي سفيان . واصبحت الأردن ودمشق بلا أمراء .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٧٨ ــ ٧٩ .

أما الأردن : فولى عليها شرحبيل بن حسنة ، الذي كان أحد الأمراء ، وساهم في فتوح الشام مع إخوانه الآخرين .

وتطلعت الأنظار إلى دمشق من سيكون أميرها ، وفكر الناس في صاحب هذه الكفاءة العالية الذي سيختاره عمر ، فما عرف عنه إلا أنه يختار الأمراء الذين هم من هذا القبيل .

اما عمر رضي الله عنه فلم ينس لمعاوية بطولته ، وانه صاحب الفتح العظيم في قيسارية ، ولم ينس له بلاءه في فتوح الشام ، ولم يغب عن ذهنه ـ وهو العبقري ـ كفاءة معاوية العظيمة، وفاجأ الخليفة المسلمين بمعاوية بن أبي سفيان أميراً على دمشق وخراجها ، بعد أن كان قد اضطلع بعبء القيادة واثبت أنه ابن بجدتها ، وسيقت إليه الإمارة سوقاً حين اثبت كفاءته لها . وآن الأوان لابن أبي سفيان أن يبرز مكنون طاقته وهو على كرسي الإمارة .

لقد كان موطن ثقة أمير المؤمنين ، وموطن ثقة امه هند بنت عتبة وابيه أبي سفيان .

لما ولّى عمر يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من الشام ، خرج إليه معاوية ، فقال أبو سفيان لهند : كيف رايت ؟ صار ابنك تابعاً لابني!

فقالت : إن اضطربت خيل العرب ، فستعلم اين يقع ابنك مما يكون فيه ابني .

(وكان يزيد ولد أبي سفيان من غير هند)(١) .

فلما جاء البريد إلى عمر بموت يزيد . ردّ عمر البريد إلى الشام بولاية معاوية مكان أخيه يزيد .

---

(١) البداية والنهاية ١١٨/٨ .

(ثم عزّى أبا سفيان في ابنه يزيد .

فقال : يا أمير المؤمنين من وليت مكانه ؟

قال : أخاه معاوية .

قال : وصلتَ رحماً يا أمير المؤمنين) (١) .

أماهند بنت عتبة ـ أم معاوية ـ فلقد جاء اليوم الذي كانت تتطلع إليه ، ورأت ان ابنها قد صار أميراً ، وأيقنت أنه سوف يسود العرب قاطبة كما تنبأت له عندما كان يحبو .

فبعثت له وصيتها الخالدة،ليكون عند حسن ظن أمير المؤمنين، وعلى المستوى الرفيع الذي يريده له . فكان مما قالته :

(.. والله يابني إنه قلّ أن تلد حرةٌ مثلَك . وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر . فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت)(٢) .

أما وصية أبي سفيان الذي حنكته التجارب وعجمه الدهر فكانت :

(يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ، وقصّر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا أتباعاً ، وقد ولوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم ، فإنك تجري إلى أمد فنافس ، فإن بلغته أورثته عقبك) (٣) .



(١ـ٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١١٨ .

وأخذ معاوية ينتظر سانحة أخرى ليخوض غمار الجهاد في سبيل الله . ولقــد فاته خير كثير أيــام رسول الله ﷺ ، ولكن الحرب تبطىء عليه ، ووجد في الإمارة متسعاً لأن يتحبب إلى الناس ويتحبب الناس إليه .

وقحط المسلمون في بلاد الحجاز ، وبلغ بهــم الجهد مبلغاً عظيماً ، واستغاث الخليفة بمعاوية وعمرو وأسرع معاوية في تلبية نداء الخليفة ، وساق إليه الابل الموقرة بالطعام ، وساهم عمرو بن العاص في مصر في كشف أزمة المسلمين التي أخذت بخناقهم عام الرمادة حتى رحم الله الناس وسقاهم من عميم فضله .

وكانت تتناهى إلى سمع معاوية أنباء الفتوحات في العراق ، فيطرب لها ، ويود لو أن له فيها أو في غيرها نصيباً .

ومرت سنة بعد سنة، وجاءت سنة واحد وعشرين، وتحركت كتائب المسلمين بقيادته لغزو الصائفة فأوغل في أرض الروم ، وقد انضوى تحت لوائه العديد من أصحاب رسول الله الذين لم يعرفوا للراحة مذاقاً إلا على متون الخيل ؛ كلما سمعوا هَيْعة طاروا إليها .

وعاد ابن الثامنة والثلاثين من غزوه مظفراً منصوراً ، وقد غنم ورجع سالماً ليرى زوجه وقد وضعت له وليده الحبيب ، فسماه يزيداً تيمناً بعمه يزيد بن أبي سفيان .

وجدّ معاوية في امتطاء الخيل وركوب المخاطر ، وســاق الجيوش في غزو الصائفة عام اثنين وعشرين ، وكذا في عام ثلاث وعشرين ، وانضوى تحت لواء الجهاد الذي رفعه جملة من سادة الصحابة ، فهذا عبادة بن الصامت ، وهذا أبو ذر الغفاري ، وذاك شداد بن أوس في جملة من صحابة رسول الله ﷺ وكلهم اتجهوا إلى

ارض الروم فتحاً وجهاداً في سبيل الله .. وتنساح الأرض امامهم ويتقدمون ويوغلون في موعود الله في الأرض التي وعدهم إياها حتى طرقوا أبواب عمورية ، ثم عادوا بالفتح والنصر والخير . وأخذ المال يتدفق على المسلمين ، وشعر المسلمون في الشام بأن فضلاً عميماً من الله قد أصابهم فالانتصارات تتوالى على الثغور ، والمال قد أصبح وفيراً في أيديهم ، وأميرهم معاوية خير الأمراء شجاعة وسياسة وكرماً وحلماً .

* * *

كانت الأنباء تتوالى على المدينة بالانتصارات الميمونة على يدي معاوية ، وعزم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن يزور الشام وساق معه جماعة من جلّة الصحابة .

وتناهى الأمر إلى معاوية ، فأعد موكباً ضخماً لاستقبال أمير المؤمنين ، وخرج خارج دمشق مع الموكب لاستقباله ، وبينما هو ماض مع موكبه ما راعه إلا احد خاصته يناديه : ايها الأمير ، ايها الأمير . فالتفت إليه فقال له :

إنك جاوزت أمير المؤمنين .

وكانت مفاجأة محرجة ، فعاد سريعاً ليلتقي مع عمر رضي الله عنه ، وعبد الرحمن بن عوف راكبين على حمار ، فما أن رآهما حتى نزل عن فرسه وأسرع نحو الخليفة .

وكان الغضب بادياً في وجه عمر . فقال له :

انت صاحب الموكب ؟!

قال معاوية : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : هـذا حالك مـع ما بلغني مـن طـول وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟

قال :هو ما بلغك من ذلك .

قال عمر : ولم تفعل هذا ؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز .

قال معاوية وهو رابط الجأش ثابت العزيمة :

يا أمير المؤمنين ، إنّا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم به.

(ثم صمت هنيهة) وقال : فإن أمرتني فعلت ، وإن نهيتني انتهيت .

قال عمر (وهو ينكث بدرّته بعد صمت قليل) : يا معاوية ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس ، لئن كان ما قلت حقاً إنه لراي أريب ، ولئن كان باطلاً إنه لخدعة أديب .

قال معاوية : فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت .. قال عمر : لا آمرك ولا أنهاك .

والتفت عبد الرحمن بن عوف إلى عمر والسـرور بادٍ على وجهه وقال : ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه .

فقال عمر : لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه(١) .

* * *

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٢٤ .

عرف الروم أن الأمر جد ، وأن غريمهم معاوية لن يرجع حتى يوسع ارضهم غزواً وفتحاً . فهاتان سنتان متتاليتان تمران وفي كل سنة يسوق معاوية إليهم الجيش الغازي ، ويوغل في ارضهم ، وراح الروم يرقبون تحركاته ، ويعبئون الكتائب تلو الكتائب لهجوم شامل على أرض الإسلام .

ومضى معاوية من نصر إلى نصر ، فما إن انتهى من أرض الروم في الصائفة حتى توجه إلى فلسطين ثانية ، فلا يزال له معها موقف آخر فلم يكد أهل عسقلان ينعمون بالراحة ويطمئنون حتى وجدوا الجيش الإسلامي يحاصرها ، وسألوا عن امير الجيش فعرفوا انه معاوية .

معاوية ذاك الذي ذاق أهل قيسارية على يديه الأمرّين .
معاوية صاحب المائة الف في قيسارية بين قتيل وجريح وأسير .
وعسقلان بيد الروم ، ومعاوية يريد أن يزلزل الأرض من تحتهم .
فبعد أن دك أرضهم في الشمال كان لا بد من التفاف جديد من الجنوب ، حيث تقوم عسقلان ولم تفتح بعد .

وعرف الروم قائد جيش المسلمين فدب الوهن في قلوبهم ، وتضعضعوا ، وخارت عزائمهم رعباً من أن يحل بهم ما حل بأهل قيسارية . فأذعنوا ومضوا خفافاً يطلبون الصلح من معاوية ، فأجابهم إلى ذلك ، ونزلت كتائب الإسلام في الأرض الجديدة لتعلن فيها كلمة التوحيد .

لم تكن مهمة المسلمين إذاً أن يبيدوا الناس أو يحطموا الآمنين، لقد كانوا أصحاب رسالة ، فما إن نزل العدو على حكمهم حتى

استجابوا للصلح راغبين ، ليزيلوا القوة والسلطان والطاغوت الذي يحول بين الناس وشريعة الله . حتى تبلـغ شريعـة الله كل نفس وتمس شغاف كل قلب . وبعدها ـ بعد أن يتبين الرشد من الغي ـ فلا إكراه في الدين . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

* * *

وتاقت نفس الأمير معاوية إلى مدينة الرسول ﷺ ، وإلى روابي مكة والبيت الحرام ، فما إن أهل موسم الحج حتى توجه مع بعض اكابر المسلمين إلى المدينة ، وعلى عادته ، فلقد كان موكبه مثيراً للأنظار ، وكان أهل المدينـة ونسوتها يتحدثن عن هـذا الوافـد العظيم .

يقول أسلم مولى عمر رضي الله عنه :

قـدم علينا معاويـة وهو ابيض نص وباص ، أبض الناس واجملهم .

ودخل على عمر وعليه حلة خضراء .

فاستلفتت نظر الصحابة جميعاً لجمالها وفتنتها .

أما عمر امير المؤمنين فماذا فعل ؟

وثب إليه بالدرة فجعل يضربه بها !!

وجعل معاوية يقول : يا امير المؤمنين الله الله في !!

(لم تخنه حكمته ، وضبط اعصابه والدرة تنهال على رأسه امام الناس جميعاً) .

ورجع عمر إلى مجلسه ، فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين ؟ وما في قومك مثله ؟! فقال : والله ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير . ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم .

ولكن رأيته ـ وأشار بيده ـ فأضع منه ما شمخ(١) .

وساد الوجوم والصمت على القوم ، وعرف الناس أن أمير المؤمنين هو مؤدب الأمراء فأطرقوا واجمين .

لقد كان عمر أدرى الناس بمعاوية وكما شهد له : والله ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير . ولكن يريد أن يذلل منه كبرياءه حتى لا يتعالى على رعيته ، ولا يدفعه العجب والغرور إلى الباطل .

آب معاوية إلى الشام بعد أن حج مع عمر ، واستغل الروم هذه الفرصة ، وجمعوا أكبر حامية ليغزو بها أرض الإسلام . لكن معاوية الأمير الشاب لم يكن ليغفل لحظة واحدة عن مثل هذه التحركات ، فما إن علم بالجمع الكبير الذي يجمعه الروم حتى بعث برسالة على السرعة إلى عمر رضي الله عنه يطلب منه الغوث .

وكان خريفاً ساخناً بالنسبة للمسلمين .

لقد مضى عمر أمير المؤمنين إلى جوار ربه في عام ثلاثةوعشرين للهجرة ، واختار المسلمون عثمان بن عفان رضي الله عنه خليفة من بعده ، وكانت أول مشكلة واجهها عثمان رضي الله عنه هي الكتاب الذي انتهى إليه بتأهب الروم لغزو الشام .

لقد كان معاوية يمتاز بالحيطة والحذر ، لذا أخذ للأمر أهبته، إذ أخبر المدينة بالأمر قبل أن يستوي الأمر ناضجاً ويستفحل ،

---

(١) البداية والنهاية ج٨ ص ١٢٥ .

ووجه عثمان رضي الله عنه كتاباً إلى العراق لواليه الوليد بن عقبة يأمره فيه أن يمد أهل الشام على حرب الروم ، وفي الكتاب :

إذا جاءك كتابي هذا فابعث رجلاً اميناً كريماً شجاعاً في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف او عشرة آلاف إلى إخوانكم في الشام .

« فقام الوليد بن عقبة في الناس خطيباً حين وصل إليه كتاب عثمان فأخبرهم بما أمره به امير المؤمنين ، وندب الناس وحثهم على الجهاد ومعاونة معاوية واهل الشام . وامَّر سلمان بن ربيعة على الناس الذين يخرجون إلى الشام . فانتدب في ثلاثة ايام ثمانية آلاف ، فبعثهم إلى الشام وعلى جند المسلمين حبيب بن مسلمة الفهري »(١) .

لقد انتهت قيادة الجيش المتجه إلى الروم إلى حبيب . وكان معاوية على ثقة بهذا القائد . وكان حبيب أهلاً لهذه الثقة .

ها هم الأعداء قد اقتربوا في ثمانين ألفاً من الروم والترك ، فلم يجزع حبيب ولم يهن (فعزم على أن يبيِّت جيش الروم ، فسمعته امرأته يقول للأمراءذلك) .

فباتت ليلتها ساهرة تفكر في مصير زوجها الحبيب .

قالت له : فأين موعدي معك ؟

ورنا زوجها ابن مسلمة بعيداً إلى الأفق وقال لها كلمته الخالدة :

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٠٥ .

موعدك سرادق الموريان أو الجنة . (والموريان قائد جيش الروم) . وبينما كان الروم غفاة يحلمون في نصر هنيء ، لم يشعروا إلا وكتائب المسلمين تحيط بهم من كل جانب ، وارتفعت الله أكبر فزلزلت بهم مقامهم من كل جانب . وكان موعد اللقاء في سرادق الموريان .

دخل حبيب إلى السرادق فراعه لأول وهلة إنسان هناك ، وهو يعلم أن الموريان ذبيح ؛ وما إن ركز بصره حتى أفاق من الذهول . إنها امراته سبقته إلى سرادق الموريان ، فكانت رمز البطولة العظيمة للمرأة المسلمة .

ومضى حشد الروم مبعثراً طريداً يطلب النجاة ولا يدركها ، وكان درساً قاسياً للروم في الشام خضد شوكتهم إلى الأبد .

وذهب القلق الذي ساور أمير الشام من أعدائه ، وتابع معاوية سيرته الحسنة في ولايته انطلاقاً من مبادىء الإسلام العظيم الذي يدين به . وتتابعت سنوات أربع لم يكن فيها فتح يذكر ، ولكن الفتوحات الأخرى ملأت الأرض بالخير وأوسعت المسلمين عطاءً . ونظر معاوية ذات يوم إلى الدنيا ، وقد أقبلت عليه فانفتح لها صدره ، ثم عاد بذاكرته وراء وراء فشهد عمر رضي الله عنه وقد جاءه على حماره ذات يوم ، واتعبه وهو يركض وراءه ، ويذكر أبا بكر وما خلّف لعمر ، وينظر حوله في قصره ونعيمه وسرره . فيتنهد قائلاً :

أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته ولم يردها ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن (١) .

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٣٤ .

هذه السنوات الأربع التي مرت على معاوية لم تكن لتقنعه بأن يركن إلى الدعة. لقد كان صاحب الهموم الكبار والآمال العراض. وكان على رأس تلك الهموم، تفكيره بأعظم جزيرة في البحر مجاورة إليه. ولم يكن يريد أن يرى حوله إلا بحراً إسلامياً تعلو فيه كلمة التوحيد، وبقاء هذه الجزيرة بأيدي الروم يؤرقه. لقد استأذن عمر رضي الله عنه في فتحها فلم يأذن له، ولم يرض بأن يخاطر بالمسلمين في ركوب البحر. واستأذن عثمان فلم يأذن له. ورغم رفض عثمان لكنه ما زال يحن إلى ذلك المجهول، فأعاد الكرة، وألح وألحف في الطلب فأذن له.

قبل سنين خلت قد تكون عشرين عاماً أو تزيد، دخل رسول الله ﷺ على أم حرَام بنت ملحان فنام عندها، ولم يكن أحد في الدنيا أسعد منها أن يقيل عندها رسول الله، ثم استيقظ عليه الصلاة والسلام وهو يضحك. فقالت: يا رسول الله ما أضحكك؟

فقال: أناس من أمتي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة.

وخفق قلب أم حرام خفقاً شديداً، وتاقت نفسها أن تكون بين هؤلاء المجاهدين فقالت:

يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم.

فقال: أنت منهم.

وأحست أنها ملكت الدنيا بأسرها.

ثم نام رسول الله ﷺ فاستيقظ وهو يضحك. فقال مثل ذلك. فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال : انت من الأولين(١) .

وتصرمت السنون ، وأم حرام تنام على أحلامها أن تكون غازية في البحر إلى أن كان وتحقق موعود رسول الله لها في غزو قبرص .

* * *

لم يكن إذنُ عثمان ليأتي دون قيد ، فلا يزال موقف عمر رضي الله عنه من البحر وقوله فيه يرن صداه في اذنه يوم كتب إلى معاوية هذا الكلام :

« والذي بعث محمداً ﷺ بالحق لا احمل فيه مسلماً ابداً ، وقد بلغني ان بحر الشام يشرف على اطول شيء من الأرض ، فيستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض . فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر (المستصعب) ؟! وبالله لمسلمٌ (واحد) أحب إلي مما حوت الروم ، وإياك أن تعرض إلي (وقد تقدمتُ إليك) فقد علمت ما لقي العلاء مني (ولم اتقدم إليه بمثل ذلك) . »(٢) . لم يكن لمثل هذا القول أن يمر دون أن يجعل لدى أمير المؤمنين عثمان بعض الحيطة والحذر في امر هذا الغزو .

إنها مغامرة جسورة باسلة تلك التي يدعو إليها معاوية أن يركب المسلمون للمرة الأولى في البحر . فكتب عثمان رضي الله عنه إلى معاوية : (لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيِّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه) (٣) .

---

(١) البداية والنهاية ١٥٣/٧ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٤٨ .

ووصل الكتاب إلى معاوية فلم يفت ذلك في عضده ، ودعا الناس وحثهم على الجهاد ، فتراكض بين يديه كبار الصحابة يلبون النداء ؛ منهم : أبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وزوجته ام حرام بنت ملحان ، والمقداد بن عمرو ، وأبو الدرداء ، وشداد بن أوس . ومضى الجيش على السفن لأول مرة كما وصفهم رسول الله ﷺ كالملوك على الأسرة . ولأول مرة في تاريخ الإسلام يركب المسلمون البحر في الشام بقيادة اميرهم معاوية حتى يصلوا إلى قبرص ويحاصرونها ، وتوجه عبد الله بن سعد من مصر . فالتقى الجيشان على حصونها ، وفوجىء القبرصيون بالحصار فصمدوا ، وصمدوا ، ثم بدأت اعصابهم تنهار ، وزادهم ينفد . فلم يكن لهم بدّ من الاستسلام والمصالحة .

قبل المسلمون ذلك ، وكانت الجزية سبعة آلاف دينار كل سنة ، وكما كانوا يؤدون إلى الروم .

ولكن أضيف إلى الصلح شرطان اساسيان :

« ١ ـ عليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم

٢ ـ ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم »(١) .

وعاد المسلمون بالنصر والغنائم والأسرى ، ووقع نظر جبير بن نفير على ابي الدرداء رضي الله عنه ، فراعه أنه يبكي . فتقدم منه وقال له :

(ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام واهله ، وأذل فيه الكفر واهله ؟)

---

(١) الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٠ .

ورفع أبو الدرداء رأسه ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وتقدم من جبير فضرب منكبه بيده وقال له :

(ثكلتك أمك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى ، فسلط الله عليهم السباء ، وإذا سلط السباء على قوم فليس لله فيهم حاجة) (١) .

وبدأ الجيش الإسلامي يتحرك ليؤوب إلى الشام ، وتقدمت أم حرام بنت ملحان من بغلتها ، وهي سعيدة أن حقق الله لها موعود نبيّه ، وشهدت بأم عينيها نصر المسلمين العظيم . واتت لتركب البغلة ، وتنضم إلى الجيش القافل الميمون طائره ، وما إن استوت عليها حتى انتفضت البغلة ، وألقتها عن ظهرها فأهوت على عنقها على الأرض فإذا هي جثة هامدة . وبلغ الخبر زوجها عبادة بن الصامت فهاجت شجونه ، وبلغ الخبر المسلمين فخيم عليهم الحزن العميق فترة وجيزة لوفاة هذه المجاهدة العظيمة ، ثم اجتمعوا جميعاً ليشهدوا جنازتها ووازروها الثرى في قبرص ؛ لتبقى ذكرى خالدة للمسلمات المجاهدات في سبيل الله ، وما زال الناس يتبركون بها كلما زاروها ، ويطلقون على قبرها : قبر المرأة الصالحة .



(١) الكامل ج٣ ص٤٠، البداية والنهاية لابن كثير ج٧ص١٥٣ .

غيوم في الأفق

عاش المسلمون ما مضى من سنوات خلافة عثمان في عافية ورخاء ؛ فالغنائم قد فتحت عليهم أبواب الخير ، وهيأت سبل الثراء ، وشاع الأمن والغنى في صفوفهم ، وتحركت الضغينة في قلوب الأعداء ، وباتوا لا يقر لهم قرار لما يرون من وحدة الكلمة ، وشيوع الطمأنينة ، وانصراف المسلمين إلى الجهاد .

تحركت أصابع اليهودية التي ذاقت شر هزيمة في خيبر ، وكان هذا في العام الثلاثين للهجرة ، وذلك بتخطيط رهيب وعجيب ، واختارت دمشق لتبيض فيها وتفرخ ، وذلك لما تعرفه من سماحة حاكمها معاوية وحلمه . وكان على رأس هذه الفتنة عبد الله بن سبأ اليهودي الذي ادّعى الإسلام .

وعاد ابو ذر رضي الله عنه بين من عادوا من الغزو ، وراءه انكباب الناس على دنياهم ، وفيض الثروة بين أيديهم . وكان رأيه أن هذا المال يجب أن ينفق كله في سبيل الله ، وهو يخشى على القلوب من التغير ، والانصراف إلى الدنيا ، فمضى ينذر الناس ، ويذكرهم بالآخرة ويقول لهم :

يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم .

وكان هناك القاعدون المتخلفون عن الجهاد ، والمتخلفون عن العمل ، والمتسكعون في الطرقات ؛ يرون في هذا الراي ما يهيىء لهم ثروة وهم نائمون . فأعجبهم هذا الراي ، واستطاع عبد الله بن سبأ أن يهيىء الجو المناسب في الظلام لتحويل المسلمين من دعاة إلى الله إلى متصارعين على الدنيا . فأخذ يزين لهم هذا القول ، ويستغله كما يهوى ، فتحرك الفقراء يطالبون الأغنياء بأموالهم .

وبينا ابو ذر يتحدث ذات يوم إذ يقف له واحد من المتحمسين ويقول له :

يا ابا ذر الا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله . الا إن كل شيء لله ؛ كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ، ويمحو اسم المسلمين !!

وينظر ابو ذر إلى هذا الرجل ويصمت ـ وكان الرجل ابن سبأ ـ وعرف أن هذا باب من ابواب الفتنة ، قد يستغله هذا الرجل ، فأجمع امره ، وقرر المضي إلى الأمير معاوية يحذره مغبة الأمر .

رحب معاوية بأبي ذر وأدناه . ثم قال ابو ذر له :

ـ ما يدعوك إلى أن تسمّي مال المسلمين مال الله ؟

يقول معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه ، والأمر امره ؟!

كان ابو ذر لا ينكر من قول معاوية رضي الله عنه شيئاً . ولكنه علم أن هذا القول سيستغله الموتورون . فأجابه قائلاً :

فلا تقـله .

وقال معاوية بعتب نزولاً على راي ابي ذر :

سأقول مال المسلمين .

واطمأن ابو ذر رضي الله عنه ، ومضى راضياً من اميره .

لكن معاوية لم يكن ليغفل عما يجري في المجتمع ، فقد اتته الأخبار عن ذلك الشغب الذي يريد المغرضون إثارته ، وافضى إلى عبادة بن الصامت بتلك الأخبار ، وراح يرقب الجو باهتمام .

كان ابو ذر الغفاري يرى انه لا يجوز للمسلم ان يمسك اكثر من قوت يومه ؛ كان هذا مذهبه وهذه صورة عيشه التي رأى عليها النبي ﷺ ، فتابعه عليها وبقي لا يغير ولا يبدل زمن خلفائه من بعده أبي بكر وعمر وعثمان ، وكانت آراء أبي ذر تثير الناس على الأغنياء ، وكان هناك من يفسد في الظلام .

ووجد ابن السوداء أن عبادة بن الصامت في زهده وتقلله من الدنيا صورة صادقة عن أبي ذر ، وطمع أن يستجيب له كما طمع من قبل بأبي الدرداء ، فأعرض ابو الدرداء عنه . فأتى إلى ابن الصامت على أمل ان يحرك عجلة جديدة في الفتنة .

لقد استطاع أن يتملص من بين يدي ابي الدرداء حين اكتفى بأن يقول له :

من انت ؟ أظنك والله يهودياً !!

وحسب أن الأمر إذا انتهى بإثارة الشبهة عليه فسيختفي منه وينسل من بين يديه كما انسل من بين يدي أبي الدرداء .

ولكن مثل عبادة لا يمكن ان يفلت منه اليهودي الخبيث، فحين قال له ما قال ، قبض عليه وساقه إلى معاوية قائلاً له : هذا والله الذي بعث عليك ابا ذر .

فلقد ربط عبادة رضي الله عنه بين القولين .. بين ما احتج ابن سبأ به على معاوية امامه ، وبين ما ذكر له معاوية من امره مع أبي ذر أمامه .

وما تحرك ابو ذر إلا لقمع فتنة هذا اليهودي .

مضى ابو ذر في دعوته يحدو الركب إلى الله ، ويدعو الناس إلى التقلل من الدنيا والزهد فيها . وحار معاوية في النتائج الخطيرة التي تنتج عن هذه الدعوة ، ففكر في محاولة معينة يجعل بها أبا ذر يكف عن دعوته حتى لا تستغل ، إنه لا يجرؤ على ان يمنع ابا ذر عن الدعوة إلى الزهد .

بعث معاوية بألف دينار إلى ابي ذر ، ليرى كيف سيتصرف بها ، ثم انه امل ان يهدّىء من هذه الفورة لديه ، ولعله لم يكن يعرف جوهر هذا الصحابي العظيم .

وصلت الدنانير لأبي ذر ، وكان قد آلى على نفسه ان يلقى حبيبه رسول الله على الحالة التي تركه عليها ؛ ومن أجل هذا ما إن وصلت الدنانير الألف ليديه حتى فرقها من ليلته ، ولم يبق منها ديناراً واحداً في بيته .

ومع الغلَس دعا معاوية رسوله قائلاً له : اذهب إلى ابي ذر وقل له انقذ جسدي من عذاب معاوية فإنه ارسلني إلى غيرك وإني اخطات بك .

وصل الرسول إلى ابي ذر وعرض عليه امره ، فقال الزاهد العظيم :

يا بني قل له : والله ما اصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن اخرنا ثلاثة ايام حتى نجمعها .

وعاد الرسول بجواب أبي ذر ، فأذهل ذلك معاوية ؛ إذ لم يكن يتصور أن يكون احد من الناس يستطيع أن يكون على ماكان عليه ابو ذر ، فقوله يصدق فعله ، وإنه ليرفض ان يحتفظ بدينار واحد لحاجته ، بل يفرق الألف دينار غير عابىء بكل مايمكن ان تحقق له من متاع ورياش ونعيم . ومثل هذا السلوك سوف يفتن الناس ، يوم يرون الداعية إلى الزهد على هذا المستوى ، ومن عادة الناس ان يؤخذوا بالعظماء ويفتنوا بهم . فلم يكن امام معاوية رضي الله عنه بدٌ من أن يبعث إلى امير المؤمنين عثمان يطلب منه ان يستدعي ابا ذر إليه ، ويخبره بآثار دعوته ؛ خصوصاً وانه بين اناسٍ كلهم دونه فقهاً وورعاً وزهادة ، وبين اناس آخرين مستغلين يريدون ان يستحكم الخلاف ، ويتصدع الصف من الداخل . وبهذا يتجهون جميعاً إلى معاوية يطالبونه ان ينفق كل ما لديه من مال المسلمين ، وفي ذلك هلاك الأمة وضياع الثغور . فكتب إلى عثمان انّ ابا ذر قد ضيق عليه ، وقدم له شرحاً مسهباً للوضع الذي اخذ يفكر به الفقراء .

فكتب عثمان رضي الله عنه ــ وكان يراقب عن كثب تأثر بعض الناس بأقوال مثيري الفتنة في المدينة ــ إلى معاوية يقول له :

« إن الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق إلا ان تثب فلا تنكأ القرح ، وجهز ابا ذر إلي وابعث معه دليلاً (وزوده وارفق به) . وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت (١) » .

---

(١) الطبري . ج٣ ص٣٣٦ .

ووجد ابو ذر نفسه امام أمر امير المؤمنين له بالتوجه إلى المدينة، فمضى مع الدليل متوجهاً برعاية الله إليها ، وخلّف لمعاوية اثقالاً كباراً في الشام سرعان ما استطاع معاوية السياسي الأريب أن يزيحها عن كاهله ، وبمهــارة فائقة تمكن من أن يرأب الصدع ، ويوحد الكلمة ، ويقضي على فتنة ابن سبأ في المهد . ولم يكن يغيظ العدو شيء كما تغيظه وحدة كلمة المسلمين ، وتغيظه شخصية معاوية القوية التي تجمع الطاقات كلها ضد العدو المشترك .



إسفين في قمّة النصر

اصبح معاوية منذ اربع سنين الشخصية الأولى والوحيدة في بلاد الشام كلها . لقد رزق كفاءة ممتازة ، وموهبة نادرة ، وظهرت آثارهما منذ أن تسنم الأمر في دمشق بعد وفاة اخيه يزيد رضي الله عنه ، وكانت معه الأردن كذلك . اما كيف انضمت حمص إلى دمشق ، فحديثها عند عمر رضي الله عنه يوم نزل المرض بالصحابي العظيم عمير بن سعد ، فاستعفى عمر من الولاية ، فقبل الفاروق رضي الله عنه استعفاءه ، وتوجهت الأنظار إلى من يكون خلفاً للصحابي العظيم عمير بن سعد . وكان عمر يقلب الأمر من كل وجوهه ، ثم أعلن عزمته العمرية ان معاوية هو امير حمص كذلك .

كان معاوية يتوقد ذكاءً وحيوية ، وكان شيوخ الصحابة لا يرون هذا الاختيار لمعاوية ؛ لحداثة سنه ، ولأن في المسلمين من هو أفضل منه ، واقدم سابقة ، وارسخ جهاداً منه . فبدات الأفواه تهمس وما لبثت أن تعالت قائلة : ولّى حديث السن !!

فقال عمر رضي الله عنه بصوته القوي :

تلوموني في ولايته وانا سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به (١) .

---

(١) رجح الحافظ ابن كثير ان القائل هو عمر رضي الله عنه وليس عمير بن سعد انظر البداية والنهاية ج٨ ص١٢٢ . وروى الترمذي عن عبد الرحمن بن ابي عميرة مثله وقال : حديث حسن غريب . البداية والنهاية ج٨ ص١٢١ .

فهل يتلكأ عمر وقد سمع مثل هذه الدعوة لمعاوية من رسول الله ﷺ في ان يوليه كل الشام ؟؟!

لا يمكنه أن يفعل ذلك، وهو لا ينسى كذلك يوم دعا رسول الله معاوية واشهده مع أبي بكر وعمر وشيوخ الصحابة أمور المسلمين واستشاره فيها، وقال في وصيته الخالدة بمعاوية : احضِروه امركم واشهدوه امركم فإنه قوي أمين (١) .

وعندما بدأ الناس يتحدثون متبرمين ويقولون :

عزل عميراً وولى معاوية .

قال عمير بن سعد :

لاتذكروا معاوية إلا بخير . فإني سمعت رسول الله ﷺ قال لمعاوية : اللهم اهدِ به (٢) .

وكلما امتد الزمن بمعاوية ، كلما استتب الأمن اكثر ، وتحقق الهناء والرفاه والراحة للمسلمين في ولايته .

وتشاء قدرة الله ان يتوفى عبد الرحمن بن علقمة والي فلسطين، فلا يتردد عثمان امير المؤمنين أن يضم فلسطين إلى معاوية ، وبذلك يغدو ابن أبي سفيان سيد الشام كلّها بلا منازع . وعرف الروم ان استقرار معاوية في هذه الأرض هو كالشجى في حلوقهم ، فقرروا أن تكون العملية الانتحارية الأخيرة ، فإما أن يستردوا الشام ،

---

(١) أخرجه الطبراني ، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٢ .

(٢) رواه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني ، ثم رجح ابن كثير انه من رواية عمر لاعمير البداية والنهاية ج٨ ص١٢٢ .

وينهوا الإسلام في هذه الارض ، وإما أن يكون حتفهم فيها .. وهكذا كانت غزوة ذات الصواري ، واوكلت قيادة جيش المسلمين فيها إلى عبد الله بن سعد بن أبي سـرح .. وجـاء أوان اللقاء ، وتزاحف الجيشان .. (ولما تراءى الجمعان بات الروم يقسقسون ويصلبّون، وبات المسلمون يقرؤون ويصلون . فلما اصبحوا صف عبد الله بن سعد أصحابه صفوفاً في المراكب وامرهم بذكر الله وتلاوة القرآن .

قال بعض من حضر ذلك : فأقبلوا إلينا في امر لم ير مثله من كثرة المراكب وعقدوا صواريها ، وكانت الريح لهم وعلينا ، فأرسينا، ثم سكنت الريح عنا فقلنا لهم : إن شئتم خرجنا نحن وانتم إلى البر ، فمات الأعجل منا ومنكم . قال : فنخروا نخرة رجلٍ واحد وقالوا : الماء الماء . قال : فدنونا منهم ، وربطنا سفننا بسفنهم ، ثم اجتلدنا وإياهم بالسيوف ، يثب الرجال على الرجال بالسيوف والخناجر ، وضربت الأمواج فيعيون تلك السفن حتى الجأتها إلى الساحل ، والقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل حتى صارت مثل الجبل العظيم وغلب الدم على لون الماء ، وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يعهد مثله قط وقتل منهم بشر كثير ، ومن الروم اضعاف ذلك ، ثم انزل الله نصره على المسلمين ، فهرب قسطنطين وجيشه.. وبه جراحات كثيرة مكينة مكث حيناً يداوى منها بعد ذلك .

واقام عبد الله بن سعد بن أبي سرح بذات الصواري أياماً ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً) (١) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٥٧ .

وفي هـذا العام الذي سقط فيه قسطنطين بن هرقل مـع مراكبه الخمسمائة ـ وكان هذا إيذاناً بمصرع الروم ـ في هذا العام نفسه كان سقوط يزدجرد بن شهريار ذبيحاً في ارض خراسان .

كان هذا العام قمة الانتصارات الإسلامية في عهد الراشدين . وكان هذا العام إعلان تهاوي الامبراطوريتين الكبيرتين في الأرض فارس والروم بمقتل قادتهما . وكان شرفاً عظيماً لمعاوية ان يكون أمير الشام كلها في هذا العام . وكما تنبأ رسول الله ﷺ : إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . فلقد كان مصرع قسطنطين على يد الروم انفسهم إذ وصل إلى صقلية (فسأله أهلهـا عن حاله فأخبرهم فقالوا : اهلكت النصرانيـة ، وافنيت رجالها ، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ، ثم ادخلوه الحمام وقتلوه ، وتركوا من كان معه في المركب ، واذنوا لهم بالمسير إلى القسطنطينية) (١) .

* * *

ومن القمة يبدأ الانحدار .

فعندما قبض على ابن سبأ في دمشق ، وشلت حركته ، ورأى أن تدبيره أصبح مكشوفـاً ؛ عرف أنه لن يفلـح في دمشق بشيء . فعيون معاوية الساهرة له بالمرصـاد تراقب تحركاته وسكناته ، فاختفى بعيداً عن الأنظار ، ومضى إلى الأمصار الإسلامية الأخرى ، ليبث جحيم فتنته هناك ، واسفر سعيه الخبيث عن ثمرة مرة في النيل من عثمان أمير المؤمنين ، لقد ترك معاوية والنيل منه ووضع هدفه رأس النظام كله الخليفة العظيم عثمان ذا النورين .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٣ ص ٥٩ .

ولئن لم ينجح في أن يتحرك من خلال أبي ذر وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت في دمشق . فلقد نجح في التحرك من خلال محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة في مصر ـ وكلاهما شابان طامحان في مقتبل العمر ـ فلم يكن عمر ابن أبي بكر ينوف عن اثنين وعشرين عاماً ، وكان ابن أبي حذيفة يقاربه في السن .

في قمة النصر بذات الصواري ، وذروة هذا الفتح المبين ، في هذا الجو الرائع العظيم انبعث محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة في تصويب سهامهم القاتلة ضد عثمان بن عفان أمير المؤمنين وامرائه ، وضد قائد الفتح المظفر عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

(فأظهرا عيب عثمان وما غيّر ، وما خالف أبا بكر وعمر ، وجعلا يقولان دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم ، وأباح رسول الله ﷺ دمه ، وأخرج رسول الله أقواماً واستعملهم عثمان ، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر) (١) .

ولنقف ملياً أمام هذا النقد العنيف الذي يوجهه ابن أبي بكر، وابن أبي حذيفة لعثمان رضوان الله عليه :

أولاً : اظهرا عيب عثمان ، وما غيّر وما خالف أبا بكر وعمر.

ولعثمان رضي الله عنه الحق كل الحق في أن يجتهد ويطاع في اجتهاده . وليس أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حجة على عثمان، إنما الحجة عليه كتاب الله وسنة رسوله . ولقد خالف عمر أبا بكر

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص١٥٧ . وهي رواية الواقدي عن معمر عن الزهري .

رضي الله عنهما في عدد من القضايا ؛ فلِمَ لم تثر عليه هذه المطاعن ؟!
لقد خالفه في توزيع المال ، وجعله حسب افضلية المسلم وسابقته ، بينما كان ابو بكر يوزع المال على السواء بين المسلمين ، وخالفه في توزيع الأراضي على المقاتلين ، وخالفه في احتجاز الصحابة لديه في المدينة ولم يقم احد ليعترض عليه . فلماذا تثار هذه المطاعن على عثمـــان ؟!

ثانياً : (ويقولان : دمه حلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد ، وكان قد ارتد وكفر بالقرآن العظيم ، وأباح رسول الله ﷺ دمه) .

وما الغرابة في ذلك ! لقد أصبح عبد الله بن سعد مصونـاً بحماية الإسلام منذ قبل رسول الله ﷺ شفاعة عثمان فيه . واصبح واحداً من المسلمين تشعل الحرب على من يسفك دمــه . وخطة الإسلام تمضي في عدم التعرض للماضي ، ودفنه .

لقد اهدر رسول الله ﷺ دم عكرمة بن أبي جهل يوم الفتح ، ثم أسلم وحسن إسلامه وقاتل وقتل يوم اليرموك شهيداً . ولقد وجدنا عمر يقبل ان يكون في الجيش الإسلامي المتنبئون الذين اعلنوا توبتهم مثل طلحة بن خويلد الأسدي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي الذي سقط شهيداً عقب نهاوند . ومادام ان عبد الله بن سعد قد قبلت توبته ؛ له حق العيش بين المسلمين ، وله الحق في ان يتولى المنصب الذي يرتئيه الخليفة بعد ان دفن الماضي المشين في غياهب النسيان ، والإسلام يجبُ ما قبله .

ثالثاً : (وقالا : اخرج رسول الله ﷺ أقوامـاً واستعملهم عثمــان) .

ولا غرابة في ذلك ، فعثمان رضي الله عنه لايرقى الشك إلى فقهه ؛ فلئن كان رسول الله ﷺ قد اخرج اقواماً من المدينة ، وذلك

يوم كان لهم باع طويل في حرب الإسلام والحقد عليه . ومر الزمن وأصبح يقتضي عودة هؤلاء إلى أحضان المدينة ليغسلوا العار القديم، وينضموا إلى المجتمع الإسلامي . لقد حضروا على ملأ من أصحاب محمد ﷺ ، وفي الأصحاب: الستة المبشرون بالجنة، وأصحاب بدر، وأصحاب بيعة الرضوان ، وكبار المهاجرين والأنصار ، ولم نجد من هؤلاء من وجه نقداً إلى عثمان بهذا الصدد ، وهو الخليفة المأذون بالاجتهاد والمشورة والتنفيذ . وإذا كان إدخالهم إلى المدينة لايعني خطأ تشريعياً ، فلا غرابة بعد أن يستعملهم أمير المؤمنين عثمان ، فحق تعيين الولاة وعزلهم هو من اختصاص الخليفة وحده في النظام الإسلامي .

ولنحاول أن نتصور اللوحة المغايرة :

لنتصور أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أعاد إلى المدينة من نفاهم رسول الله منها ، فكيف يكون وضعهم الجديد في المجتمع الإسلامي ؟؟

سوف يكونون كالقذى بين أبناء هذا المجتمع ، فماضيهم سيىء، ورؤية الناس لهم بين ظهرانيهم تثير كل أحاسيس الماضي المشين لهؤلاء لصدهم عن سبيل الله . وهذا يعني أن الخليفة سوف يقتلهم بغمهم وماضيهم . دون أن يفسح لهم المجال بغسل هذا العار بالجهاد والتضحيات ليتسنى للناس نسيان ماضيهم بحاضرهم العظيم .

هذا مالم يفعله الإسلام أبداً . لقد وجدنا رسول الله ﷺ يبعث خالداً في سرية مؤتة ، ولم يمض على إسلامه سوى عدة أشهر ويبعث عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل أميراً وهو حديث

الإسلام بعد . ثم يؤمر خالداً في عددٍ من سراياه ؛ وذلك ليتيح المجال لهذه النوعيات الوافدة أن تمارس الجهاد ، وتمارس التضحية ، وتمارس الالتحام بالمجتمع الإسلامي ، وتصبح لها صفحات فخار في سبيل الله تطوي بها صفحات الصد عن سبيل الله . وهذا ما اختاره أمير المؤمنين رضوان الله عليه . لقد استعمل هؤلاء حتى يمارسوا عملية الانضمام والالتحام هذه على هدي رسول الله صلوات الله عليه وهدي صاحبيه الصديق والفاروق .

ثم ماذا نقم الناس على عثمان .

رابعاً : (نزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر) .

ولماذا لم ينقم الناس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقد فعل مثل ذلك ؟! الم ينزع سعد بن أبي وقاص ، وعمار بن ياسر ــ وهما من هما منزلة وسابقة في الإسلام ــ ويولي المغيرة بن شعبة.

ألم ينزع عمير بن سعد أو يعفيه ــ وهو الصحابي الأنصاري العظيم ــ ويولي معاوية بن أبي سفيان من مسلمة الفتح .

هذا وإذا كان النقد لعثمان موجهاً في الأصل لأنه ولى أقاربه؛ فلذلك دوافع فكرية وسياسية اقتضته أن يفعل ذلك . فعثمان بن عفان رضي الله عنه من القبيلة التي حملت راية الكفر حتى آخر لحظة ، وحملت راية الصراع ضد الإسلام ــ وهي قبيلة كبيرة ، وعريقة في النسب، إنه من بني أمية ــ ولقد بقي ابو سفيان زعيم بني امية يقاتل ويقود الجيوش ومعه معظم قبيلته ، وبقية المشركين حتى أسلم يوم الفتح . وإذا عدنا أدراجنا لحظات بسيطة إلى الوراء ، ووقفنا مع ساعات صلح الحديبية لاستوقفتنا الحادثة التالية :

لقد طلب رسول الله ﷺ من عمر بن الخطاب أن يمضي رسولاً إلى مكة يبلّغهم سبب مقدم رسول الله ﷺ ، وانــه جاء معتمراً لا مقاتلاً . فماذا كان جوابه ؟

قال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وما بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عــداوتي إياها ، وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان ابن عفــان .

فعمر رضي الله عنه من قبيلة مغمورة ، لم يبرز منها إلا القليل. أما عثمان فمن بني أمية التي حملت لــواء الشرك ضد الإسلام . وعندما دخل الناس في دين الله أفواجاً انكفأ بنو أمية يجترون آلامهم خجلاً ، ويستغفرون الله ندماً وتوبة . والجميع ينظرون إليهم نظرة مملوءة بالرثاء ، إن لم تكن بالشحناء لما صدوا عن سبيل الله . ومن أجل هذا عندما استلم عثمان أمير المؤمنين ، كان لابد أن يعيد لهؤلاء اعتبارهم ، ويضعهم على محك التجارب ، ويرميهم في لجج المغامرات والجهاد في سبيــل الله ، ويهيىء لهم الجو لينالوا مانال غيرهم من شرف الجهاد في سبيل الله ، والتفاني من أجل العقيدة . فلقد كان طبيعياً أن يستلم كثير من بني أمية مقاليد الأمور ، وأثبتوا جدارة فائقة في مهام القيادة ، واضطلاعاً عظيماً في فنون الولاية ، وصح فيهم حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه : خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا .

ولندع محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة . ولنشهد نتفاً يسيرة من بركة أمير المؤمنين عثمان في تولية ابن عــامر الذي نقموا توليته .

في العـام الثاني والثلاثين ، وفي الوقت الذي كان الجيش في الشام يعد الأهبة للمسير نحو ارض الروم بقيادة معاوية بن أبي سفيان، كان قد حمل لواء الجهاد في أرض الفرس والترك عبد الله بن عامر ، واظهر مهـارة فائقة في القيادة ، وكتب الله على يديه نصراً عظيماً فرح فيه المؤمنون ، وغم فيه المنافقون ، إنه في الوقت الذي سقط فيه محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفـة ــ غفر الله لهما ــ في شَرَكَ ابن سبأ اليهودي دون أن يعلما بذلك ، حينما كانا يوجهان النقد لابن عامر ولأمير المؤمنين عثمان ، ولعبد الله بن سعد ابن ابي سرح .. في هـذا الوقت كان ابن سعد هو الذي قاد أعظم نصر في المغرب الإسلامي وفي أعظم معركة بحرية مـع الروم كانت قاصمة الظهر بالنسبة لهم ، في معركة ذات الصواري حيث كان فيها خمسمائة سفينة للعدو، وهرب قسطنطين ملك الروم يلعق جراحه. وكانت نهاية الروم في مصر ، حيث تابـع فتحه الميمون في النوبة وافريقيـة .

اما في المشرق الإسلامي . فلقد كان عبد الله بن عامر على رأس الجيش الاسلامي يوغل في بلاد الفرس وخراسان ، ففي هذه السنة الثانية والثلاثين فتح ابن عـامر « مرو الروذ » و « الطالقـان » و « الفارياب » و « الجوزجان » و « طخارستان » وكان هذا الفتح بعد فتوحات العام السابق عام الواحد والثلاثين . ولنضع أمامنا هاتين الصورتين :

الأولى في العام الواحد والثلاثين كما ذكر ابن كثير :

(وفي هذه السنة فتـح ابن عامر فتوحات كثيرة كـان قد نقض أهلها ماكان لهم من صلح . فمن ذلك مافتح عنوة ، ومن ذلك

مافتح صلحاً ، فكان في جملة ماصالح عليه بعض المدائن وهي مرو على الفي الف ومائتي الف . وقيـل على ستة آلاف الف ومائتي الف) (١) .

أي ان بعض الغنائم التي سيقت للمسلمين او الجزية التي تم الصلح عليها : مليونان ومائتا الف درهم على الرواية الأولى ، وستة ملايين ومائتا الف على الرواية الثانية .

أما الصورة الثانية : فهي في العام التالي عام الثاني والثلاثين للهجرة . فتح فيهـا على يد ابن عامر مرو الروذ ، والطالقـان ، والفارياب ، والجوزجان ، وطخارستان .

فقيل لابن عامر من أجل ذلك : (ما فتح على احد ما فتـح عليك ، فارس وكرمان وسجستان وعامر وخراسان .

فقال : لاجرم لأجعلنّ شكري لله على ذلك أن أحرم بعمرة من موقفي هذا مشمراً فأحرم بعمرة من نيسابور) (١) .

ماذا يضير محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة من عبد الله ابن سعد بن أبي سرح حامي ثغر الإسلام في المغرب الإسلامي ، ومن عبد الله بن عامر حامي ثغر الإسلام في المشرق الإسلامي !! وكم كان الإسلام بخير لولا تلك المؤامرات الداخلية التي كان عبد الله بن سبأ يديرها فيثير أموراً مصطنعة ضد الخليفة الإسلامي وامرائه !!

لقد راعه وافزعه هذا النصر هو وحزبه ، فلم يكن أمامه بدّ من إثارة الحرب الداخلية . ولئن كان ابن سعد في المغرب الإسلامي،

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص ١٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ج٧ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

وكان ابن عامر في المشرق الإسلامي ؛ فأين كان معاوية بن أبي سفيان حامي ثغر الشام ، والشمال الإسلامي كله ؟!

لقد كان معاوية يطرق أبواب القسطنطينية ، ويغزوها مع المسلمين ، وحوصر العدو وكان من الممكن أن ينهار وتفتح الأرض كلها أبوابها للمسلمين ؛ لولا تلك المحنة الداخلية التي خطط لها اليهود في كل صقع ، فوقف حماة الثغور عند ثغورهم . في المغرب الإسلامي ابن سعد ، وفي المشرق الإسلامي ابن عامر . وفي الشمال الإسلامي ابن أبي سفيان ، لتتجه الأنظار إلى أعنف فتنة داخلية عرفها تاريخ صدر الإسلام .



دُعاة الفِتـنة ومُعاوية

كتب عثمان إلى معاوية قائلاً :

(إن اهل الكوفة قد اخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة . فرعهم وقم عليهم ، فإن آنست منهم رَشَداً فاقبل منهم ، وإن أعيوك فارددهم عليهم) .

فلما قدموا على معاوية رحب بهم وانزلهم كنيسة تسمى مريم ، وأجرى عليهم بأمر عثمان ماكان يجري عليهم بالعراق ، وجعل لايزال يتغدى ويتعشى معهم . فقال لهم يوماً :

(إنكم قوم من العرب لكم أسنان والسنة . وقد ادركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم ، وحويتم مراتبهم ومواريثهم . وقد بلغني انكم نقمتم قريشاً ، وإن قريشاً لو لم تكن لعدتم أذلة كما كنتم) .

لقد كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يدرك أن معاوية للمعضلة فله من فصاحته وبلاغته ، وله من حلمه وصبره ، وله من ذكائه ودهائه ؛ ما يواجه به الفتن . ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلها ، وفعلاً بذل معاوية رضي الله عنه مابوسعه من أجل اقناع هؤلاء النفر . أكرمهم أولاً ، وخالطهم وجالسهم ، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نقل عنهم . وبعد أن ازال الوحشة عنهم وازال الكلفة بينه

وبينهم ، لاحظ أن النعرة القبلية هي التي تحركهم ، وأن شهوة الحكم والسلطة هي التي تثيرهم ، فكان لابد أن يلح عليهم من زاويتين اثنتين :

الأولى : أثر الإسلام في عزة العرب .

الثانية : دور قريش في نشر الإسلام وتحمل أعبائه .

فإن كان للإسلام أثر في تكوينهم ، فلا بد أن يرعووا لهذا الحديث .

بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب ، وقد انقلبوا بالإسلام أمة واحدة تخضع لإمام واحد ، وودعوا حياة الفوضى وسفك الدماء ، والقبلية المنتنة .

ويتابع معاوية حديثه معهم فيقول :

(إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة[1] فلا تشذوا عن جُنتكم ، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المؤونة . والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ، ثم لايحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم .

فقال رجل من القوم :

أما ما ذكرت من قريش ، فإنها لم تكن أكثر العرب ، ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا . وأما ما ذكرت من الجُنَّة ، فإن الجُنَّة إذا اخترقت خلص إلينا .

فقال معاوية :

عرفتكم الآن ، علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول . وأنت خطيب القوم . ولا أرى لك عقلاً .

---

(١) وقاية .

أعظِم عليك أمر الإسلام ، واذكّرك به ، وتذكرني الجاهلية ؟!
وقد وعظتك وتزعم لما يُجنك انه يخترق . ولا ينسب ما يخترق إلى الجنّة ، أخزى الله اقواماً اعظموا امركم ، ورفعوا إلى خليفتكم .

وعرف معاوية أن الإشارة العابرة لن تقنعهم . لابد من شرح مسهب لواقع قريش العربي اولاً فقال :

(افقهوا ولا اظنكم تفقهون أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله عزوجل .

لم تكن بأكثر العرب ولا اشدهم .

ولكنهم كانوا أكرمهم احساباً ، وأمحضهم انساباً ، واعظمهم أخطاراً ، وأكملهم مروءة .

ولم يمتنعوا في الجاهلية ــ والناس يأكل بعضهم بعضاً ــ إلا بالله الذي لايُستذل من أعز ، ولا يوضع من رفع .

فبوأهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم .

هل تعرفون عرباً أو عجماً او سوداً او حمراً إلا قد اصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة ، إلا ماكان من قريش . فإنه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خده الأسفل .

حتى اراد الله أن يتنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ، ثم ارتضى له أصحاباً . فكان خيارهم قريشاً ، ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخليفة فيهم ، ولا يصلح ذلك إلا عليهم ، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله . أفتراه لايحوطهم وهم على دينه ، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم ؟!

أف لك ولأصحابك، ولو أن متكلماً غيرك تكلم، ولكنك ابتدأت؛ فأما أنت يا صعصعة : فإن قريتك شر قرى عربية أنتنها نبتاً ، وأعمقها وادياً ، وأعرفها بالشر ، والأمها جيراناً . لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سبّ بها وكانت عليه هجنة . ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً ، والأمة اصهاراً ، نزاع الأمم ، وانتم جيران الخط وفعلة فارس .

حتى اصابتكم دعوة النبي ﷺ ، ونكبتك دعوته ، وأنت نزيع شطير في عمان لم تسكن البحرين ، فتشركهم في دعوة النبي ﷺ ؛ فأنت شرقومك . حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس ، وحملك على الأمم التي كانت عليك ؛ أقبلت تبغي دين الله عوجاً ، وتنزع إلى اللآمة والذلة . ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرهم ولن يمنعهم من تأدية ماعليهم .

إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس ، وهو صارعكم . لقد علم انه لايستطيع أن يرد بكم قضاء الله ولا أمراً اراده الله . ولا تدركون بالشر امراً ابداً إلا فتح الله عليكم شراً منه واخزى » . ثم قام وتركهم .

وبذلك بذل معاوية كل طاقاته الفكرية والثقافية والسياسية لإقناعهم :

● عرض لهم اولاً أمر قريش في الجاهلية والإسلام . واي مسلم في الأرض لم تمرّ عليه سورة الفيل التي حدثنا الله فيها عن هلاك أبرهة وجيشه ، وحمى قريشاً إكراماً لبيته . وأي مسلم لم تمرّ عليه سورة قريش بمعرض المنّ على هذه القبيلة التي اكرمها الله ببيتـــه :

(لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف) .

وقول الله عزوجل في معرض المنّ على هذه القبيلة :

(أَوَلم يروا انا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ؛ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) ؟!

فلقد كان إنعام الله على قريش ــ على كفرها ــ إكراماً لبيته . فكيف يتخلى عنها في الإسلام ؟

وإذا أعدنا إلى الأذهان أيام الردة ، واحتجاج القبائل على قريش لتوليها الأمر وقول شاعر الردة آنذاك الحطيئة :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيالعباد الله ما لأبي بكر

وكيف وقف قادة الأمة آنذاك ــ أبو بكر الصديق ، والفاروق عمر بن الخطاب وأمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ــ في وجه تلك العواصف الهوج يؤكدون قول الرسول ﷺ إن الأمراء من قريش من جهة ، ومن جهة ثانية يؤكدون من الناحية السياسية أن العرب لاتدين إلا لقريش .

ولئن استجاب أنصار رسول الله ﷺ لأبي بكر خليفة رسول الله آنذاك . ووقفوا يداً واحدة في وجه الردة ؛ فقد عاد هؤلاء الرهط ليشعلوا الفتنة من جديد !!

وهذا معاوية يحاول أن يربط قريشاً بالله في الجاهلية ، يوم كانت حامية للبيت . ثم يعود ليتحدث عن دورها في الإسلام ، يوم حمل شبابها عبء الدعوة الأكبر ، وأن الله أعزها بالإسلام .

إنه حتى يوم فتح مكة ؛ حين كانت الراية مع سعد بن عبادة رضي الله عنه وقال يومها : اليوم أذل الله قريشاً .. إن رسول الله في ذلك اليوم لم يرض عن قول سعد ، واستلبه الراية ، وأعطاها لابنه قيس بن سعد وقال : اليوم أعز الله قريشاً .

● أما الفقرة الثانية من كلام معاوية رضي الله عنه: فقد تناولت قبائل هؤلاء النفر ، ووضعها في الجاهلية . حيث كانت تعاني سوء المناخ ونتن المنبت من الناحية الطبيعية ، ثم الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية . إلى أن اكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذل ، وارتقت بعد هوان .

● وكانت الفقرة الثالثة : تتناول صعصعة بن صوحان خطيب القوم ، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة ، وقد دخل قومه بها ، ثم عاد وانضم إلى الإسلام ، ورفعه الإسلام ثانية بعد انحدار .

● والفقرة الرابعة من الخطبة : تكشف مخططات صعصعة واصحابه ، وكيف يبغون الفتنة ، ويبغون دين الله عوجاً .

وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة ، ومحرك هذا الشر .

وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله ثم بالإسلام والعقيدة ، ثم كشف عن زيف هؤلاء النفر ، وفضحهم عن آخرهم ، وابان عن مخططاتهم وصلتها بدعوى الجاهلية .



ولدينا رواية اخرى يمكن الاطمئنان إليها .

ابتدأت الجلسة الثانية بقول معاوية رضي الله عنه :

وإني والله ما آمركم بشيء إلا قد بدات فيه بنفسي واهل بيتي وخاصتي ، وقد عرفت قريش ان ابا سفيان كان اكرمها وابن اكرمها إلا ماجعل الله لنبيه نبي الرحمة ﷺ . فإن الله انتخبه واكرمه ، فلم يخلق في أحد من الأخلاق الصالحة شيئاً إلا اصفاه الله بأكرمها واحسنها ، ولم يخلق من الأخلاق السيئة شيئاً في أحد إلا اكرمه

الله عنها ونزهه . وإني لأظن ان ابا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازمـاً) .

ولا ندري ماهو المجال والمناسبة للحديث عن ابي سفيان . ويمكن أن يكون الدافع إلى ذلك ما كانوا ينتقصونه به وأباه ؛ فاضطر إلى ذلك . وثارت عصبيتهم اكثر واكثر ، فقال صعصعة :

(كذبت قد ولدهم خير من ابي سفيان ؛ من خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وامر الملائكة فسجدوا له ، فكان فيهم البر والفاجر ، والأحمق والكيس) .

وكان معهم جانب الحق في هـذا الموضوع . فلقد كان مديح معاوية لأبي سفيان اكبر من الواقع . ولقد الزموه الحجة فصمت ، وانهى معهم تلك الجلسة .

* * *

الجلسة الثالثة

(ثم أتاهم القابلة فتحدث عندهم طويلاً ثم قال :

أيهـا القوم ردوا عليَّ خيراً ، أو اسكتوا وتفكروا ، وانظروا فيما ينفعكم وينفع اهليكم ، وينفـع عشائركم ، وينفـع جماعـة المسلمين . فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم .

قال صعصعة : لست بأهل لذلك ، ولا كرامة لك ان تطاع في معصية الله .

معاوية : او ليس ما ابتدأتكم به ان امرتكم بتقوى الله ، وطاعته ، وطاعة نبيه ﷺ ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا !! قالوا : بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي ﷺ !! قال : فإني آمركم

الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه ﷺ ، ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة ، وان توقروا أئمتكم ،وتدلوهم على كل حسن ماقدرتم وتعظوهم في لين ولطف في شيء إن كان منهم .

صعصعة : فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو احق به منك .

معاوية : من هو ؟

قالوا : من كان ابوه أحسن قدماً من ابيك، وهو بنفسه احسن قدماً منك في الإسلام .

معاوية : والله إن لي في الإسلام قدماً ، ولغيري كان احسن قدماً مني ، ولكنه ليس في زماني احد اقوى على ما انا فيه مني ؛ ولقد راى ذلك عمر بن الخطاب ، فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري . ولم احدث من الحدث ما ينبغي لي ان اعتزل عملي . ولو راى ذلك امير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب بخط يده فاعتزلت عمله . ولو قضى الله ان يفعل ذلك لرجوت أن لايعزم له على ذلك إلا وهو خير .

فمهلاً . فإن في ذلك واشباهه مايتمنى الشيطان ويأمر . ولعمري لوكانت الأمور تقضى على رايكم وأمانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة . ولكن الله يقضيها ويدبرها . وهو بالغ أمره ، فعاودوا الخير وقولوه .

قالوا : لست لذلك أهلاً !!

معاوية : اما والله إن لله سطوات ونقمات . وإني لخائف عليكم ان تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر والخزي الدائم في الآجل .

فوثبوا عليه فأخذوا بلحيته ورأسه .

فقال : مه إن هذه ليست بأرض الكوفة . والله لو راى أهل الشام ماصنعتم بي وأنا أمامهم ماملكتأن انهاهم عنكمحتى يقتلوكم . فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً .

ثم قام من عندهم فقال : والله لا ادخل عليكم مدخلاً ما بقيت) (١) .

إنها المحاولة الأخيرة التي بذل فيها معاوية أمير الشام كل جهده ، واستعمل حلمه وثقافته وأعصابه كي يثنيهم عن الفتنة .

إنه يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته ، والاستمساك بالجماعة ، والابتعاد عن الفرقة . وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين : ليس لك أن تطاع في معصية الله . وبحلمه الكبير ، وصدره الواسع عاد فذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بطاعة الله ، وعلى حد زعمهم فهو يتوب من المعصية إن وقعت . ثم يعود لدعوتهم إلى الطاعة والجماعة والابتعاد عن تفريق كلمة الأمة . . ولو كان الوعظ يجدي معهم لأمكن أن تتأثر قلوبهم لهذه المعاملة ، وهذا اللطف ، وهذا الحلم .

لكنهم اعتبروا ذلك ضعفاً وتهاوناً منه . خاصة وهو يوجههم إلى أن يستعملوا الاسلوب الهادىء في العظة ، واللين في النصح ، فوجدوا المجال رحباً أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم . فقالوا :

فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك .

---

(١) السري عن شعيب عن سيف . الطبري ج٣ ص٣٦٦-٣٦٧

وانتبه معاوية انتباهاً مفاجئاً إلى ما يكنّون، فأحب أن يتعرف على جانبٍ غامض عليه ، لعل في هذا التعرف ما يوصله إلى من يحركهم ويبث في ذهنهم الأراجيف المفرضة، ولكنهم أخفوا ما يكنون، واكتفوا بالإشارة إلى انهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه ، ولمن ابوه أفضل من أبيه . ثم تحلّم عليهم أكثر فأكثر . رغم الأسلوب الفج الذي سلكوه معه . وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل .

وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم والإمارة والقيادة ، وهي نقطة حساسة لابد أن ترتسم في ذهننا ، وتنطبع في قلوبنا ، ويمكننا الحكم من خلالها على كثير من تصرفات أمير الشام معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه .

وقد لخص معاوية إجابته في ست نقاط اساسية ومهمة :

الأولى :

هي أن له قِدَماً وسابقة في الإسلام . وهو لايقول ذلك تفاخراً وتباهياً ، بل إيضاحاً للحقيقة لدى هؤلاء المتعنتين. ولاغرو في ذلك. فهو حامي ثغر الشام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما . إنه كما رأينا مايمر عام إلا ويكون على رأس جيش المسلمين يفتح ارضاً أو يحاصر بلداً أو يحقق كسباً للإسلام في ارض جديدة واناسي جدد . وهو الذي حول البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية . ولئن فاته أن يكون له قصب السبق في معارك الإسلام الأولى قبل أن يسلم ، فإنه لم يأل جهداً في ان يقدم كل إمكانياته وطاقاته المذخورة في سبيل الله بعد أن دخل في الإسلام .

الثانية :

ان هناك في المسلمين من هو أفضل منه وأكرم ، وأحسن

سابقة وأكثر بلاء . فهو لايضع نفسه فوق المسلمين ولكنه يرى انه هو أقوى من يحمي هذا الثغر الإسلامي العظيم ـ الشام ـ فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه وسياسته ، وفهم نفسيات أهله حتى أحبوه ، ولم يؤثروا أحداً عليه . بينما نجد بقية الولايات والثغور لا تستقر على أمير ، ولا تهدأ فيها الثورات والفتن !! لقد كان قوياً ، وكان خليقاً بالإمارة ، ولم يكن من طرازه من الولاة أحد .

الثالثة :

إن الميزان الحساس ، والمعيار الدقيق الذي يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لاتأخذه في الله لومة لائم . فلو وجد من معاوية شططاً أو انحرافاً أو ضعفاً لعزله ، ولما أبقى عليه يوماً واحداً . ولا يمكن أن يصل الشك أبداً إلى صرامة عمر في الحق واستقامته عليه ، وهو الذي إذا رآه الشيطان سالكاً فجاً هرب منه . فقد عمل له طيلة مدة خلافته ، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله ، واستخدمه كاتباً بين يديه . وولاه أبو بكر الصديق من بعده ، ولم يطعن في كفاءته أحد .

الرابعة :

إن اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال ؛ فما هي الحجة التي يقدمها دعاة الفتنة ليتم الاعتزال على أساسها ؟! لقد طلب ولو حادثة واحدة أو سبباً واحداً يعتزل من أجله العمل . وهو يريد من وراء ذلك أن يتعرف على مايحملونه في أنفسهم عليه ، وما يمكن أن يشيعوه من إشاعات لاشعال نار الفتنة في الأمة .

الخامسة :

إن الذي يقرر العزل عن العمل أو البقاء في الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء . إن ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وهو

الذي له الحق في تعيين الولاة وعزلهم . إن أقصى ما يملكونه هـو النصح لأمرائهم وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وعليهم أن يرفضوا الطاعة إذا امروا بمعصية ؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . هذا كله لهم،اما ان يكون لأي فرد الحق في العزل والتولية فهذا يعني الفوضى والضياع والفساد . وهذا ما أكده لهم معاوية رضي الله عنه :

(ولعمري لـــو كانت الأمـــور تقضي على رأيكم وأمـــانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة) .

السادسة :

وهي أروع مافي قوله ، إن أمير المؤمنين عثمان يوم يقرر عزل معاوية ، فهو واثق أن أمره خير كله . ولا غضاضة في ذلك فهو أمير مأمور وهو رهن أمر خليفة المسلمين . ولو كان يرى نفسه أقوى المسلمين على هذه الإمارة فأمر أمير المؤمنين أكثر بركة من أمره . وكما يقول رضي الله عنه :

(ولو راى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب إليّ بخط يده ، فاعتزلت عمله . ولو قضى الله ان يفعل ذلك لرجوت أن لا يعزم له على ذلك إلا وهو خير) .

كان ختام الجلسة مؤسفاً أشد الأسف ، مؤلماً أشد الألم . لقد حذرهم نقمة الله وغضبه ، وحذرهم مهاوي الشيطان ومنزلقاته وحذرهم فرقة الكلمة ومعصية الإمام،وحذرهم الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم ، فماذا كان منهم مقابل ذلك ؟

وثبوا عليه ، وأخذوا براسه ولحيته !!

وعندئذ زجرهم وقمعهم ووجه لهم كلامـاً قاسيـاً مبطّناً

بالتهديد . وعرف أن هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحق ، فلابد من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وكشف هوياتهم وخطرهم ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر ، فكتب إليه قائلاً :

(بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان .

أمـا بعد :

فإنك قد بعثتَ إليّ أقوامـاً يتكلمـون بألسنة الشياطين ، وما يُملون عليهم ، ويأتون الناس ـ زعموا ـ من قبل القرآن ، فيشبّهون على الناس وليس كل الناس يعلم مايريدون .

وإنما يريدون فرقة ، ويقربون فتنة ، قـد أثقلهم الإسلام وأضجرهم ، وتمكنت رقى الشيطان مـن قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة . ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم ، وفجورهم، فارددهم إلى مصـرهم . فلتكن دارهم في مصـرهم الذي نجم فيه نفاقهم والسلام) (١) .

لقد كانت هذه الجلسات كافية ليعجم عـودهم ، ويكشف باطنهم ، ويحدد هويتهم ، ولقد أكد لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أن هؤلاء جند للشيطان،وأعداء للإسلام،يظهرون غير ما يبطنون، همُّهم إثارة الفتنة والشبهات في قلوب الناس ، ليزيغوا عن الحق . وقد نجحوا في هذه المهمة إلى حد كبير في إفساد الناس .

أما الرأي بالنسبة لهم فهو حبسهم في مصرهم ـ الكوفة ـ والا يخرجوا منها حتى لايفسدوا غيرهـا . والرأي بعدهـا لأمـير المؤمنين .

---

(١) الطبري ج٣ ص٣٦٦ ـ ٣٦٧ . سنة ٣٢

الفِتـنَة تخرج خَطمَها لِتَثِب

قدمت سنة خمسٍ وثلاثين وهي تحمل في ثناياها عواصف هوجاً استطاع ابن سبأ أن يكون المحرك لها ، وندع وصف ابن سبأ ليزيد الفقعسي :

يقول : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من اهل صنعاء ، أمه سوداء . فأسلم زمن عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم . فبدأ بالحجاز ، ثم بالبصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام . فلم يقدر على ما يريد عند أحدٍ من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول :

لعجبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذّب بأن محمداً يرجع ؛ وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) . فمحمد أحق بالرجوع من عيسى .

قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها .

ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي . وكان عليٌّ وصيّ محمد .

ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعليٌّ خاتم الأوصياء .

ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجزْ وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصيِّ رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة .

ثم قال لهم بعد ذلـك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهـذا وصيُّ رسول الله ﷺ ، فانهضوا في هـذا الأمر فحركوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر (١) .

إنه شرح كامل لحلقات المؤامرة من نقطة البدء إلى نقطة الانتهـاء .

ابتدأ أولاً بالرجعة ، ووجد لهذا الرأي قبولاً بين رعاع الناس ودهمائهم . وكلما تركزت حلقة من الفتنة ، انتقل بتؤدة ومكر إلى الحلقة الثانية ، من الرجعة إلى الوصاية ، ومن الوصاية للثورة على عثمان أمير المؤمنين .

أما طريق الوصول إلى ذلك ، فهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظاهر الأمر . والطعن على الأمراء بخفاء : تخطيط دقيق ، وتنظيم محكم . وهو الذي نفذ بالفعل خطوة خطوة . ففجر الفتنة، وقاد الأمة إلى الدمار .

وهذه نماذج من التطبيق العملي لهذا التخطيط .

شهدنا أولاً موقف مفجري الفتنة من معاوية: يدعونه للاعتزال من الولاية ، ويشهّرون به ، وينقصون من قدره وأهليته للحكم .

وهذا نموذج ثانٍ لهم مع سعيد بن العاص والي الكوفة ، وهو تتمة الحلقة مع مفجري الفتنة بعد أن غادروا الشام .

---

(١) الطبري ج٣ ص٣٧٨ ، السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي .

اخرج معاوية رضي الله عنه دعاة الفتنة من الشام بعدما سمح له عثمان بذلك . واوجسوا خيفة من الاستقرار في العراق ، إذ ان امرهم مفضوح هناك ، فاختاروا مكاناً وسطاً بين المصرين : الجزيرة حيث يبعدون عن الأنظار من جهة ، ويتمكنون من التحرك من جهة ثانيــة .

غير ان وجود عبد الرحمن بن خالد بن الوليد رضي الله عنهما اميراً على الجزيرة ،كان طالع نحسٍ بالنسبة لهم ، فقد أوكل معاوية الجزيرة لعبد الرحمن بن خالد ، فضيّق الخناق عليهم ، وحاول تخضيد شوكتهم والاستخفاف بهم ،ماملك سبيلاً إلى ذلك ، فمنطق الحجة لم يجدِ معهم حين استعمله ابن أبي سفيان .

وكان الأشتر النخعي على راسهم ، فطلبه عثمان امير المؤمنين ليتعرف على وجهة نظره ، فاستمع له امير المؤمنين ثم خلّى سبيله .

لم يستطع ابن سبأ ان يعيش في الشام ، فلقد كان ابو ذرٍ الغفاري رضي الله عنه اشد وعياً من ان يقع في مخططات ابن سبأ (١) ولم يجرؤ ابن سبأ ان يمضي إلى الجزيرة ، فسطوة عبد الرحمن بن خالد ونقمته قوية . فطاب له المقام بالفسطاط فاستقر هناك ليحرك اعوانه في العراق والشام والجزيرة .

ابتدات الفتنة بيزيد بن قيس في المسجد ، حيث راح مــع صحبه الذين اتصل بهم ابن سبأ يعلن خلع عثمان بن عفان ، فتقدم منه القعقاع بن عمرو ، واخذه مــع من كان معه ، فلم يتجرا ابن قيس ان يتحدث عن امير المؤمنين ؛ إنما وجه النقد لأمــير الكوفة

---

(١) راجع كتاب ــ ابو ذر الغفاري الزاهد المجاهد ــ للمؤلف.

سعيد بن العاص !! إنه يذكرنا بأبي الدرداء عندما قبض على ابن سبأ في الشام ، وقاده إلى معاوية .

قال يزيد بن قيس : إنما نستعفي من سعيد .

قال : هذا مالايعرض لكم فيه ، لاتجلس لهذا ، ولا يجتمعن إليك ، واطلب حاجتك فلعمري لتعطينها .

وجد يزيد أنه غدا في خطر ، وأن الأوان قد آن للقيام بعمل ما يحرك الحاقدين ، فاستأجر رجلاً واعطاه دراهم وبغلاً على أن يأتي المسيَّرين من الكوفة ، وكتب إليهم :

(لا تضعوا كتابي في أيديكم حتى تجيئوا ، فإن أهـل المصر قد جامعونـا) .

ولنعد إلى الأشتر النخعي الذي أطلق عثمان سراحه حين أعلن التوبة على يديه . عاد الأشتر إلى الجزيرة قادماً من المدينة ، ووصل رسول يزيد بن قيس إليهم في وقت واحد .

قالوا للرسول : ما اسمك ؟ قـال بغثـر ، قالوا : ممن ؟ قال : من كلب . قالوا : سبع ذليل يبغثر النفوس لاحاجة لنا بك . لكن الاشتر النخعي الذي أعلن توبته على يد عثمان عاد فنقض العهد واستبد به الحقد ، وخالف أمرهم ، وخرج فـاراً عاصياً تحت جنح الليل .

قال أصحابه : احرجنا احرجه الله ، لا نجد بداً مما صنع ، إن علم بنا عبد الرحمن لم يصدقنا ، ولم يستقلها ، فاتبعوه فلم يلحقوه وازمعوا اللحاق به .

وبلغ عبد الرحمن خروجهم ، فبعث في طلبهم غير أنهم فاتوه.

ونعود إلى يزيد الفقعسي ، فهو يحدثنا عن بعض الخطوات الهامة التي سار فيها المتآمرون :

(فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رايهم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وجعلوا يكتبون إلىالأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون . فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير مايظهرون ، ويسرون غير مايبدون . فيقول أهل كل مصر : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس) (١) .

اهتز محمد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله لهذه الأنباء المفزعة عن الأمصار فدخلوا على أمير المؤمنين عثمان على عجل :

(قالوا : يا أمير المؤمنين أياتيك عن الناس الذي يأتينا ؟!

قال : لا والله ، ما جاءني إلا السلامة .

قالوا : فإنا قد أتانا) (٢) .

واخبروه بما تناهى لسمعهم عن الفتنة التي تموج بها الأمصار الإسلامية ، وعن الهجوم الشرس على ولاته في كل صقع .

(وقال : انتم شركائي وشهود المؤمنين ، فاشيروا علي ؟!

(١، ٢) الطبري ج٣ ص ٣٧٩ سنة ٣٥ .

قالوا : نشير عليك ان تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم)(١) .

إن البذور التي أودعت الأرض بدات جذورها تضرب فيها ، وبدات الفتنة تهيج ريحها على السطح : فهذه الأرض الإسلامية تموج بالإشاعات، الكتب تترى بين الأمصار، والطعن في الولاة لم تعد ريحه المنتنة تخفى على أحد ، بل لقد صكّت مسامع امير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .

وانتهى الراي إلى ان يبعث خاصة رجاله ليتحققوا من وضع ولاتــه .

فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، واسامة بن زيد إلى البصرة ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وعبد الله بن عمر إلى الشام . وهؤلاء من كبار صحابة رسول الله ﷺ واثقلهم وزناً ، وبعداً عــن الشبهة . واخذ القلق يساور الخليفة الراشد رضيالله عنه من جراء هذه الاشاعات ، وجعل قلبه يخفق رعباً أن يكون ولاته وموطن ثقته كما يدّعي المرجفون !!

ورجع الموفدون وجعبتهم حافلة بما يثلج الصدور .

فقالوا : أيها الناس ما انكرنا شيئاً ، ولا انكره اعلام المسلمين ولا عوامهم .

وقالوا : الأمر امر المسلمين إلا ان امراءهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم .

---

(١) الطبري ج٣ ص ٣٧٩ ، سنة ٣٥ .

إلا ان امراً احزن عثمان رضي الله عنه ، وهو أن عمار بن ياسر قد اعطى اذناً لقالة السوء في مصر ، ورؤساء الفتنة فيها وهم عبد الله بن سبأ ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة ابن بشر .

* * *

ولم يكتف عثمان رضي الله عنه بهذا الموقف ، فلقد أتبعه خطوتين حاسمتين وضروريتين :

الخطوة الأولى : كتب إلى اهل الأمصار جميعاً كتاباً شاملاً بمثابة إعلان عامٍ لكل المسلمين :

(اما بعد : فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطتُ الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع عليَّ شيء ، ولا على احد من عمالي إلا اعطيته ، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلامتروك لهم ، وقد رفع إليَّ اهل المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرون يضربون ، فيامن ضُرب سراً وشُتم سراً ، من ادعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، مني او من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين) (١) .

ترى اية عدالة في الأرض تفوق هذه العدالة ، وأية نزاهة تبلغ مستوى هذه النزاهة ، اية حرية واي إكرام للناس يفوق هذا الإكرام وهذه الحرية . لقد جعل للأمة حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومحاكمة الولاة والعمال جهاراً ، وعلى رؤوس الأشهاد

---

(١) الطبري ج٣ ص٣٧٩ . السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

وفي موسم الحج . وحق الدولة متروك عندما يمس شخص أمير المؤمنين أو أهله ، وصاحب الحق بإمكانه أن يحضر إلى موسم الحج، وأمام الناس جميعاً ، ويأخذ حقه من الخليفة أو ولاته .

ومن اجل هذا كان وقع الكتاب في الأمصار له دوي عظيم في ارتفاع الثقة بأمير المؤمنين كما يقول ابن جرير :

فلما قرىء في الأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان وقالوا :

إن الأمة لتمخّض بشر .

وكانت **الخطوة الثانية** من عثمان رضي الله عنه هي استدعاءه الولاة على عجل : عبد الله بن عامر ، ومعاوية ، وعبد الله بن سعد ، وادخل معهم في المشورة سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص ـ وهم من الولاة السابقين ـ . وكانت جلسة مغلقة وخطيرة جرت فيها الأبحاث التالية التي تقرر خطة العمل الجديدة على ضوء الأخبار المتناهية إلى المدينة عاصمة دولة الإسلام :

(عثمان : ويحكم ما هذه الشكاية ؟! وما هذه الإذاعة ؟! إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ، ومايعصب هذا إلا بي .

الولاة : ألم تبعث ؟ ألم نرجع إليك الخبر عن القوم ؟! ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ؟!! لا والله ما صدقوا ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً . وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء . وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها .

وقال عثمان : فأشيروا علي .

سعيد : هذا امر مصنوع يُصنع في السـر ، فيُلقى به غير ذي المعرفة فيُخبر به فيتحدث به في مجالسهم .

عثمان : فما دواء ذلك ؟

سعيد : طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم .

ابن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم ، فإنه خير من أن تدعهم .

معاوية : قد وليتني ، فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير ، والرجلان أعلم بناحيتيهما .

عثمان : فما الرأي ؟

معاوية : حسن الأدب .

عثمان : فما ترى يا عمرو ؟

عمرو : ارى انك قـد لِنْت لهم ، وتراخيت عنهم ، وزدتهم على ماكان يصنع عمر . فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك ، فتشتد في موضع الشدة ، وتلين في موضع اللين . إن الشدة تنبغي لمن لايألو الناس شراً ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللين .

عثمان : (بعد ان حمد الله واثنى عليه)

كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعت، ولكل أمر باب يؤتى منه؛ إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يغلق عليـه فيكفكف به اللينُ والمؤاتاة والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذكره . . . .

وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً ولا نفسي .

والله إن رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغتفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها) (١) .

لقد كانت صورة واضحة كاملة لما يدور في اذهان قادة المسلمين آنذاك وولاة الأمر . فالثابت في اذهان الجميع ان الأمر حسن ، وذات البين حسنة ، وهو واقع المسلمين في الحقيقة . وقد ادركوا جميعاً أن هناك دعاة فتنة يثيرونها ، ويحركون ضرامها ، همهم إشاعة البلبلة بين الصفوف . وكان اكثر الآراء منصباً على طلب الشدة ، وقتل دعاة الفتنة ، واستئصالهم من الجذور .

وكان افق عثمان العالي غير هذا الأفق ، فلقد لخص رايه بأمور ثلاثة :

أولاً :

إنه وهو يستمع إلى علاجهم للمشكلة ارتسمت في ذهنه صور الفتنة التي حدَّث عنها رسول الله ﷺ فيما أخرجه مسلم :

إنها ستكون فتن ، الا ثم تكون فتن ، القاعد فيها خير من الماشي فيها ، والماشي فيها خير من الساعي إليها . الا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له ارض فليلحق بأرضه .

---

(١) الطبري ج٣ ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ سنة ٣٥ السري عن شعيب عن سيف .

إنه يراها وكانها على باب بيته ، ولقد كان وصف سعيد بن العاص دقيقاً إلى أبعد الحدود حين قال : (هذا أمر مصنوع يصنع في السر، فيلقى به غير ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم).

ثانياً :

والفتنة لابد لها أن تنطلق من باب ، فتتتابع أمواجها المظلمة تأكل الأخضر واليابس ، ولقد كان حدس عثمان وحسه المرهف في مكانه ؛ إنه يتوقع بوادرها منذ خطوات ابن سبأ في الشام قبل سنتين أو ثلاث ؛ إذ كتب في الكتاب الذي بعثه لمعاوية من أجل أبي ذر رضي الله عنه :

(إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب فلا تنكأ القرح) فهو يرفض أن يكون باب هذه الفتن .

ثالثاً :

ومن هنا كان منطلق عثمان في كل الأمور ، والتي يمكن الحكم منها على كل تصرفاته فيما بعد ، وهي هذه الخطة :

لن يكون منطلق الفتنة ، لن يشعل نارها بالشدة والقتل والتعذيب . إنه يؤثر الموت قبل أن تدركه الفتنة تأسياً بدعاء رسول الله ﷺ : وإذا أردت فتنة قوم فاقبضني إليك غير مفتون .

وليس هذا موقف عثمان رضي الله عنه من الفتنة وحده ، بل هو موقف عمر كذلك ، فعن حذيفة رضي الله عنه قال :

« كنا عند عمر رضي الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة ؟ فقلت : أنا . قال : إنك لجريء وكيف ؟ قال: قلت : سمعته يقول : فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه

وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقال عمر رضي الله عنه : ليس هذا اريد ، إنما اريد التي تموج كموج البحر . قال : فقلت : مالك ولها يا امير المؤمنين ؟! إن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال : فيكسر الباب أو يفتح ؟ قال : بل يكسر . قال : ذلك أحرى أن لايغلق ابداً . فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم مَنْ الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غدٍ الليلة . إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط . فقيل لحذيفة : من الباب ؟ قال : عمر » أخرجه الشيخان والترمذي .

رابعـاً :

والخطة التي يرفض فيها عثمان اللين هي حدود الله ، فهذه لاهوادة فيها لأن مهمة الإمام أن يحكم بشريعة الله وينفذ حدوده .

وأما ما دون ذلك فهو يرفض أن يستعمل القوة .

ولم يكن معاوية غمراً في هذه الأحداث ، فهو الذي أكد لعثمان أولاً أنه لن يصل له شيء عن الشام يكرهه .

وهو الذي أشار على عثمان رضي‌الله عنه بقوله : حسن‌الأدب.

بهذه العبارة البليغة التي تلخص سياسة معاوية رضوان الله عليه مع رعيته ؛ بقي معاوية بأمر الخليفة في المدينة إلى ان جاء عثمان من الحج ، واعاد الأمراء إلى امصارهم . ولم يأته في موسم الحج شكوى من أحد على احد من عماله .

وقبل أن يغادر معاوية المدينة المنورة ، ورغم انه لاتبدو ظاهر نذر الشر؛ غير أن امير الشام كان يرى غير ذلك:إنه يرى الجو يوشك

ان ينفجر ويطيح بأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، ومن اجل ذلك اختلى بعثمان وباح له بما يحس به ، وعرض عليه اقتراحات ثلاثة. وذلك من خلال المحادثة التالية بينهما :

معاوية : يا امير المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك مالا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا .

عثمان : انا لا أبيع جوار رسول الله بشيء ، وإن كان فيه قطع خيط عنقي .

معاوية : فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني اهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة او إياك .

عثمان : انا أقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم ، واضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟!.

معاوية : والله يا أمير المؤمنين لتغتالنّ أو لتغزينّ .

عثمان : حسبي الله ونعم الوكيل .

فلقد كان معاوية يرى ان نذر الشر تعوي تريد أن تطيح بأمير المؤمنين ، وكان عثمان يرى ذلك ، وهو يعلم أن الفتنة قائمة ، فلئن كشَّر عن أنيابه ، وراح يقتل بالظنة فسوف يخوض في الفتنة خوضاً ولن يتورط عثمان بالفتنة ، فيفتح باب القتل وسفك الدم لأنه لن يرقأ كما يقول عليه الصلاة والسلام :

(إذا وضع السيف في أمتي لم يرتفع عنها إلى يوم القيامة) (١).

---

(١) رواه الترمذي .

سوف يكفكفها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، اما ان يمضي إلى الشام فهو أول من يغيّر ويبدل ، وأما أن يطالب بجيش من الشام لحماية المدينة فهذا لن يقبله ابداً . حتى لايضيق على أهل المدينة ارزاقهم .

لقد رفض اقتراحات معاوية كاملة ، ومضى معاوية مهموماً من عند عثمان قلقاً عليه . وبينما هو ماضٍ في سبيله إلى الشام إذا به يلتقي برهط من اصحاب رسول الله ﷺ ، فلم يتمالك إلا أن يفتح لهم قلبه ، ويسر لهم بذات نفسه ؛ خاصة وان بين الرهط كبار المرشحين للخلافة بعد عثمان ، ومن يمكن أن يتحدث باسمهم دعاة الفتنة دون أن يعلموا . فيهم علي وطلحة والزبير .

ومعاوية يدرك التأثير المعنوي لهؤلاء ، فوقف عليهم متكئاً على قوسه ، متقلداً سيفه ، فألقى عليهم السلام ثم قال :

إنكم قد علمتم ان هذا الامركان إذا الناس يتغالبون إلى رجال، فلم يكن منكم احد إلا وفي فصيلته من يراسه ، ويستبد عليه ، ويقطع الأمر دونه ، ولا يشهده ولا يؤامره .

حتى بعث الله عزوجل نبيه ﷺ ، واكرم به من اتبعه ، فكانوا يرئسون من جاء من بعده ، وامرهم شورى بينهم . يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد . فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم ، وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى من كان يراسهم . وإلا فليحذروا الغِيَر ، فإن الله على البدل قادر ، وله المشيئة في ملكه وامره .

إني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً ، وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك .

ثم ودعهم ومضى) (١) .

فقال علي : ماكنت ارى أن في هذا خيراً .

فقال الزبير : لا والله ماكان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه الفداة .

رأى معاوية انه قد بلغ الأمانة ، وذلك بعبارات موجزة أشد الإيجاز ، بليغة أعمق البلاغة .

إنه وضع صورتين متقابلتين للأمة قبل الإسلام وبعده ، ولقادة هذه الأمة كذلك ، وكان الربط وثيقاً ومحكماً .

فقبل الإسلام كان هؤلاء القادة ؛ ومنهم علي وطلحة والزبير لا شيء لهم في الأمر ، وإنما تبوؤوا هذا المركز بالإسلام . إنه يقر لهم بفضلهم وسابقتهم وجهادهم ،هذا الجهاد الذيجعلهم ائمة المسلمين .

فالقيادة إذاً ليست شخصية بمقدار ما هي نوعية ، مرتبطة بالجهاد في سبيل الله . أما يوم تكون الدنيا هي التي تحركهم ، فقد فقدوا هذا المركز الذي حازوه بالبلاء في سبيل الله .

إنها لتذكرنا بوصية الفاروق رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص حين قال له :

---

(١) الطبري ج٣ ص ٣٨١ سنة خمس وثلاثين . السري عن شعيب عن سيف .

(يا سعد بن وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ؛ فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن . فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته . . .) (١) .

إنه عرض فقيهٍ بالإسلام ، متمكنٍ فيه ، عريق بأمور الإمارة والحكم .

ونحن بحاجة إلى وقفة عند راي علي بن ابي طالب ، والزبير ابن العوام رضي الله عنهما بمعاوية .

فمتى التقى علي بمعاوية ؟

لم يلتقِ به إلا جندياً في جيش المشركين ، ولم يعرفه في الإسلام إلا بعد أن انتهت حرب المشركين . لقد التقى معه وجلس إليه بعد أن جمع بينهما الإسلام ، ولكن الفترة لم تطل ابداً ؛ فقد ولاه رسول الله فصيلة من الفصائل بعد أن اكرمه بكتابة الرسائل . واستقر معاوية بالشام قرابة عشرين عاماً وهو بعيد عن جو المدينة . فمن اين يعرف علي معاوية ؟

ولا شك أن أنباء الفتوحات في الشام التي قادها معاوية قد تناهت إلى سمعه . ولكنها حلقة من الفتوحات الكبيرة التي ساهم فيها قادة المسلمين أمثال : سعد وخالد، والمثنى والقعقاع، وغيرهم . فلم تُتَح الظروف أبداً للاحتكاك والالتقاء بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ليختبر كل واحد منهما الآخر . وكان علي في عين معاوية

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ـ سنة اربع عشرة من الهجرة ج٧ ص ٣٥ .

كبيراً ، لأنه يعرف جهاده في سبيل الله منذ اللحظات الأولى في حياته ، إذ كان هو في صف المشركين في الجانب المضاد للاسلام . ولكن معاوية لم يكن كذلك في عين علي ، فكل ما يعرفه عنه أنه أمضى شبابه وهو في صف أعداء الإسلام ، وأسلم يوم الفتح ، وتولى أمر الشام. وقد يكون معاوية والياً ناجحاً فذاً في ذهن علي، أما مستواه الإسلامي ومستواه العقائدي فلم يكن يدري عنه شيئاً ، ومن أجل هذا كان معاوية في عين علي غير علي في عين معاوية .

وشيء جديد نلاحظه من كلمة علي للزبير : ماكنت ارى ان في هذا خيراً . لكن الزبير خالفه في ذلك قائلاً :

لا والله ماكان قط اعظم في صدرك وصدورنا منه الفداة .

وصمتُ علي على كلمة الزبير يوحي بقناعته فيها ، ويوحي بأنهما كشفا شخصية جديدة ذات مواهب وطاقات مبدعة هي شخصية معاوية بن أبي سفيان .



وغادر معاوية المدينة بعد الحج ، وبدات الحلقة الثانية من الفتنة تظهر في المدينة ؛ إذ نزل فيها عدد كبير من أهل البصرة والكوفة ، وهم الذين رفضوا أن يوافوا أمير المؤمنين بالحج ، لأن الولاة جميعهم موجودون .

واستطاع عثمان رضي الله عنه بعبقريته أن يفضح مخططهم كاملاً :

اختار رجلين أحدهما منبني زهرة ، والآخر من بني مخزوم للتعرف على نوايا هؤلاء المتظاهرين في العمرة . وكان هذان الرجلان قد نالتهما عقوبة عثمان فيمكن أن يطمئن المتظاهرون إليهما .

(فلما رأوهما باثوهما وأخبروهما بما يريدون .

قالا : من معكم على هذا من أهل المدينة .

قالوا : ثلاثة نفر .

قالا : هل إلا ؟!

قالوا : لا

قالا : فكيف تريدون أن تصنعوا ؟

قالوا : نريد أن نذكر له اشياء قد زرعناها في قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتب . ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم فنحيط بـه فنخلعه ؛ فإن ابى قتلناه وكانت إياها) (١) .



---

(١) الطبري ج٣ ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ . السري عن شعيب عن سيف عن شيوخه .

بيان عثمان إلى الأمة

تتعدد الروايات وتتزاحم في هذا الموضوع ، ولكننا سنأخذ بأوثق روايات الطبري ، لذا سنكتفي بروايات السري عن شعيب عن سيف .

لا يمكننا أن نقفز إلى معاوية قبل أن نمر بهذا المرتقى الصعب، لأن معاوية رضي الله عنه قد اتجه بكل ثقله نحو التخطيط لسياسة المسلمين بعد مقتل عثمان ، تلك الفاجعة التي كانت من جهة ثانية بداية لكل الفتن في العالم الإسلامي .

(أرسل (عثمان) إلى الكوفيين والبصريين ونادى : الصلاة جامعة ـ وهم عنده في أصل المنبر ـ فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم . وقام الرجلان (١) .

فقالوا جميعاً (أي المسلمون) : اقتلهم فإن رسول الله ﷺ قال : من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه . وقال عمر بن الخطاب : لا أحل لكم إلا ماقتلتموه وأنا شريككم .

فقال عثمان : بل نعفو ونقبل ، ونبصرهم بجهدنا ، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً .

---

(١) إشارة إلى الزهري والمخزومي اللذين كشفا المؤامرة .

إن هؤلاء ذكروا اموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ، إلا انهم زعموا انهم يذاكرونيها ليوجبوها عليّ عند من لا يعلم :

١ ــ وقالوا : أتم الصلاة في السفر ، وكانت لاتتم .

الا وإني قدمت بلداً فيه اهلي فأتممت لهذين الأمرين (١) ؛ أَوَ كذلك ؟

قالوا (أي المسلمون) : اللهم نعم .

٢ ــ وقالوا : وحميت حمى .

آ ــ وإني والله ما حميت ، حَمي قبلي (٢) ، والله ما حموا شيئاً لأحد ، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رِعْية أحــداً .

ب ــ واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع .

جـ ــ ثم ما منعوا ولا نحّوا منها احداً إلا من ساق درهماً .

د ــ وما لي من بعير غير راحلتين، وما لي ثاغية(٣) ولا راغية(٤).

---

(١) لم تذكر الرواية إلا أمراً واحداً ، وهو وجود أهل عثمان رضي الله عنهم . وقد اورد ابن كثير في بعض الرواية الأمر الثاني وهو نيته الإقامة ، ولعلها سقطت هنــا خطأً . انظر ابن كثير ج٧ ص ١٧١ . سنة ٣٥ .

(٢) إشارة إلى ان الحمى كان لعامة المسلمين ولم يكن لشخصه وكان حق الرعي فيه للجميع .

(٣ــ٤) إشارة إلى أنه لا يملك غنماً ولا إبلاً .

هـ ـ وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاءً ، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجّي ؛ أكذلك ؟!

قالوا : اللهم نعم .

٣ ـ وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً .

الا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد . وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء (١) ؛ أكذلك ؟!

قالوا : اللهم نعم .

وسألوه أن يقتلهم .

٤ ـ وقالوا : إني رددت الحكم .

وقد سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف . ثم رده رسول الله ﷺ . فرسول الله ﷺ سيره ، ورسول الله ﷺ رده أكذلك ؟

قالوا : اللهم نعم .

٥ ـ وقالوا : استعملت الأحداث .

آ ـ ولم استعمل إلا مجتمِعاً محتملاً مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل بلدهم .

ب ـ ولقد ولى من قبلي أحدث منهم (٢) ، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ اشد مما قيل لي في استعماله اسامة ؛ أكذاك ؟

قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس مالايفسرون .

---

(١) يقصد اصحاب محمد ﷺ .

(٢) إشارة إلى تولية الرسول ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنهما .

٦ ــ وقالوا : إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه .

آ ــ وإني إنما نفلته خمس ما آفاء الله عليه من الخمس فكان مائة الف .

ب ــ وقد انفذ مثل ذلك ابو بكر وعمر .

جـ ــ فزعم الجند انهم يكرهون ذلك .

د ــ فرددته عليهم وليس ذلك لهم .

أكذاك ؟ قالوا : نعم .

٧ ــ وقالوا : إني احب اهل بيتي واعطيهم .

آ ــ فأما حبي فإنه لـم يمل معهم على جَوْر ، بـل احمل الحقوق عليهم .

ب ــ وأما إعطاؤهم فإني أعطيهم من مالي ، ولا أستحل اموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس .

جـ ــ ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وابي بكر وعمر ، وانا يومئذ شحيح حريص .

د ــ افحين اتيت على اسنان أهل بيتي وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا ؟!

هـ ــ وإني والله ما حملت على مصرٍ من الأمصار فضلاً (١) ، فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم .

---

(١) اي انه لم يفرض اي ضريبة او اتاوة على اي مِصر من الأمصار الإسلامية .

و ــ وما قدم عليّ إلا الأخماس ، ولا يحل لي منها شيء ، فولي المسلمون وضعها فيأهلها دوني ، ولا يتلفت من مال الله بفلس فما فوقه ، وما اتبلغ منه ما آكل إلا مالي .

٨ ــ وقالوا : أعطيت الأرض رجالاً ، وإن هــذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت .

آ ــ فمن اقام بمكان من هذه الفتوح فهو اسوة اهله .

ب ــ ومن رجع إلى اهله لم يُذهب ذلك ما حوى الله له .

ج ــ فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم ، فبعته لهم بأمرهم من رجالٍ أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني .

د ــ وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني امية وجعــل ولده كبعض من يعطي ، فبدأ ببني ابي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مائة الف ، واعطى بني عثمان مثل ذلك ، وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب) .

ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف ، وابى المسلمون إلا قتلهم ــ اي الثائرين ــ وأبى إلا تركهم .

* * *

هذا بيان لو سجل بماء الذهب لكان قليلاً عليه ، صدر مــن امير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وقد اضطر له اضطراراً . وكان يود لو أنّ ذاك كان بينه وبين الله تعالى ، وهو الذي يستحي أن يفوه بكلمة واحدة عن نفسه ثناءً أو حديثاً ، بل إن الملائكة لتستحي من هذا الحييّ .

هذا الانسان العظيم اضطره المنافقون والحاقدون إلى الحديث عن جوانب من سلوكه ، وجوانب من فضله ، ماكان أغناه عنها لولا كيد الحاسدين واتهام المنافقين .

● وفعلاً لولا اتهام المنافقين والحاقدين ما كنا لنعرف سياسة عثمان المالية وتفريقه بين ماله ومال المسلمين ، فلا يستحل من مال المسلمين درهماً وما دونه ، بينما بقي يعطي من ماله حتى نفد ماله ، ومن أرضه حتى نفدت أرضه . حتى لم يبقِ من كل ما يملكه إلا بعيرين لحجه ، وهو الذي كان أغنى أغنياء مكة والمدينة ذات يوم !!

● ولولا اتهام المنافقين وكيد الكائدين؛ما كنا لنتعرف على سياسة عثمان الزراعية ، فهو يرفض أن تبقى أراضٍ في بلاد الفتوح عطلاً لاتنتج ، بوراً لاتزرع ؛ بحجة ملكيتها لبعض الفاتحين ، فيكون الأولى بلا شك بيع تلك الأراضي لمن يعمل بها ، ويسلم ثمنها لأصحابها الأصليين .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين ما كنا لنعلم سياسة عثمان العسكرية التي تؤمن بإغداق المال على القائد العسكري ، حتى يعف عن مال جنده ، فلقد اعطى ابن ابي سرح خمس الخمس المخصص لولي الأمر ؛ ليكون في مركز ولايته كهفاً للمحتاجين ، وملاذاً للقاصدين .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن نعلم سياسة عثمان النفسية مع رعيته الذين أحبهم وأحبوه ، وأوطأ لهم كنفه . حتى يتدخل المسلمون في شؤون خليفتهم ، ويعرض لهم الشك في نفل ابن أبي سرح ، فيدفن الفتنة في مهدها ، ويسترد خمس الخمس منه حتى يمنع القالة والريب من نفوسهم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن لنعرف سياسة عثمان الإدارية التي تقوم على تحريك الطاقات ، والاستفادة من عنصر الشباب المتوثب المنطلق ، وتوجيه هذه الطاقات للفتوح في اقصى الأرض ، وللابداع في عبقرية القيادة والتنظيم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن لنعرف سياسة عثمان الاقتصادية .يحمي الأرض من أرض المسلمين لإبل الصدقة ولفقراء المسلمين يرعون بهـا ماشيتهم ، وليمنع اي تسلطٍ من الجيش أو رجال الحكم على أرض الناس ينتهبونها بحجة المصلحة العامة ، بل ويدعها مشاعاً يستفيد منها كل محتاج أو مضطر لرعي إبله . بينما يمنع ذلك الحمى عن اغنياء المسلمين لانه بإمكانهم تأمين الأرض الرعوية اللازمة لإبلهم وماشيتهم .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن لنعرف سياسة عثمان المنهجية ، فإن حمى فقد حمى مـن هو قبله : عمر أمير المؤمنين ، بل ومنع عثمان نفسه وعبد الرحمن بن عوف من الرعي في حمى المسلمين لغناهما وقدرتهما على رعي إبلهما وماشيتهما في أرضهمـا .

وإن أعطى عثمان رضي الله عنه ابن أبي سـرح ، فلقد أعطى قبله أبو بكر وعمر ، وإن استعمـل الشباب فقد استعمل قبلـه الشباب رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر .

وإن جمع القرآن فلم يجمعه إلا على رأي وبينـة وملأ من أصحاب محمد ﷺ .

● ولولا كيد الكائدين واتهام المنافقين لم نكن لنعرف سياسة عثمان الإسلامية التي ترفض أي تهاونٍ في حدٍ من حدود الله ،

وهي في الوقت نفسه تساير وتلاين في الأمور الشخصية ، حتى إن المسلمين يرون قتل أولئك الثائرين الذين ينالون من شخص الخليفة ويشهّرون فيه ، ويأبى عثمان امير المؤمنين ان يستغل مركزه والتأييد الشعبي الإسلامي له في ضرب معارضي سياسته ، بل يصير إلى العفو عنهم ، وإخلاء سبيلهم .

وكان هذا البيان الشامل ، ثم العفو والصفح عن المغرضين كافياً لأن يملأ الأرض استقراراً وامناً . هذا لوكان هؤلاء دعاة امن واستقرار ، أو طلاب عدل وخير .

ولكن هيهات ، فاليهودية السبئية تريد ان تدمر الأرض بالمسلمين حكاماً ومحكومين !!



المتآمرون يحتلّون المدينة

ولابد لنا أن نتابع خيوط المؤامرة وخطواتها ، ونرافق السري فيما نقله لنا عن شعيب عن سيف عن شيوخه ، معرضين عن بقية الروايات المضطربة المتناقضة التي لاتخلو من مطعن في السند ، او مطعن في المتن . وحسبنا هؤلاء يفطون في مروياتهم كل احداث المؤامرة ، ويكشفون تفاصيلها كاملة .

تركنا الثائرين وقد عفا عثمان رضي الله عنه عنهم بعد أن دمغهم بالحجة ، واطلق سراحهم ، فماذا جرى بعد ذلك ؟؟

(فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوهم (أي يغزو المسلمين في المدينة) مع الحجاج كالحجاج ، فتكاتبوا وقالوا : موعدكم ضواحي المدينة في شوال . حتى إذا دخل شوال من سنة اثنتي عشرة ـ من خلافة عثمان ـ ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة .

قالوا : ولما كان في شوال سنة ٣٥ (١) خرج اهل مصر في اربع

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً . قال : قلت : مما مضى أم مما بقي ؟ قال : مما بقي . « رواه الإمام أحمد وابو داود والحاكم في مستدركه وقال : صحيح ←

رفاق على أربعة أمراء ، المقلّل يقول ستمائة ، والمكثر يقول الف . على الرفاق : عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر التجيبي ، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة بن فلان السكوني، وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العكي ، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلىالحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء .

وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق وعلى الرفاق : زيد بن صوحان العبدي ، والأشتر النخعي ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصم احد بني عامر بن صعصعة . وعددهم كعدد أهل مصر ، وعليهم جميعاً عمرو بن الأصم .

وخرج أهل البصرة في أربع رفاق ، وعلى الرفاق : حكيم بن جبلة العبدي ، وذريح بن عباد العبدي ، وبشر بن شريح بن الحطم ابن ضبيعة القيسي ، وابن المحرش بن عبد بن عمرو الحنفي . وعددهم كعدد أهل مصر،وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي سوى من تلاحق بهم من الناس .

فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون علياً ، واما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة ، واما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير . فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الناس شتى ، لا تشك كل فرقة إلا أن الفلج معها، وان أمرها سيتم دون الأخريين. فخرجوا

على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي في تلخيصه . وقال ابن الأثير : إن كان أراد سنة ٣٥ ففيها خرج أهل مصر وحصروا عثمان ، وإن كان ستاً وثلاثين ففيها كانت وقعة الجمل ، وإن كانت سبعاً وثلاثين ففيها كانت وقعة صفين » .

حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث: تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب ، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص ، وجاءهم ناس من أهل مصر ، وتركوا عامتهم بذي المروة (١) .

هذه هي المرحلة الأولى من المؤامرة ؛ جهزت كأحسن ما يكون التجهيز ، تم التوقيت لها على يد ابن سبأ الذي حضر من مصر خصيصاً ليشرف على التنفيذ ، واختارت كل فرقة مكاناً للنزول .

واستطاع ابن سبأ بذكائه أن يفرق القلوب ، وإن كانت على هدف واحدٍ من حيث الأصل وهو قتل عثمان . لكن الأهواء موزعة مختلفة ، وقد استطاع أن يزرع في نفوسهم الاشتهاء لعلي أو طلحة أو الزبير .

ولنتابع المرحلة الثانية من تحركاتهم المريبة :

(ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر ، وعبد الله بن الأصم ، وقالا : لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا ، فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا ، واستحلوا قتالنا ، ولم يعلموا علمنا ، فهم إذا علموا علمنا أشد ، وإن أمرنا هذا لباطل . وإن لم يستحلوا قتالنا ، ووجدنا الذي بلغنا باطلاً لنرجعن إليكم بالخبر .

قالوا : اذهبا .

---

(١) رواية السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان (وهم شيوخ سيف الأربعة) . الطبري ج٣ ص ٣٨٥ ــ ٣٨٦ .

فدخل الرجلان فلقيا ازواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير وقالا : إنما نأتم هذا البيت ، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ، ماجئنا إلا لذلك .

واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبي ونهى وقال : بيض ما يفرخن !! فرجعا إليهم .

فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا علياً ، ومن اهل البصرة نفر فأتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير . وقال كل فريق منهم : إن بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم ، وفرقنا جماعتهم ، ثم كررنا عليهم حتى نبغتهم .

فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت عليه حلة أفواف ، معتم بشقيقة حمراء يمانية ، متقلد السيف ليس عليه قميص ، وقد سرح الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه ، فالحسن جالس عند عثمان وعلي عند أحجار الزيت . فسلّم عليه المصريون وعرضوا له ، فصاح بهم واطردهم وقال :

لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فارجعوا لاصحبكم الله . قالوا : نعم . فانصرفوا من عنده على ذلك .

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي ، وقد أرسل ابنيه إلى عثمان ، فسلّم البصريون عليه وعرضوا له ، فصاح بهم واطردهم وقال : لقد علم المؤمنون ان جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ .

وأتى الكوفيون الزبير وهو في جماعة أخرى ، وقد سرح ابنه عبد الله إلى عثمان فسلموا عليه وعرضوا له ، فصاح بهم واطردهم

وقال : لقد علم المسلمون ان جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ .

فخرج القوم واروهم أنهم يرجعون ، فانفشوا عن ذي خشب والأعوص حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين . فافترق أهل المدينة لخروجهم .

فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم ، فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة ، فنزلوا في مواضع عساكرهم ، وأحاطوا بعثمان ، وقالوا : من كفَّ يده فهو آمن) (١) .

وهذه هي المرحلة الثانية من المؤامرة :

ابتدات اولاً بمحاولة إدخال أحد العلية من أصحاب رسول الله في المؤامرة ؛ فقبول علي أو طلحة او الزبير الانضمام إليهم يرفع كثيراً من شأنهم ، ومن أجل هذا كان توجيه قيادة الثوار توجيهاً مختلفاً ليحقق هدفاً معيناً بحد ذاته ، فراي المصريين ان تكون البيعة لعلي فإن وافق فسيقاتلون الجميع به .

وكذلك موقف البصريين من طلحة ورأيهم في بيعته .

وكذلك موقف الكوفيين من الزبير ورايهم في بيعته .

فكان ربح واحد من أهل الشورى ـ خاصة المقدمين منهم ـ كفيلاً ان يحقق الهدف المقصود من الإطاحة بعثمان .

---

(١) السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان . الطبري ج٣ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ .

وتوحي الرواية من جانب آخر أن المسلمين في المدينة الذين كانت تتوارد إليهم الأنباء عن تحرك الثائرين ؛ قد أخذوا أهبتهم واستعدادهم .

فكان كل صحابي من قادة المسلمين على جهة من جهات المدينة يمنع دخول الحاقدين : الزبير في فرقة ، وعلي في فرقة ، وطلحة في فرقة .

كما أن الطرف الآخر من التنظيم انصب على أن يكون اولاد الصحابة حول عثمان أمير المؤمنين يحرسونه .

وابتدأت محاولة المتآمرين في جس نبض القادة المرشحين للخلافة .

ولعل علياً وطلحة والزبير كانوا قد تذاكروا فيما بينهم حديث رسول الله ﷺ في لعن جيش ذي خشب والأعوص وذي المروة .

ومن أجل هذا كان الموقف صارماً في منع دخول المتآمرين إلى المدينة ، وفي إعلامهم لعن رسول الله ﷺ لهم علّهم يرجعون عن غيهم ، وفي طردهم وصدهم عن حرم رسول الله .

ولم تختلف إجابة القادة كما لم تختلف مواقفهم ، وطردوا وفود الثائرين عن حرم رسول الله ﷺ .

ولا يبعد أنهم قد بعثوا وراءهم من يتعقبهم حيث وجدوهم قد رحلوا عن اماكن نزولهم ، واطمأن الساهرون على حماية المدينة إلى أن المتآمرين قد رحلوا إلى بلادهم ، أو ثابوا إلى رشدهم ، أو مضوا إلى الحج ، فدلفوا إلى بيوتهم ينعمون بقسط من الراحة .

لكن التخطيط اليهودي الخبيث الذي قال الله تعالى عن أهله : (وإذا خلَوا عَضّوا عليكم الأنامل من الغيظ) ؛ ما كان له

ان يهدأ او ينام ، ولم يكن لابن سبأ أن ينهي الموضوع على هــذه الصورة الباهتة .

وعجز المتآمرون عن جر قادة المسلمين وعامة اهل المدينة أو واحدٍ منهم إلى عسكرهم إلا ما كان من أولئك النفر الثلاثة .

فقرروا غزو المدينة تحت جنح الليل .

فلم يفجأ اهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة .

وأفلت الزمام مــن يد صحابة رسول الله حين أصبــح أمر المدينة بيد الثوار ، واتجه المسلمون إلى عثمان يحمونه ويحيطونه من اي سوء .

(وصلى عثمان بالناس أياماً ، ولزم الناس بيوتهم ، ولم يمنعوا احداً من كلام) .

وتمكن علي رضي‌الله عنه أن يفضح مخططاتهم على أعين‌الناس.

(فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي فقال :

ــ ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟؟!

قالوا : أخذنا مع بريدٍ كتاباً بقتلنا) .

وأتاهم طلحة فقال البصريون مثل ذلك ، وأتاهم الزبــير فقال الكوفيون مثل ذلك .

وقال الكوفيون والبصريون : فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً (كأنما كانوا على ميعاد) .

فقال لهم علي :

(كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة ، بما لقي أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا ؟؟!!

هذا والله أمر أبرم بالمدينة .

قالوا : فضعوه على ما شئتم ..) .

ووجهة نظر علي رضي الله عنه : أن أهل مصر يدعون ويكذبون بمسكهم بريداً بقتلهم ، والكوفيون والبصريون يمنعون إخوانهم المصريين .

من الذي أدرى أهل الكوفة بما لقي أهل مصر ؟!

ومن الذي أدرى أهل البصرة بما لقي أهل مصر ؟

وذلك بعد أن قطعوا مراحل في سفرهم إلى بلادهم . وحتى الآن كل ما أعلنه الثوار أن قصدهم عزل عثمان بن عفان امير المؤمنين رضي الله عنه. (وهو في ذلك يصلي بهم ، وهم يصلون خلفه ، ويغشى من شاء عثمان ، وهم في عينه أدق من التراب ، وكانوا لا يمنعون أحداً من الكلام ، وكانوا زمراً بالمدينة يمنعون الناس من الاجتماع) .

إذاً لقد كانت أوامر قيادة المتآمرين ذات اتجاهين في بادىء الأمر :

الاتجـاه الأول :

هو أن يسمحوا بالكلام ليتعرفوا على نوعيات الناس واهوائهم.

الاتجـاه الثاني :

ولا شك أن في ذلك أوامر مشددة ؛ هو أن تقـوم دوريات مسلحة في أرجاءالمدينة تمنع الناس من اي اجتماع ، وهم يعلمون أن اجتماع اهل المدينة قد يقضي على تنظيمهم وسيطرتهم عليها .

* * *

وإزاء هذا التسلط راى عثمان رضي الله عنه أن اهل المدينة إنما يطلب منهم الانتحار حين يدافعون عن حوزة الإسلام ؛ ولا بد من أمداد من الأمصار تكسر حدة الثوار .

كتب عثمان إلى اهل الأمصار يستمدهم قائلاً :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً ، فبلّغ عن الله ما أمره به ، ثم مضى وقد قضى الذي عليه ، وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه ، وبيان الأمور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا . فكان الخليفة ابو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه ، ثم ادخلتُ في الشورى عن غير علمٍ ولا مسألة عن ملأ من الأمة ، ثم اجمع اهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس عليّ ، على غير طلب مني ولا محبة ، فعملت فيهم مايعرفون ولا ينكرون ، تابعاً غير مستتبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف » .

وعثمان مضطر إلى إعادة هذه النقاط إلى اذهان الأمة ، لأن هؤلاء الناكثين يريدون خلع أمير المؤمنين وعزله .

ثم كان القسم الثاني من الكتاب حول بيان هوية هؤلاء المارقين :

« ... فلما انتهت الأمور ، وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن واهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى ؛ إلا إمضاء الكتاب ، فطلبوا أمراً واعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا عليّ اشياء مما كانوا يرضون ، واشياء عن ملأ من اهل المدينة لا يصلح غيرها) .

وانتقل في رسالته إلى الأمة يحدثهم عن سياسته مع هؤلاء المتآمرين قائلاً :

(فصبرت لهم نفسي ، وكففتها عنهم منذ سنين ، وأنا ارى واسمع . فازدادوا على الله عزوجل جراة حتى اغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه ، وارض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب) .

وغني عن البيان بعد هذا العرض الصراح ان يكونوا كما قال عثمان رضي الله عنه في ختام رسالته :

(فهم كالأحزاب ايـام الأحزاب ، او من غزانا بأُحُدٍ ؛ إلا ما يظهرون ! فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق) .

وبذلك كانت الرسالة شعلة من البارود حركت الأمصـار الإسلامية كلها لإنقاذ المدينة المحتلة .

(فأتى الكتاب أهل الأمصار ، فخرجوا على الصعبة والذلول : فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري ، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حديج السكوني، وخرج من اهل الكوفة القعقاع بن عمرو .

وكان المحضّضين بالكوفة على إعانة اهل المدينة: عقبة بن عمرو وعبد الله بن ابي اوفى وحنظلة بن الربيع التميمي في أمثالهم من اصحاب النبي ﷺ . وكان المحضّضين بالكوفة من التابعين اصحاب عبد الله : مسروق بن الأجدع والاسود بن يزيد وشريح بن الحارث وعبد الله بن عكيم في أمثالهم ، يسيرون فيها ويطوفون على مجالسها يقولون : يا أيها الناس ان الكلام اليوم وليس به غداً ، وإن النظر يحسن اليوم ويقبح غداً ، وإن القتال يحل اليوم ويحـرم غـداً ، انهضوا إلى خليفتكم وعصمة امركم . وقام بالبصرة عمران بن حصين وانس بن مالك وهشام بن عامر في امثالهم من اصحاب النبي ﷺ يقولون مثل ذلك ، ومن التابعين : كعب بن سور وهرم بن حيان العبدي واشباه لهما يقولون ذلك . وقام بالشام عبادة بن الصامت

وابو الدرداء وابو امامة في أمثالهم من اصحاب النبي ﷺ يقولون مثل ذلك . ومن التابعين : شريك بن خباشة النميري وابو مسلم الخولاني ، وعبد الرحمن بن غَنْم بمثل ذلك . وقام بمصر خارجة في أشباه له ، وقد كان بعض المحضِّضين قد شهد قدومهم فلما رأوا حالهم انصرفوا إلى امصارهم بذلك وقاموا فيهم) (١) .

* * *

---

(١) كل ماورد في هذا الفصل هو رواية واحدة للسري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وابي حارثة وابي عثمان . الطبري ج٣ ص ٣٨٥ ــ ٣٨٨ .

أمير المؤمنين يُقتَل

اشتد الأمر في المدينة المنورة شدة بالغة ؛ حتى حرية الكلام صارت ممنوعة بعد حرية الاجتماع من هؤلاء الناقمين :

(فلما جاءت الجمعة التي على إثر نزول المصريين مسجد رسول الله ﷺ خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال :

يا هؤلاء العدى ، الله . الله ؛ فوالله إن اهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فامحوا الخطايا بالصواب ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن . فقام محمد بن مسلمة فقال : انا أشهد بذلك ، فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده . فقام زيد بن ثابت فقال : ابغني الكتاب . فثار إليه من ناحية اخرى محمد بن ابي قتيرة فأقعده ، وقال فأفظع . وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى اخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه ، فاحتمل فأدخل داره . وكان المصريون لا يطمعون بأحدٍ من اهل المدينة ان يساعدهم إلا في ثلاثة نفر ، فإنهم كانوا يراسلونهم : محمد بن ابي بكر ، ومحمد بن ابي حذيفة ، وعمار بن ياسر)(١) .

---

(١) سئل سعيد بن المسيب عن محمد بن ابي حذيفة ما دعاه إلى الخروج على عثمان ؟ فقال : كان يتيماً في حجر عثمان ، فكان عثمان والي ايتام اهل بيته ، ومحتمل كلهم . فسأل عثمان العمل ←

وشمر اناس من الناس فاستقتلوا ؛ منهم : سعد بن مالك ، وابو هريرة ، وزيد بن ثابت ، والحسن بن علي . فبعث إليهم عثمان بعزمه لمّا انصرفوا فانصرفوا . واقبل علي حتى دخل على عثمان ، واقبل طلحة حتى دخل عليه ، واقبل الزبير حتى دخل عليه ؛ يعودونه من صرعته ، ويشكون بثّهم ، ثم رجعوا إلى منازلهم .

لم تعد إمكانية التنظيم ولا إمكانية الحركة، ولا إمكانية الاجتماع مهيأة ؛ هذا من جهة . ومن جهة ثانية يصر امير المؤمنين عثمان على ان لا يراق من اجله قطرة دم قد اتجه قلبه إلى الله تعالى ، وأصر على أن يخرج من الدنيا دون ان يتلوث بشعرة فيها . وهو يرفض في الوقت نفسه ان يكون العوبة بيد المنافقين ، فيسن سنة سيئة

حين ولي فقال : يا بني لو كنت رضاً ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال : فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني . قال : اذهب حيث شئت . وجهزه من عنده وحمله وأعطاه ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغيّر عليه ان منعه الولاية .

قيل : فعمار بن ياسر ؟ قال : كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب ، فضربهما عثمان ؛ فأورث ذلك بين آل عمار وآل عتبة شراً حتى اليوم .

الطبري ج٣ ص ٤٢٨ ، عن السري عن شعيب عن سيف عن عبد الله بن سعيد عن يحيى بن سعيد .

وتعليل عثمان رضي الله عنه لموقف محمد بن أبي بكر انه قد اصابه الإعجاب : (فإنه اعجب حتى رأى أن الحقوق لاتلزمه) .

ولا شك ان للسن اثراً في سلوكه ؛ فلم يكن عمره آنذاك يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر .

لمن بعده ؛ حيث يجعل أمر الخلافة فوضى ، يخلع كل منافق من يخلع ، ويبقي كل سفيه من يبقي ؛ خاصة ولديه اوامر من رسول الله ﷺ تقول له بصراحة لا تقبل الجدل او الشك :

(يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً ، فإذا أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني ـ ثلاثاً ـ) (١) .

وهو في الوقت نفسه يود أن يلقى الله تعالى ولا يحمل في رقبته دم مسلم . وأمام هاتين الصورتين خرج على الناس ذات يوم بعد أن دعا قادة الأمة علياً وطلحة والزبير وغيرهم وقال :

(يا أيها الناس اجلسوا .

فجلسوا جميعاً المحارب الطارىء والمسالم المقيم فقال :

يا أهل المدينة إني أستودعكم الله ، وأسأله ان يحسن عليكم الخلافة من بعدي . إني والله لا ادخل على أحد بعد يومي هذا حتى يقضي الله فيَّ قضاءه ، ولأدعن هؤلاء وما وراء بابي غير معطيهم شيئاً يتخذونه عليكم دخلاً في دين الله او دنيا ؛ حتى يكون الله عز وجل هو الصانع في ذلك ما أحب) (٢) .

وامر أهل المدينة بالرجوع واقسم عليهم فرجعوا إلا الحسن ومحمداً وابن الزبير واشباهاً لهم ، فجلسوا بالباب عن أمر آبائهم وثاب إليهم ناس كثير ، ولزم عثمان الدار (٣) . واعتزل عثمان

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه ، واللفظ لأحمد ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

(٢ـ٣) الطبري عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .

الناس ، وانتظر لعل وفود الأمصار تقدم فتفك الحصار ، وتسقط في يد الثوار مخططاتهم فيستسلمون .

ولكن التخطيط المعادي كان يدرك انه سينتهي لو قدمت الوفود إلى المدينة؛ فقرروا إنهاء الوضع السلبي،والتضييق على أمير المؤمنين ، ثم قتله قبل وصول الأمداد من الأمصار الإسلامية .

(كان الحصار اربعين ليلة ، والنزول سبعين ، فلما مضت من الأربعين ثمان عشرة قدم ركبان من الوجوه ، فأخبروا خبر من قد تهيأ إليهم من الآفاق : حبيب من الشام ومعاوية (بن حديج) من مصر ، والقعقاع من الكوفة ، ومجاشع من البصرة ؛ فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان ، ومنعوه كل شيء حتى الماء .

وطلبوا العلل فلم تطلع عليهم علة ، فعثروا في داره بالحجارة ليَرْمَوا فيقولوا : قوتلنا ـ وذلك ليلاً ـ فناداهم : الا تتقون الله ، الا تعلمون ان في الدار غيري ؟ قالوا : لا والله ما رميناك ، قال : فمن رمانا ، قالوا : الله ، قال : كذبتم ؛ إن الله عز وجل لو رمانا لم يخطئنا وانتم تخطئوننا . واشرف عثمان على آل حزم ـ وهم جيرانه ـ فسرّح ابناً لعمرو إلى علي ؛ بأنهم قد منعونا الماء فإن قدرتم ان ترسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا . وإلى طلحة وإلى الزبير ، وإلى عائشة ، وازواج النبي ﷺ . فكان اوّلهم إنجاداً له علي وأم حبيبة .

جاء علي في الغلس فقال : يا ايها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا امر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي ، وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله ؟

قالوا : لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب .

فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت فيما انهضتني فرجع .

وجاءت ام حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة ، فقيل : أم المؤمنين ام حبيبة ! فضربوا وجه بغلتها فقالت : إن وصايا بني امية إلى هذا الرجل ، فأحببت ان القاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال ايتام وارامل ، قالوا : كاذبة ، واهوَوا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها فتعلقوا بها واخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها .

وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة ، واستتبعت أخاها فأبى ، فقالت : اما والله لئن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلنّ .

وجاء حنظلة الكاتب حتى قام على محمد بن أبي بكر فقال : يامحمد تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان العرب إلى مالايحل فتتبعهم ؟! فقال : ما انت وذاك يا ابن التميمية ؟ فقال: يا ابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبتك عليه بنو عبد مناف وانصرف وهو يقول :

عجبت لما يخوض الناس فيه	يرومون الخلافة ان تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم	ولاقوا بعده ذلاً ذليلاً
وكانوا كاليهود او النصارى	سواء كلهم ضلوا السبيلا

ولحق بالكوفة وخرجت عائشة وهي ممتلئة غيظاً على اهل مصر ، وجاءها مروان بن الحكم فقال : يا ام المؤمنين لو اقمت كان أجدر ان يراقبوا هذا الرجل ، فقالت : اتريد ان يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ، ثم لا أجد من يمنعني ؟! لا والله ولا أعيَّر ، ولا ادري إلى ما يسلم امر هؤلاء .

وبلغ طلحة والزبير مالقي علي وام حبيبة فلزموا بيوتهم ،وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات عليهم الرقباء .

فأشرف عثمان على الناس فقال : يا عبد الله بن عباس ! فدعي له . فقال : اذهب فأنت على الموسم ـ وكان ممن لزم الباب ـ .

فقال : والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إلي من الحج .

فأقسم عليه لينطلقنّ .

فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة .

ورمى عثمان إلى الزبير بوصيته فانصرف بها ـ وفي الزبير اختلاف اادرك مقتله او خرج قبله ـ وقال عثمان :

« يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح .. » الآية . اللهم حلْ بين الأحزاب وبين ما يأملون كما فُعل بأشياعهم من قبل) (١) .

لقد انحصرت المواقف في الجراة الأدبية التي تعلن كلمة الحق ؛ لأنها عاجزة عن استعمال القوة ، ولا يعني استعمال القوة شيئاً إلا ذبح خيار المسلمين وائمتهم ، ليخلو الجو للمنافقين والحاقدين والموتورين .

وكل ما كان يملكه أصحاب رسول الله ﷺ أن يقدموا فلذات اكبادهم فداءً لعثمان امير المؤمنين. اما هم فلو قضوا هلكى فهذا يعني انهم يدعون الأمر لهؤلاء الثائرين يتحكمون ويتسلطون .

---

(١) الطبري ج٣ ص ٤١٧ ـ ٤١٩ السري عن سيف عن أبي حارثة وابي عثمان ومحمد وطلحة .

إنه لا بد لهم ـ من أجل الأمة لا من أجلهم ـ أن يحافظوا على حياتهم وحياة الخليفة ، ويتدبروا الأمر ، ويحشـدوا الجيوش ، ويجندوا الكتائب . فالناس لا تصيخ إلا لهم ولا تسمع إلا لهـم . ولكنهم لا يملكون الآن شيئاً ، وامير المؤمنين عثمان عليه رضوان الله مصرٌ على أن يقابل ربه بلا قطرة دم تراق من أجله ويسأله الله عنها.

* * *

ولنشهد عملية القتل الرهيبة من هؤلاء الحاقدين والمنافقين .

هؤلاء الذين لم يرعوا إلاً ولا ذمة ولا حرمة لأم حبيبة زوج رسول الله ﷺ . هؤلاء الذين لم يرعوا إلاً ولا ذمة ولا حرمة لعليٍ رضي الله عنه ولا لطلحة ولا للزبير رضي الله عنهمـا ، ولا لعائشـة أم المؤمنـين .

ولن يكون لنا منها أكثر من العرض ؛ ففيه ما يدمي القلب ، ويذيب الفؤاد :

(... ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة إلا قتله (أي عثمان) فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ، ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من ابناء الصحابة أقام معهم ، واجتلدوا ، فناداهم عثمان :

الله الله ! انتم في حلٍ من نصرتي ، فأبـوا ، ففتح الباب . وخرج ومعه الترس والسيف لينهنههم ، فلما راوه ادبر المصريون ، وركبهم هؤلاء ونهنههم ، فتراجعوا وعظم على الفريقين ، واقسم على الصحابة ليدخلن ، فأبوا ان ينصرفوا ، فدخلوا ، فأغلق الباب دون

المصريين واتخذ عثمان تلك الأيام القرآن نَحْباً (١) ، يصلي وعنده المصحف ؛ فإذا أعيا جلس فقرأ فيه . وكانوا يرون القراءة في المصحف من العبادة . وكان القوم الذين كفكفهم بينه وبين الباب ، فلما بقي المصريون لا يمنعهم أحد من الباب ولا يقدرون على الدخول؛ جاؤوا بنارٍ فأحرقوا الباب والسقيفة ، فتأجج الباب والسقيفة ، حتى إذا احترق الخشب خرّت السقيفة على الباب ، فثار أهل الدار وعثمان يصلي حتى منعوهم الدخول . . .

واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملؤوها ، ولا يشعر الذين بالباب ، وأقبلت القبائل على أبنائهم ، فذهبوا بهم إذ غلبوا على أميرهم .

وندبوا رجلاً لقتله ، فانتدب له رجل فدخل عليه البيت فقال: اخلعها وندعك !؟

قال : ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ !! ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله عز وجل ، وأنا على مكاني حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء .

فخرج . وقالوا : ما صنعت ؟!

فقال : علقنا والله لا ينجينا من الناس إلا قتله وما يحل لنا قتله ! !

---

(١) نحباً : هماً وعادة .

فأقبل عبد الله بن سلام(١) حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله وقال :

يا قوم،لا تسلّوا سيف الله عليكم، فوالله إن سللتموه لاتغمدوه. ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة ، فإن قتلتموه لا يقم إلابالسيف. ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله ، والله لئن قتلتموه لتتركنها !!

فقالوا : يا ابن اليهودية ، وما انت وهذا ؟!

فرجع عنهم .

قالوا : وكان آخر من دخل عليه ممن رجع إلى القوم محمد بن ابي بكر ، فقال له عثمان : ويلك أعلى الله تغضب ؟! هل لي إليك جرم الاحقه اخذته منك ؟!

فنكل ورجع .

---

(١) اخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام أنه قال ــ حين هاج الناس في امر عثمان ــ : ايها الناس،لا تقتلوا هذا الشيخ واستعتبوه فإنه لن تقتل أمة نبيها فيصلح امرهم حتى يهراق دماء سبعين الفاً منهم ، ولن تقتل امة خليفتها فيصلح امرهم حتى يهراق دماء اربعين الفاً منهم .

فلم ينظروا فيما قال وقتلوه ، فجلس لعلي في الطريق . فقال: اين تريد ؟ فقال: اريد ارض العراق . قال : لا تأت العراق ، وعليك بمنبر رسول الله ﷺ ، فوثب به أناس من أصحاب علي وهموا به . فقال علي : دعوه فإنه منا أهل البيت . فلما قتل علي قال عبد الله ابن معقل : هذه راس الأربعين ، وسيكون على راسها صلح . ولن تقتل امة نبيها إلا قتل به سبعون الفاً ، ولن تقتل امة خليفتها إلا قتل به اربعون الفاً .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

قالوا (أي الرواة) : فلما خرج محمد بن أبي بكر ، وعرفوا انكساره ؛ ثار قتيرة وسودان بن حمران السكونيان ، والفافقي ، فضربه الفافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله ، فاستدار المصحف فاستقر بين يديه وسالت عليه الدماء . وجاء سودان بن حمران ليضربه ، فانكبت عليه نائلة ابنة الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها ، ونفح أصابعها ، فأطنّ أصابع يدها ، وولت فغمز أوراكها وقال : إنها لكبيرة العجيزة . وضرب عثمان فقتله !!

ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه ــ وقد كان عثمان اعتق من كف منهم ــ فلما رأوا سودان قد ضربه ؛ أهوى له بعضهم ، فضرب عنقه فقتله .

ووثب قتيرة على الغلام فقتله ، وانتهبوا ما في البيت واخرجوا من فيه ، ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى . فلما خرجوا إلى الدار وثب غلام لعثمان آخر على قتيرة فقتله ، ودار القوم ، فأخذوا ما وجدوا ، حتى تناولوا ما على النساء ، وأخذ رجل ملاءة نائلة ، والرجل يدعى كلثوم بن تجيب فتنحت نائلة . فقال :

ويح أمك من عجيزة ما أتمك .

وبصُر به غلام لعثمان فقتله وقُتل . . .

وكان الزبير قد خرج من المدينة ، فأقام على طريق مكة لئلا يشهد مقتله . فلما أتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو ؛ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

رحم الله عثمان وانتصر له .

وقيل : إن القوم نادمون . فقال : دبروا دبروا (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) الآية .

وأتى الخبر طلحة فقال : رحم الله عثمان ، وانتصر له وللإسلام . وقيل له : إن القوم نادمون فقال : تباً لهم ! وقرأ : (فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) .

وأُتي علي فقيل : قتل عثمان ، فقال : رحم الله عثمان وخَلَف علينا بخير . وقيل : ندم القوم ، فقرأ : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ...) الآية . وطلب سعد فإذا هو في حائطه وقد قال : لا أشهد قتله. فلما جاءه قتله قال : فررنا إلى المدينة فدنينا!! وقرأ : (الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) . اللهم أندمهم ثم خذهم .

وهاتان الروايتان يكمل بعضهما بعضاً ، ونأخذ منهما لحدٍ ما صورة كاملة عن مقتل عثمان الشهيد رضوان الله عليه ، وهما منقولتان عن مصادر أمينة .

وقد ضربنا صفحاً عن بقية الروايات المختلطة المتناثرة ؛ لأن هذه الروايات مجال شك من حيث سندها ، ومجال شك من حيث متنها .

* * *

إن النفسية التي يحملها عثمان رضي الله عنه يستحيل أن نجد لها مثيلاً في التاريخ كله إلا في زمانه في عصر فجر الرسالة .

إن بعض الحاكمين يسفكون دماء كل الناس لنجاتهم ، ونجد عثمان يرفض أن تراق قطرة دم في سبيله .

لقد عرض عليه أن يعتزل الأمر فرفض ؛ وليس رفضه حباً بالمنصب ، إنما هو تنفيذ لتوجيه رسول الله ﷺ له :

« يا عثمان إذا ألبسك الله قميصاً وأرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه » . وهو يمتنع عن القتال ، ويأمر بكف اليد ، ويحرر غلمانه الذين يلقون سيوفهم التي يدافعون بها عنه ؛ لأن رسول الله أمره بذلك ، فلقد بشر بالجنة على هذا الابتلاء .

وقد وردت هذه البشارة في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يوم استأذن عثمان على رسول الله ﷺ ؛ فقال له :

« ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه »(١) .

وهو الذي قيل له في الدار : يا امير المؤمنين الا تقاتل ؟

قال : لا ، إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً وانا صابر نفسي عليه (٢) .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفضائل .

(٢) روى الامام أحمد قال : حدثنا يحيى عن اسماعيل بن قيس عن أبي سهلة مولى عثمان عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ادعوا لي بعض أصحابي . قلت : أبو بكر ؟ قال : لا . قلت : عمر ؟ قال : لا . قلت : ابن عمك علي ؟ قال : لا . قلت : عثمان ؟ قال : نعم .

فلما جاء عثمان ، قال : تنحَيْ .

فجعل يسارّه ولون عثمان يتغير .

قال أبو سهلة : فلما كان يوم الدار وحضر فيها ؛ قلنا : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟!

قال : لا ، إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً وأنا صابر نفسي عليه .

ولقد رأى رسولَ الله ﷺ في النوم يوم مقتله ، وقال له : (يا عثمان أنت عندنا غداً ، وأنت مقتول غداً) (١) .

فقتل صائماً صابراً محتسباً قبيل غروب الشمس بقليل ، ومضى إلى ربه أنموذجاً خالداً في سجل التاريخ يوم قدم دمه فداءً للمسلمين وهو على مشارف التسعين .

* * *

---

(١) وقد روى كعب بن عجرة قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرّبها وعظمها . قال : ثم مر رجل مقنع في ملحفة فقال : هذا يومئذٍ على الحق ؛ قال : فانطلقت مسرعاً وأخذت بضبعيه ، فقلت : هذا يا رسول الله ؟ قال : هذا ، فإذا هو عثمان بن عفان .

رواه الإمام أحمد وابن ماجه .

عليّ أمير المؤمنين

(بقيت المدينة بعد قتل عثمان رضي الله عنه خمسة أيام واميرها الغافقي بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه .

يأتي المصريون علياً فيختبىء منهم ويلوذ بحيطان المدينة (بساتينها) ، فإذا لقوه باعدهم ، وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة .

ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، فأرسلوا إليه حيث هو رسلاً فباعدهم وتبرأ من مقالتهم .

ويطلب البصريون طلحة ، فإذا لقيهم باعدهم وتبرأ من مقالتهم مرة بعد مرة ، فلما لم يجدوا ممالئاً ولا مجيباً جمعهم الشر على أول من أجابهم . وقالوا : لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة ، فبعثوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا :

إنك من اهل الشورى ، فرأينا فيك مجتمع ، فاقدم نبايعك ، فبعث إليهم : إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال ، وتمثل :

لا تخلطن خبيثات بطيبة   واخلع ثيابك منها وانج عريانا

ثم إنهم اتوا ابن عمر عبد الله فقالوا :

انت ابن عمر فقم بهذا الأمر ؛ فقال :

إن لهذا الأمر انتقاماً(١) ، والله لا أتعرض له ، فالتمسوا غيري.

فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون والأمر امرهم (٢) .

ولما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان رضي الله عنه ؛ جمعوا أهل المدينة فوجدوا سعداً والزبير خارجَين ، ووجدوا طلحة في حائطٍ له ، ووجدوا بني امية قد هربوا .. فلما اجتمع لهم أهل المدينة قال لهم أهل مصر :

انتم أهل الشورى ، وانتم تعقدون الإمامة ، وأمركم عابر على الأمة ، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع .

فقال الجمهور : علي بن أبي طالب نحن به راضون(٣) .

---

(١) لم ينفرد عبد الله بن عمر بهـذا الراي ؛ فعن قيس بن حازم قال : سمعت سعيد بن زيد رضي الله عنه يقول : لقد رأيتني وإن عمر موثقي على الإسلام . ولو انقضّ أحدٌ مما فعلتم بعثمان كان محقوقاً أن ينقضّ . (رواه البخاري)

وعن زهدم الجرمي قال : خطب ابن عباس رضي الله عنهما فقال :

لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء !

رواه محمد بن سعد في الطبقات ، وذكره ابن كثير في تاريخه ، وقد روي من غير هذا الوجه عنه .

(٢) الطبري ج٣ ص ٤٥٤ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان .

(٣) الطبري ج٣ ص ٤٥٥ ، السري عن شعيب عن سيف عن أبي حارثة وأبي عثمان .

(وعن محمد وطلحة قالا) :

فقالوا لهم : دونكم يا أهل المدينة ، فقد أجلناكم يومين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً .

ففشي الناس علياً ، فقالوا : نبايعك ، فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى .

فقال علي : دعوني والتمسوا غيري ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه ، وله الوان لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول .

فقالوا : ننشدك الله الا ترى ما نرى ؟ الا ترى الاسلام ؟ الا ترى الفتنة ؟

الا تخاف الله ؟

فقال : قد اجبتكم لما ارى .

(وكانت لحظة حاسمة في التاريخ الإسلامي ، وعلي رضي الله عنه يدرك خطورة الموقف . فقال بعد لأي :)

ـ واعلموا إن اجبتكم ركبت بكم ما اعلم . وإن تركتموني فإنما انا كأحدكم إلا اني اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه أمركم .

ثم افترقوا على ذلك ، واتعدوا الغد ، وتشاور الناس فيما بينهم ، وقالوا : إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت .

فبعث البصريون إلى الزبير بصرياً وقالوا : احذر لاتحابه ـ وكان رسولهم حكيم بن جبلة العبدي في نفر ـ فجاؤوا به يحدونه بالسيف . وإلى طلحة كوفياً وقالوا له : احذر لا تحابه ، فبعثوا الأشتر في نفر فجاؤوا به يحدونه بالسيف . وأهل الكوفة

وأهل البصرة شامتون بصاحبهم ، واهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة ، وقد خشع اهل الكوفة وأهل البصرة أن صاروا اتباعاً لأهل مصر وحِشوة فيهم ، وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظاً . فلما اصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد ، وجاء عليٌ حتى صعد المنبر فقال : يا أيها الناس عن ملأ وإذن ، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على احد .

فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس .

وجاء القوم بطلحة ، فقالوا : بايع ، فقال : إني إنما ابايع كرهاً ، فبايع — وكان به شلل — أول الناس ، وفي الناس رجل يعتاف فنظر من بعيد ؛ فلما رأى طلحة أول من بايع قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول يد بايعت أمير المؤمنين يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر !!

ثم جيء بالزبير ، فقال مثل ذلك وبايع — وفي الزبير اختلاف — .
ثم جيء بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا : نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزيز والذليل ؛ فبايعهم . ثم قام العامة فبايعوا (١) .

* * *

هذه هي الصورة الناصعة لولاية علي رضي الله عنه .

الجأه الناس إلى البيعة إلجاءً ، ولجؤوا إليه ليحمل لهم مسؤولية الحكم . غشيه أهل المدينة ، وطلبوا منه أن يكون خليفة

---

(١) الطبري ج٣ ص ٤٥٦ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

المسلمين ، فأمهلهم ليتشاوروا في الأمر حتى اليوم الثاني ، فإذا هم مصرون على مبايعته .

والذي بايع علياً رضي الله عنه أهل المدينة ، أهل الحل والعقد، من لهم التولية والعزل ، أما الثوار فقد رفض علي بيعتهم ، ولاذ منهم في حيطان (بساتين) المدينة ، بل وتوعدهم لو كان يملك شيئاً من الأمر .

والمؤكد من هذه الروايات أن بيعة طلحة والزبير كانت بيعة إكراه ولا شك ، قام الناقمون بفرضها عليهم . وكما قال الزبير رضي الله عنه فيما روي عنه :

جاءني لص من لصوص عبد القيس ، فبايعت واللج على عنقي .

وكما روي عن طلحة كذلك ؛ عندما ذهب إليه الأشتر فقال له:

دعني انظر ما يصنع الناس .

فلم يدعه وجاء به يتلّه تلاً عنيفاً ، وصعد المنبر فبايع .

إذاً لا تزال السلطة للثائرين ؛ ومن هنا افترقت وجهة نظر طلحة والزبير رضي الله عنهما عن وجهة نظر امير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وانطلقا يحرضان الناس من الكوفة والبصرة للثأر بدم عثمان .

إنما الغريب في هذا الأمر هو موقف الحاقدين الناقمين ، إنهم يعلمون أن العزل ليس لهم ، وأن تنصيب الخليفة ليس لهم ؛ فكيف يتقدمون ويجترئون على قتل أمير المؤمنين عثمان ؛ اللهم إلا أن تكون تلك اليد اليهودية تحركهم وقت ما تريد وتوقفهم عندما تريد !!

ولكن يمكننا أن ندرك احتمالات أخرى :

لقد حاولوا أن يكون لهم الأمر ويولون من يريدون ، فلم يستجب لهم أحد ، وتنصل منهم أهل الشورى بل وهددوهم ، وهم يعلمون أنه مالم يستجب لهم واحد من هؤلاء فسوف تثور بهم الأرض الإسلامية من كل حدب وصوب ، وسوف يقتلون عن بكرة أبيهم .

فكان لا بد من خليفة ، فاستعملوا سلاح التهديد الرهيب . أرادوا قتل العلية من أصحاب محمد ﷺ جميعهم ليرغموا الناس على اختيار خليفة ، وحققوا ما أرادوه لينقذوا انفسهم من القتل .

لا شك أن الذي يخطط لهم على مستوى من المهارة والدهاء ، بحيث يحقق مأربه ، وينسحب في اللحظة المناسبة .

* * *

وتعترض أمامنا الآن تساؤلات شتى ـ وقد غدا علي أمير المؤمنين ـ :

ماذا يفعل مع هؤلاء الثوار ؟

لنستمع إلى هذا النقاش الهادىء بين علي رضي الله عنه ومستشاريه طلحة والزبير :

(واجتمع إلى علي بعدما دخل طلحة والزبير في عدة من الصحابة :

فقالوا : يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل ، وأحلوا بأنفسهم . فقال لهم :

يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم ؟! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون !!

قالوا : لا

قال : فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله . إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة ، وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدا .

إن الناس من هذا الأمر إن حُرِّك على أمور :

فرقة ترى ما ترون . وفرقة ترى مالا ترون . وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق . فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا(١) .

يبدو أمامنا هنا رأي لعلي رضي الله عنه لم نكن نعلمه من قبل ؛ وهو أن شوكة الثائرين قد قويت ، وانضم إليهم أفواج جديدة من الأعراب والعبدان .

ويمكن أن يحل جزء كبير من المشكلة إذا أمكن تفريق هذا الجمع وتفتيته .

إنه يرى أن قتلة عثمان هم اليد المحركة الخفية التي يجب أن تبتر ، ولن تكشف إلا عندما يتفرق هذا التجمع ، وينفض المغرَّر بهم إلى بلادهم .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٥٨ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

ومن أجل هذا وجدناه في اليوم الثالث من خلافته يصعد على المنبر ويخطبهم قائلاً : يا ايها الناس اخرجوا عنكم الأعراب .

وقال : يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم .

فأبت السبئية ، وأطاعهم الأعراب ، ودخل عليٌ بيته ، ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من اصحاب النبي ﷺ .

ــ علي لطلحة والزبير : دونكم ثأركم فاقتلوه .

ــ عتوا عن ذلك .

ــ هم والله بعد اليوم أعتى وآبى ، وقال :

ولو أن قومي طاوعتني سراتهم امرتهم امراً يديخ الأعاديا

طلحة : دعني فلآتِ البصرة فلا يفجؤك إلا وانا في خيل .

علي : حتى أنظر في ذلك .

الزبير : دعني فلآت الكوفة فلا يفجؤك إلا وانا في خيل .

علي : حتى انظر في ذلك (١) .

لم يكن من السهل على علي بن ابي طالب ان ينظر حوله فلا يرى طلحة والزبير وهما اشد من يعتمد عليهما وعلى مشورتهما .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فهو يعلم أن الظروف التي بايع فيها هذان ظروف غير طبيعية ، فلا شيء يمنع أن ينهجا نهجاً لا يقره ، ويصعب التفاهم بعدها بحجة هذه الظروف .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٥٩ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

ومن جهة ثالثة لا يزال رأي عمر مرتسماً بذهنه ، وهو عدم السماح لكبار الصحابة بمغادرة المدينة ، حتى لا يفتتن بهم الناس ، ويتفرقوا بهم ؛ فتتفرق كلمة المسلمين .

وصدق حدس أمير المؤمنين . فكانت فتنة الجمل(١) التي فتحت نهر الدم على مصراعيه .

* * *

---

(١) كان الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي قد قام بين الفريقين (جيش علي وعائشة) بالوساطة الحكيمة المعقولة ، فاستجاب له أصحاب الجمل ، وأذعن علي لذلك ، وبعث علي إلى طلحة والزبير يقول : إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر ، فأرسلا إليه : (إنـا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين النـاس) . قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧ : ٢٣٩) : فاطمأنت النفوس ، وسكنت واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين ، فلما أمسوا بعث عليّ عبد الله بن عباس إليهم ، وبعثوا محمد بن طلحة السجّاد إلى علي ، وعولوا جميعاً على الصلح ، وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قط ، قد أشرفوا على الهلكة ، واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا مـن الشر ، فغدوا مع الغلس ، وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالاً . (انظر تاريخ الطبري ٥ : ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ومنهاج السنة ٢ : ١٨٥ و ٣ : ٢٢٥ و ٢٤١) .
وهكذا أنشبوا الحرب بين علي وبين الزبير وطلحة ، فظن أصحاب الجمل أن علياً غدر بهم ، وظن علي أن إخوانه غدروا به ، وكل منهم اتقى لله من أن يفعل ذلك في الجاهلية ، فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن ـ العواصم من القواصم من تعليق محب الديـن الخطيب رحمـه الله ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ـ المطبعة السلفية .

مُعَاوِيَة وَأمِيرالمؤمنين

بدأنا بعد غياب طال ، ندلف إلى معاوية رويداً رويداً . وما كان الغياب عنه من قبل إلا من اجل أن تكون قضية الخلاف الأولى بينه وبين علي واضحة أكثر ما يكون الموضوح ، جلية أشد ما يكون الجلاء .

في هذا الجو المكفهر ، تباعد الاجتهاد ، وتشتتت الآراء ، وصار الحليم في الأمة حيرانَ لا يهتدي إلى سبيل . لقد جاءت الفتن تجر بعضها بعضاً !!

(بعث علي عماله على الأمصار : فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة — وكانت له هجرة — وعبيدالله ابن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام .

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل ، فقالوا :

— من انت ؟

— امير .

— على اي شيء ؟؟

— على الشام .

— إن كان عثمان بعثك فَحيهلاً بك ، وإن كان بعثك غيره فارجع .

ـ أو ما سمعتم بالذي كان ؟

ـ بلى .

فرجع إلى علي ...(١)

ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام ، واتته الأخبار ، ورجع من رجع (وكان رسول امير المؤمنين إلى معاوية سبرة الجهني . فقدم عليه . فلم يكتب معاوية بشيء ، ولم يجبه ، ولبث رسوله . وجعل كلما تنجز ـ طلب الانجاز ـ جوابه لم يزد على قوله) :

أدم إدامة حصن أو خذاً بيدي
حرباً ضروساً تَشُبُّ الجَزْل والضرما

في جاركم وابنكم إذ كان مقتله
شنعاءَ شيَّبتِ الأصداغ واللمما

أعيا المسودُ بها والسيدون فلم
يوجد لها غيرُنا مولىً ولا حكما

لقد كان آخر لقاء لنا مع معاوية يوم ودّع المدينة وأوصى علياً وطلحة والزبير بأمير المؤمنين عثمان بن عفان . اما الآن ، فهو يعلنها حرباً شعواء تأكل الأخضر واليابس ،من أجل قتل أمير المؤمنين عثمان وهو سيحمل لواء هذه الحرب ، ولن يغمض له جفن حتى يثأر للخليفة الشهيد .

وكانت الخطوة الثانية من هذا الإعلان الحربي السافر ، رسول معاوية إلى علي (حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٦٢ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

في صفر (سنة ٣٦) ؛ دعا معاوية برجل من بني عبس ، ثم أحد بني رواحة يدعى قبيصة ، فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه : من معاوية إلى علي . فقال له :

إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار .

ثم أوصاه بما يقول وسرّح رسول علي ، وخرجا ، فقدما المدينة في ربيع الأول لغرته . فلما دخلا المدينة رفع العبسي الطومار كما أمره ، وخرج الناس ينظرون إليه ، فتفرقوا إلى منازلهم ، وقد علموا أن معاوية معترض .

ومضى حتى يدخل على علي ، فدفع إليه الطومار ففض خاتمه ، فلم يجد في جوفه كتابة ؛ فقال للرسول : ماوراءك ؟

الرسول : آمن أنا ؟؟

علي : نعم إن الرسل آمنة لا تقتل .

الرسول : ورائي إني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقَوَد (القصاص) .

علي : ممن ؟؟

الرسول : من خَيط نفسك .

وكظم عليٌ انفعاله ، بينما تابع الرسول قوله :

وتركت ستين الف شيخ يبكي تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق .

علي : مني يطلبون دم عثمان ؟! الست موتوراً كتِرة عثمان ؟! اللهم إني ابرأ إليك من دم عثمان . نجا والله قتلة عثمان إلا ان يشاء الله ، فإنه إذا اراد أمراً أصابه .

ثم قال للرسول : اخرج .

الرسول : وانا آمن ؟

علي : وانت آمن .

فخرج العبسي .

وصاحت السبئية : هذا الكلب ، هذا وافد الكلاب ، اقتلوه .

فنادى : يا آل مضر ، يا آل قيس الخيل والنبل .

إني أحلف بالله جلّ اسمه ليردنها عليكم اربعة آلاف خصي ؛ فانظروا كم الفحولة والركاب .

وتعاوَوا عليه ، ومنعته مضر) (١) .

هذه هي الصورة عما جرى في المدينة لدى اهل الشام :

الثائرون قتلوا عثمان ، ولجؤوا إلى علي فبايعوه ؛ فمما لا شك فيه أن هناك تواطؤا بين الثوار وعلي ، وأن له هوىً في قتل ذي النورين .

اما بيعة اهل المدينة فلا يعتد بها لأن الثوار هم المسيطرون على المدينة . فيستطيعون تنفيذ ما يريدون ، وأن يجبروا أهل المدينة على البيعة التي يحبون ؛ لأن سيوف الثوار مسلطة على رقابهم .

ولو كان اهل المدينة قادرين على شيء من أمورهم لأمكنهم حماية عثمان .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٦٤ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

وإن خروج طلحة والزبير وعائشة وهم من كبار أصحاب رسول الله ﷺ ؛ لدليل أكيد على أن أهل المدينة لا يملكون من أمرهم شيئاً ، خاصة وأن بني امية قد هربوا من المدينة قبل أن تتم بيعة علي ، ولم يكن بينهم احد شهد ظروف البيعة ، وتمنّع علي رضي الله عنه عنها عندما كانت في أيدي الثوار ، ولم يشهدوا زحف أهل المدينة إليه ، ورجاءهم الحار له أن يقبل الخلافة ، حتى لا يمكثوا تحت رحمة الثوار ، ولا يبقى المسلمون بدون أمير وتفترق الأهواء وتتشعب الآراء .

لم يشهد الفارون من بني أمية إلى الشام هذه الصورة السليمة النقية التي تشهد لابن أبي طالب بصحة بيعته .

لقد شهد نقلة الخبر إلى معاوية بقتل عثمان ، شهدوا سيوفاً مصلتة على رقابهم وبيت المال منتهكاً مسلوباً من هؤلاء الحاقدين، واصابع نائلة المقطوعة رضي الله عنها ، وشهدوا إرهاباً وتسلطاً حال بينهم وبين دفن عثمان في مقابر المسلمين ــ فلا غرابة أن تنتقل هذه الصورة إلى الشام ، فتتهيج لها النفوس والعواطف وتشتعل القلوب ، خصوصاً وان هذه الصورة لا بد أنها حملت مبالغات وتصورات وأخباراً يصعب تمحيصها . هذا بالإضافة إلى خروج المسلمين في مكة والبصرة . مما جعل الأمر يقبل لدى معاوية اتهام علي رضوان الله عليه بدم عثمان (١) .

---

(١) قلت : هذا استنتاج لا نوافق المؤلف عليه ، ولم يقل به احد من علماء الأمة !! فمعاوية لم يتهم علياً بدم عثمان ، وليس له ذلك ، لكنه اختلفت وجهتا نظرهما في مسألة معاقبة قَتَلة عثمان . متى ، وكيف ، ومن يفعل ذلك ؟ (الناشر)

على أساس هذه القاعدة يمكننا أن نفهم إصرار معاوية رضي‌الله عنه على الحرب للثأر بدم الخليفة الشهيد ، وهو موقف لمعاوية متناسب تمام التناسب مع كل مواقفه السابقة خصوصاً موقفه يوم عرض على عثمان رضي الله عنه المسير إلى الشام ، أو إمداده بجيوش لحمايته في المدينة . إنه موقف طبيعي ومنطقي وانطلاقاً من هذه القاعدة التي ذكرناها . كما أن الظروف مكنته من أن يسبر أغوار المشاغبين الذين كانوا يرسلون إلى الشام من قبل الخليفة الراحل ، لتأديبهم وتوجيههم وعرف يومها أنهم طلاب فتنة لا طلاب حق .

لا غرابة بعد هذا اطلاقاً أن نرى إصرار معاوية ومعه المسلمون في الشام جميعاً ؛ على انتزاع السلطة المغصوبة من الثوار ، والتنكيل بهم جزاء الجريمة التي فاقت كل الجرائم بمقتل الخليفة العظيم .

بل الغرابة أن يكون الموقف غير ذلك .

وهل نتصور أن يتم مقتل امير المؤمنين وسيد المسلمين من حاقدين محتلين متآمرين ، ولا يتماوج العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه للثأر من أصحاب هذه الجريمة البشعة ؟!

وهكذا تجري الأمور عندما تقع في الأمة الفتن فلا يمكن لطرف أن يفهم الطرف الآخر ويلتقي معه ويتعرف على ظروفه وملابساته ودوافعه ، ويكون للعواطف دور كبير في تأزيم القضايا وتعقيد الخلاف .

وهو عقاب الله تعالى للأمة جزاء تقاعسها عن حماية الخليفة الشهيد ، كما قال عبد الله بن سلام :

(ولن تقتل امة خليفتها فيصلح أمرهم حتى يهراق دماء اربعين الفاً منهم) (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : انى هذا ؟ قل هو من عند انفسكم إن الله على كل شيء قدير) .

وما هو موقف علي رضـي الله عنـه من إعلان الحرب مـن معاوية عليه ؟

(.. واحب اهل المدينة أن يعلموا ما راي علي في معاويـة وانتقاضه ، ليعرفوا بذلك رايه في قتال اهل القبلة ، أيجسر عليه او ينكل عنه . وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعـاه إلى القعود وترك الناس ، فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي ــ وكان منقطعاً إلى علي ــ فدخل عليه فجلس إليه ساعة ، فقال علي له :

ــ يا زياد تيسر .

ــ : لأي شيء ؟

ــ تغزو الشام .

ــ : الأناة والرفق امثل .

وانشـد :

ومن لا يصانع في امـور كثـيرة   يضرّس بأنياب ويوطـأ بمنسم

ــ : (فتمثل علي)

متى تجمع القلب الذكي وصارماً   وانفـاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زيـاد على الناس ، والنـاس ينتظرونه ؛ فقالوا : ما وراءك ؟ فقال : السيف ياقوم !!

ودعا علي محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء ، وولى عبد الله ابـن عباس ميمنته ، وعمر بن أبي سلمة او عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ولاه ميسرته ، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح فجعله على مقدمته، واستخلف على المدينة قثم ابن العباس ولم يول ممن خرج على عثمان أحداً .

وكتب إلى قيس بن سعد (١) أن يندب الناس إلى الشام ، وإلى عثمان بن حُنَيف(٢) وإلى ابي موسى (٣) مثل ذلك . واقبل على التهيؤ والتجهز . وخطب اهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة وقال :

(إن الله عز وجل بعث رسولاً هادياً مهدياً بكتاب ناطق وأمر قائم واضح لا يهلك عنه إلا هالك . وإن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله . وإن في سلطان الله عصمة امركم . فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها . والله لتفعلنّ أو لينقلنّ الله عنكم سلطان الاسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إليها . انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يفرقون جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما افسد اهل الآفاق وتقضون الذي عليكم) (٤) .

والذي يستوقفنا في هذا العرض هو خشية أهل المدينة من القتال ، بجانب إيمان علي الذي لا يتزعزع فيه ، وقد ارسلوا إليه زياد بن حنظلة يتعرفون على رايه . ورأي علي واضح لاتحتاج معرفته إلى جهد ، وهو الذي عرض على زياد القتال .

والأمر لا يحتمل لدى أمير المؤمنين التسويف ، ولهذا فقد اختار نماذج طيبة وموثوقة وفتيّة لقيادة الجيش : فعبد الله بن

---

(١) واليه على مصر .

(٢) واليه على البصرة .

(٣) كان ابو موسى على الكوفة من قبل عثمان وأقره علي بادىء ذي بدء .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٤٦٥ ، السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة .

عباس حبر الأمة للميمنة ، وابن ام المؤمنين ام سلمة للميسرة ، وابن اخي امين الأمة للمقدمة ، واللواء لابنه محمد بن الحنفية ، وجعل واليه على المدينة قثم بن العباس رضي الله عنهما ـ وهذه كلها نوعيات نظيفة لم تتلوث من قريب أو بعيد بدم امير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ؛ ومن اجل هذا وجدنا الراوي يشير إلى ان امير المؤمنين علياً لم يولِّ ممن خرج على عثمان احداً .

إنه منهج إسلامي لدى ابن عم رسول الله ، إنه لا يؤمن بالمساومة والالتواء ، فبالرغم من سطوة قتلة عثمان وسلطتهم ، وبالرغم من أن الإرهاب منهم لا يزال له مجراه ؛ لكن امير المؤمنين رفض أن يلوث حكمه والولاية عنده بمن شارك بدم عثمان بشيء . وطلب في الوقت نفسه الأمداد من الولايات الإسلامية . إنه يطمع ان يغزو الشام بأكبر جيش ممكن يضطر به اهل الشام إلى الدخول في طاعته دون إراقة دماء ، وليس امام امير المؤمنين إلا القتال .

فرسول علي إلى الشام ، ورسول الشام إلى علي يتحدثان عن الحرب الضروس التي تشبُّ الجزل والضرم ، ويتحدثان عن ستين الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، يعاهدون الله على الثأر للخليفة الشهيد .

إن غزو الشام قبل أن يستجمع قواته ، ويتمكن من إشعال الفتنة ؛ هي الخطة التي رآها علي مناسبة ، املاً بأن تحقن الدماء ، ويعود الباغون إلى حظيرة الحق . ومعاوية رضي الله عنه يعبىء القوى كلها لنصرة الحق ، والثأر للخليفة الشهيد من السفاكين المارقين . وهكذا يمضي كلا الفريقين إلى القتال .



عمرو بن العاص في المعركة

من بين الروايات الكثيرة عن دخول عمرو بن العاص المعركة بجانب معاوية نأخذ رواية أوثق رواة الطبري : السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وابي حارثة وأبي عثمان ؛ قالوا :

لما احيط بعثمان رضي الله عنه خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام وقال : والله يا أهل المدينة ما يقيم بها احد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عز وجل بذل ، ومن لم يستطع نصره فليهرب .

(وهو راي عبد الله بن عباس . وهو الذي قال لعثمان ان قتال هؤلاء المارقين اكثر اجراً عند الله من إمارة الحج التي كلفه بها) .

فسار (اي عمرو) وسار معه ابناه عبد الله ومحمد ، وخرج بعده حسان بن ثابت ، وتتابع على ذلك ما شاء الله .

(.. وبينا عمرو بن العاص جالس بعجلان (اسم مكان) ومعه ابناه إذ مر بهم راكب .

فقالوا : من اين ؟؟

الراكب : من المدينة .

عمرو : ما اسمك ؟

الراكب : حصيرة .

عمرو : حصر الرجل ، فما الخبر ؟!

الراكب : تركت الرجل محصوراً .

عمرو : يقتل .

ثم مكثوا اياماً ، فمر بهم راكب ، فقالوا : من اين ؟ قال : من المدينة ، قال عمرو : ما اسمك ؟ قال : قتال ؛ قال عمرو : قتل الرجل . فما الخبر ؟

قال : قتل الرجل ، ثم لم يكن إلا ذلك إلى ان خرجت .

ثم مكثوا أياماً فمر بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة . قال عمرو : ما اسمك . قال : حرب . قال عمرو : يكون حرب . فما الخبر ؟؟

قال : قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبويع لعلي بن أبي طالب .

قال عمرو : انا ابو عبد الله يكون حرب من حك فيها قرحة نكأها . رحم الله عثمان ورضي الله عنه ، وغفر له .

قال سلامة بن زنباع الجذامي :

(يا معشر قريش ، إنه والله قد كان بينكم وبين العرب باب . فاتخذوا باباً إذ كسر الباب) .

إنها دعوة إلى الاجتماع على خليفة للمسلمين .

فما هي وجهة نظر عمرو في هذا الموضوع ؟؟

إنه مقتنع بعودة الخلافة ، لكن بغير الصورة التي تمت بها والثوار يحتلون المدينة ، لا بد من العودة بالأمور إلى نصابها وتكون الخلافة شورى بعد ذلك ، وهي وجهة نظر معاوية . ولم يعرف

عمرو كيف تمت خلافة علي ، ومن أجل هذا أعلن عمرو كذلك نذر الحرب فقال :

(وذاك الذي نريد ، ولا يصلح الباب إلا أشافٍ تخرج الحق من حافرة البأس ، ويكون الناس في العدل سواء ...) .

لا بد من أن يخرج الحق من منطق الضغط والإكراه ومن مخالب القوة .

لا بد أن تكون الخلافة ، ولا ظل أو سلطان للثائرين المحتلين للمدينة .

واعتصرت قلبه الأحزان على الخليفة الشهيد . وكيف تمت هذه المأساة ، وكأن القوم مخمورون !! فقال :

يـا لهـف نفسي عـلى مالـك	وهل يصرف اللهف حفظ القدر
أنـزع مـن الحـر أودى بهـم	فأعذرهـم أم بقـومي سكـر

ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة ويقول : واعثماناه ! أنعي الحياء والدين ! حتى قدم دمشق .

* * *

وهنا لابد من الحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ــ ونحن بصدد الحديث عن معاوية ــ فلقد كان عمرو من أبرز العناصر التي قادت الأمة في تلك الفترة ، وهو الشخصية الثالثة دون منازع بعد علي ومعاوية رضوان الله عليهما . ولا أدل على ذلك من أن الخوارج عندما أرادوا ــ على تصورهم القاصر ــ القضاء على قادة المسلمين ، اختاروا هؤلاء الثلاثة ليقتالوهم ، وهم : علي ومعاوية وعمرو رضي الله عنهم .

ومعالم شخصية عمرو محددة : فهو ذو بصر نفاذ ، بعيد الغور ، يتريث ويترقب عندما تكون الأمور غامضة ، والحوادث

مشتجرة متكاثفة ، ويمضي لهدفه بعد أن يستجلي الأمور التي يسبر غورها ، ويدرك مآلها قبل غيرها ، وهنا يبرز دهاؤه وتكمن عبقريته .

لقد رأى ريح الفتنة تهب عاتية ، وروائحها تفوح ، فلخص الموقف بكلمة واحدة : (والله يا أهل المدينة مايقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله عزوجل بذل ، ومن لم يستطع نصره فليهرب) .

لقد رأى ببصره الثاقب أن لاقِبَلَ لأحدٍ بهؤلاء العتاة ولا طاقة . وإن الإقامة في المدينة والأيدي مكتفة ، والنفوس حبيسة ، هو تلوث" بهذه الفتنة ومسؤولية . والنجاء والهرب يمكن أن يخفف شيئاً من جسامة المسؤولية ورهبتها حيث لايكون حل" إلا النجاء.

لقد مضى يترقب الأمور ويتابعها ، وكأنه هو الذي رسمها لشدة وعيه بما يجري ، فمن الحصار إلى القتل إلى الحرب . وكان مقتل عثمان كافياً لأن يحرك كل غضبه على أولئك المجرمين السفاكين. وكان لابد من اختيار مكانٍ غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرؤوا على حرم رسول الله وقتلوا خليفته على أعين الناس .

وأي غرابة أن يثور عمرو لعثمان ؟ بل الغريب أن لايثور ، وإن كان هناك من يشكك في هذا الموضوع فمداره على الروايات المختلقة أو المكذوبة التي تصور عمراً كل همه السلطة والحكم .

إن التنظيم الدقيق دائماً هو الذي يغلب عامة الناس ودهماءهم حتى لو كان فيهم العالم النحرير ، والبطل الشجاع . وأمر المدينة لم يكن إلا كذلك .

فأي انقلاب عسكري يأتي ــ كما نشهد في أيامنا المعاصرة ــ يطيح بالحكم القائم. وللحكم جنوده وجيوشه ، وخاصة في العاصمة.

لقد كان العمل ضد الثوار في المدينة من المستحيل ان ينجح او يحقق هدفه ، فكان لابد من العمل خارج المدينة ، وليس عمرو ابن العاص وحده الذي اقتنع بذلك ، وليس وحده الذي عجز عن أن يفعل شيئاً فيها . فلقد كان من هو أقدم منه سابقة ، وأعظم منه شجاعة ، وعجز عن ان يفعل شيئاً تجاه هذه الحركة المحتلة . إن طلحة والزبير وعائشة كانوا عاجزين عن فعل شيء في المدينة فاختاروا مكة ثم البصرة والكوفة . وإن علياً رضي الله عنه كان عاجزاً عن فعل شيء في المدينة لحماية امير المؤمنين عثمان ، وكان تصوره عن طبيعة العمل ضد الثوار يتم من خلال مبايعة الولايات لـه . ثم تقديمها الأمداد له للتخلص من هؤلاء البغاة المتسلطين .

لم يكن غريباً إذاً ابداً ان يغادر عمرو المدينة حتى لا يلحقه ذل السكوت على حصار الخليفة الشهيد . وليس غريباً ان يمضي إلى معاوية ؛ فمعاوية قادر بما مكن الله له في قلوب أهل الشام من أن يحرك الكتائب للثأر للخليفة المقتول ، وقد تواردت الأنباء إليه بعزم معاوية . فكان أن مضى إليه وانضم له ؛ وهدفه بيّن ، وغايته مرسومة ، ندرك ذلك بقراءتنا لهذين البيتين اللذين تمثّل بهما :

يـا لهف نفسي على مـالك
وهل يصرفُ اللهفُ حفظَ القَدَرْ

انَزْعٌ من الحَرِّ أودى بهم
فاعْذِرَهم ام بقومي سَكَرْ

إنه يرى أن اللهفة لاتجدي ، وان الغافلين كأنهم سكارى ، ولا بد ان يفيقوا وليحمل هو هذا اللواء .

وهكذا كان مجيء عمرو للشام هو الشيء المنطقي والمعقـول نظراً لإدراكه أبعاد المؤامرة ، ولأن معاوية ــ وهو قريب عثمان في

النسب ـ غدا مركز التجمع بعد ان فر بنو امية إليه ، وغدت الشام بذلك مركز من يريد الثأر لعثمان ، ففيها قميصه واصابع نائلة زوجه ، يرفعان على منبرها ، ويثيران حفائظ الناس .

واين يمضي عمرو بن العاص إن لم يمض إلى الشام ؟

إن الذين قتلوا أمير المؤمنين عثمان ثوار أتوا من الكوفة والبصرة ومصر . إن الشام وحدها من بين الولايات المجاورة هي التي بقيت على الولاء التام لأمير المؤمنين عثمان . وكان وجود معاوية فيها وضبطه للأمر ، وقطعه دابر الفتنة يجعل كل الأنظار تتجه إليها . والنجاح السياسي العظيم الذي حققه معاوية فيها خلال ستة عشر عاماً قمين أن يربط الأمة هناك بقائد حكيم كمعاوية .

ومع ذلك فلم تكن عملية تحريك الناس لقتال قتلة عثمان بالأمر السهل ؛ يفسر لنا هذا الرأي مالجأ إليه معاوية رضي الله عنه من وضع القميص على منبر دمشق مع أصابع نائلة رضي الله عنها فترة طويلة ليستثير الغضب ، ويصوب الأنظار إلى انه ولي دمي عثمان ، ويدفع بالناس إلى قتال هؤلاء المارقين المعتدين .

اما مضي طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام رضي الله عنهما إلى البصرة والكوفة فله جذور ليست قائمة عند عمرو بن العاص . فللزبير شيعته بالكوفة ، ولطلحة شيعته بالبصرة . فهناك الأنصار والأمداد التي يمكن ان تحرك المؤيدين للقتال .

ولم يحتلّ هذان الصاحبان مركزهما من ولاية تولياها ، إنما احتلاه من جهاد عريق في الإسلام ؛ بجانب إقامة معينة هناك هيأت لهما هذا النفوذ . وإن كنا لا نستطيع ان ننفي ان دعاة الفتنة قد شجعوا هذه التبعيات للقادة من الصحابة ، ليفترق أمر المسلمين شيعاً واحزاباً .

أما عمرو فإنه وإن كان والياً على مصر فقد عزل عنها وتولى بعده ولاة عديدون ؛ إضافة إلى ان مصر قد تحرك الثوار منها لقتل عثمان امير المؤمنين . إنه يمكن أن يفعل شيئاً هناك لو كان لديه سلطة رادعة او ولاية معينة يستطيع أن يتصرف من خلالها ، ولقد فعل الكثير الكثير عندما استلم الولاية .

فإذن ليس له أرضية يستند إليها كما كان لدى طلحة والزبير في الكوفة والبصرة .

وعامل أخير يرد ذكره كذلك ؛ هو الصداقة الوطيدة القائمة بين معاوية وعمرو بن العاص .

لقد أمضيا في جيش الشرك ، وفي صف واحد ضد الدعوة قرابة عشرين عاماً .

ولقد عادا إلى اللقاء ثانية تحت لواء الإسلام في الشام في كل ربوعها : في الأردن وفلسطين ودمشق .

فالمعرفة قائمة ، وكل منهما يفقه الآخر ، ويمكن أن يؤثر ويتأثر في الوقت نفسه .

وبقي أمامنا السؤال الأخير :

الم يكن بإمكان عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يمضي إلى المدينة ، ويبايع علياً رضوان الله عليه ؟

نعم كان يمكنه ذلك ، ولكن ما قلناه عن معاوية يقال عن عمرو .
لم يحضر عمرو بيعة علي ، ولم ير إجماع المهاجرين والأنصار على تلك البيعة ، وقد شهد جو المدينة المخنوق ، وسيطرة الثوار على المدينة بالقوة ، وقتلهم خليفة المسلمين دون أن يجرؤ أحد على أن يقف في وجوههم ، ما عدا الفدائيين من ابناء الصحابة : الحسن والحسين ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم .

بل وبلغه كيف دفن عثمان ، وكيف نهب بيت المال .

فلا يمكن أن يتصور أن بيعة علي رضي الله عنه قد تمت بظروف طبيعية وسليمة .

وإذا كان علي رضي الله عنه قد وجد عذراً لطلحة والزبير حين ذكرا بيعتهما مكرهين ولم يردّ عليهما هذا الموقف ، وعذر سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، عن عدم البيعة وهما في المدينة ؛ فما بالك بالذي لم يحضر البيعة مطلقاً ، وإنما تتوارد إليه الأخبار التي قد ينالها التهويل والمبالغة عن المدينة وأحوالها وسيطرة الثوار عليها ؟ !

كل هذه العوامل تؤكد أن عمراً ليس فقط من المنطقي والمعقول أن يمضي إلى الشام ويطالب مع المطالبين بدم عثمان ، بل لم يكن أمامه إلا طريق واحد هو طريق الشام للثأر من قتلة الخليفة المظلوم.

أما الرواية المتداولة التي تشير إلى أنه استدعى ولديه محمداً وعبد الله ، واستشارهما ، فأشار عبد الله عليه بالانضمام إلى علي فقال له : إنك اخترت لي آخرتي ، وأشار عليه ابنه محمد أن ينضم إلى معاوية ؛ فقال له : اخترت لي دنياي ، ثم اختار دنياه على آخرته ـ فهي رواية ضعيفة السند ؛ لذا لا يعوّل عليها (١) .



---

(١) قلت : وأيضاً فمتن هذه الرواية منكر مرفوض ، فعمرو ابن العاص الذي سر النبي ﷺ كثيراً بإسلامه ، وقال عنه كما في الحديث الصحيح : « أسلم الناس وآمن عمرو » ؛ عمرو هذا لم يكن بالرجل الذي يقامر بمصلحة دينه وأمته من أجل منصب. وهذه أخلاق تبرأ منها الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، وسيرة عمرو بعد إسلامه تنفيها .　　　(الناشر)

مَأسَاة صِفِّين

(لما بلغ معاوية سير علي سار معاوية نحو علي ، واستعمل على مقدمته سفيان بن عمرو أبا الأعور السلمي ، وعلى الساقة بسر ابن أبي أرطاة حتى توافوا جميعاً سائرين إلى جانب صفين)(١) .

(وقد اقتتلوا في مدة شهر ذي الحجة كل يوم ، وفي بعض الأيام ربما اقتتلوا مرتين ، وجرت بينهم حروب يطول ذكرها (٢) ، والمقصود أنهم لما دخل شهر المحرم تحاجز القوم رجاء أن يقع بينهم مهادنة وموادعة يؤول أمرها إلى الصلح بين الناس وحقن دمائهم)(٢)

---

(١) رواه ابن ديزيل من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر ويزيد بن الحسن بن علي . وقد اختلفوا في جابر الجعفي : وثقه الثوري وضعفه آخرون ، وبقية الرواة ثقات .

(٢) أورد ابن جرير الطبري هذه الحروب وكلها عن طريق أبي مخنف الشيعي . قال عنه الحافظ الذهبي : أبو مخنف أخباري تالف لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره . وقال فيه ابن عدي : شيعي محترق صاحب أخبارهم .

ومن جهة ثانية فلم يرو السري عن شعيب عن سيف ـ أوثق رواة الطبري ـ شيئاً من هذه الحروب ؛ ومن أجل هذا أعرضنا عن تفصيلها .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٨/٧ .

(فأقاموا يتراسلون في ذلك (١) ويقرعون في غضون ذلك القرعة بعد القرعة ، ويزحف بعضهم على بعض ، ويحجز بينهم القراء فلا يكون قتال . قال : فقرعوا في ثلاثة أشهر خمسة وثمانين قرعة) (٢) .

(قال : وخرج أبو الدرداء وأبو أمامة فدخلا على معاوية فقالا له :

يا معاوية علام تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاماً ، واقرب منك إلى رسول الله ﷺ ، وأحق بهذا الأمر منك ! !

فقال : أقاتله على دم عثمان وأنه آوى قتلته ؛ فاذهبا إليه فقولا له فليقدنا من قتلة عثمان ثم أنا أول من بايعه من أهل الشام .

فذهبا إلى علي ، فقالا له ذلك .

فقال : هؤلاء الذين تريان .

فخرج خلق كثير فقالوا :

نحن قتلة عثمان . فمن شاء فليرمنا .

---

(١) أورد ابن جرير تفاصيل المراسلات ، وقد اعرضنا عن ذكرها للسبب نفسه . لأن مصدرها الوحيد هو أبو مخنف الشيعي وفيها قدح بجانب معاوية رضي الله عنه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٢٦٠ .

فرجع ابو الدرداء وابو أمامة ، فلم يشهدا لهم حرباً) (١) .

لقد كانت وجهة نظر الصحابيين الجليلين سديدة ، فهما لايشكان أن أمير المؤمنين علياً على الحق ؛ لكن وجود هذه الأعداد الكثيرة من الألوف العديدة تصر على أنها من قتلة عثمان كان كابحاً لهما عن أن يشتركا في الحرب مع أحد الفريقين .

ومضى وفد من علي إلى معاوية رضي الله عنهما ، كما جاء وفد من معاوية إلى علي ، وتدخّل القراء في محاولة نهائية للإصلاح.

فقد ورد من غير وجه أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له :

انت تنازع علياً أم انت مثله ؟

فقال : والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل ، واحق بالأمر مني ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنا ابن عمه ، وأنا أطلب بدمه ، وامره إلي ؟! فقولوا له فليسلم إلي قتلة عثمان ، وأنا أسلم له أمره .

---

(١) أورده ابن ديزيل . وقد أورد الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ ما يلي : ابن ديزيل الحافظ الرحال أبو إسحاق إبراهيم ابن الحسين الكسائي الهمذاني المتوفى سنة ٢٨١ هـ . قال صالح بن احمد محدث همذان : سمعت علي بن قيس يقول : الإسناد الذي يأتي به ابن ديزيل لوكان فيه أن لايؤكل الخبز لوجب تركه لصحة إسناده ! ويلقب بدابة عفان وبسفينته ؛ وسفينة طائر لا يحط على شجرة .

وقد وردت هذه الرواية في البداية والنهاية لابن كثير٧/٢٦٠ .

فأتوا علياً فكلموه في ذلك ، فلم يدفع إليهم أحداً . فعندئذ صمم أهل الشام على القتال مع معاوية (١) .

لم يقتنع أي من الفريقين بوجهة نظر الآخر ، ولو كانت القضية خلافاً على الدنيا ورغبة في مطامعها ، لتقاسم الفريقان النفوذ في الدولة الإسلامية ، ومضى كل منهما في حال سبيله .

إن القضية ليست قضية حكم ، وشهوة تسلط ، وليست قضية صراع على مغانم ومكاسب ، إن الأمر أعمق من ذلك بكثير ؛ إنها قضية عقيدة يجب ان تسود ، وأول معالم سيادة عقيدة الإسلام هو : أن لا يكون خليفتان في وقت واحد . إن منطق الإسلام الجماعي يرفض الفرقة والانفصال رفضاً باتاً .

ومن أجل هذا قدم علي رضي الله عنه البيان الأول للحرب :

(الا إن أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله عزوجل ، ودعوتكم فلم تناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى الحق ، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لايحب الخائنين . .) .

أما تعليمات الحرب الإسلامية فهي :

(لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم . فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم : فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل . فإذا وصلتم إلى رحال القوم : فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئاً من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص١٢٩ .

أموالهم إلا ماوجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امراة بأذى، وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهن ضعاف القوى والأنفس !!) (١) .

ومتى كان هذا الموقف ؟

كان بعد مرور ثمانية أشهر في محاولة دائبة للصلح ، لكن دون جدوى . فلم تأت الحرب اندفاعاً أو عصبية او عاطفة ، او جزافاً . لقد جاءت عن بصيرة ويقين وإصرار يوم لم يكن بد من الحرب ، أو فرقة الكلمة وتمزق الأمة .

ونحن لن نخوض في تفاصيل الحرب (٢) ، إنما يهمنا بواعثها وأهدافها ، ولكنا سنعرض بلمحة عامة عن خطواتها :

١ ــ ابتدأت حروب جانبية بين فصائل الجيشين خلال شهر ذي الحجة بكماله .

وكانت هذه الحروب بعد الاختلاف على الماء . والرواية الصحيحة التي تحدثنا عن الخلاف على الماء هي رواية أبي الصلت الحضرمي التي يقول فيها :

حلنا بين أهل العراق وبين الماء ، فأتانا فارس ثم حسر ، فإذا هو الأشعث بن قيس فقال :

اللهَ اللهَ يا معاوية في أمة محمد ﷺ .

---

(١) الطبري ج٤ ص٦ من رواية ابي مخنف عن عبد الرحمن ابن جندب الأزدي . وقد قبلنا هاتين الروايتين لاتساقهما مع المنهج الإسلامي في الحرب بين المسلمين .

(٢) لأن كل تفصيلاتها من رواية ابي مخنف ، وقد رأينا رأي علماء الرجال فيه .

هَبْوا انكم قتلتم أهل العراق ، فمن للبعوث والذراري ؟!

أم هَبْوا انا قتلناكم فمن للبعوث والذراري ؟

إن الله تعالى يقول :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى امر الله » .

قال معاوية : فماذا تريد ؟

قال : خلوا بيننا وبين الماء .

فقال لأبي الأعور : خَلِّ بين إخواننا وبين الماء (١) .

٢ ـ عادت الهدنة ثانية والمراسلات خلال شهر المحرم من العام الجديد .

٣ ـ احتدمت الحرب بعنف يوم الأربعاء اول صفر سنة ٣٧ واستمرت في هولها حتى يوم الثلاثاء دون أن يظهر احد من الفريقين على الآخر فقد كانا متكافئين .

٤ ـ كان يوم الأربعاء الثامن من صفر على أشد هول ، وذلك بعد تعبئة كاملة من الجيشين حيث كان الاصطدام كاملاً ، وتم فيه إحراز النصر من اهل العراق على اهل الشام .

٥ ـ واستمر القتال على عنفه وشدته ؛ حيث استطاع أهل الشام ان يشنوا هجوماً معاكساً ويكشفوا ميمنة جيش علي رضي

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢ ص ٢٧ وسند هذه الرواية ابو المغيرة الخولاني وهو ثقة وصفوان بن عمرو وهو ثقة .

الله عنه حتى إنه لم يبق مع امير المؤمنين فيها غير ثلاثمائة وكذا قبيلة ربيعة التي ثبتت معه رضي الله عنه ، وفي هذه المرحلة من الحرب كان مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه .

٦ ــ واستمر القتال عنيفاً شرساً حتى يوم الجمعة حيث استعاد جيش امير المؤمنين قوته ، وتفانى في جهاده ، وصار قاب قوسين او ادنى من النصر !!

٧ ــ لم يكن الفرار ممكناً من أيٍّ من الطرفين ؛ لأن كل طرف واثق بحقه ، واستمرار القتال يعني فناء المسلمين جميعاً . وهنا نبتت فكرة رفع المصاحف وتحكيم الكتاب من القراء (١) .

اما قصة التحكيم فيحدثنا عنها الإمام احمد رضي الله عنه فيما رواه عن حبيب بن أبي ثابت قال :

اتيت ابا وائل في مسجد اهله اسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بالنهروان فيما استجابوا له ، وفيم فارقوه ، وفيما استحل قتالهم ؟ فقال :

كنا بصفين فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتلٍّ ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية :

أرسل إلى علي بمصحف فادعه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك . فجاء به رجل فقال : بيننا وبينكم كتاب الله .

(الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) .

---

(١) اخذ هذا التلخيص بدقة عن البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٢٦٠ ــ ٢٧٥ وعن الطبري ج٤ ص ٦ ــ ٣٤ .

فقال علي : نعم انا اولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله (١) . .

واما الرواية التي تشير إلى ان عمرو بن العاص قد دعا إلى المصاحف خدعة يخدع بها المؤمنين ، وأن علياً حذرهم من ذلك ؛ فهي رواية مكذوبة (٢) .



---

(١) روى الإمام احمد هذا الحديث عن يعلى بن عبيد ، عن عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبي ثابت .

وقد ورد في ترجمتهم في تقريب التهذيب ما يلي :

يعلى بن عبيد : ثقة إلا في حديثه عن الثوري ففيه لين .

عبد العزيز بن سياه : صدوق يتشيع .

حبيب بن أبي ثابت: ثقة فقيه جليل كثير الإرسال والتدليس.

وإذا نحن وصلنا في رواية تاريخية إلى هذا النوع من الروايات فقد حصلنا على كنز عظيم . فرواة التاريخ غير رواة الحديث . ونتمنى أن تكون رواياتنا كلها على هذا المستوى .

(٢) رواة الرواية المذكورة هم : أبومخنف ، عن أبي جناب الكلبي ، عن عمارة بن ربيعة الجرمي. قال عنهم الذهبي في الضعفاء:

أبو مخنف لوط بن يحيى : ساقط ، تركه ابو حاتم ، وقال الدارقطني : ضعيف .

أبو جناب الكلبي : قال ابو زرعة : صدوق مدلس ، وقال النسائي : ضعيف . وقال يحيى بن سعيد القطان : لا أستحل ان اروي عنه .

رسول الله يتحدث عن المعركة

لئن فقدنا راوية أميناً ينقل لنا تفاصيل الحرب كاملة واتجاهاتها، فإن رسول الله ﷺ امين الله في خلقه يحدثنا عنها فيغنينا عن رواية الخلق أجمعين .

ولقد تناول الحديث النبوي الحرب من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : ذكرها وتحديد زمانها .

وذلك فيما رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما عن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال :

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يقتل بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة) (١) .

فلقد حدد رسول الله ﷺ القتال بهذه الأعداد الهائلة التي تجاوز بها المؤرخون مئتي الف من الشام والعراق .

---

(١) رواة البيهقي لهذا الحديث هم : يعقوب بن سفيان ثقة حافظ . أبو اليمان الحكم بن نافع ثقة ثبت . صفوان بن عمرو ثقة (تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني) .

قلت : بل هذا الحديث في أعلى مراتب الصحة ، فقد اتفق عليه البخاري ومسلم . (الناشر)

أما المقتلة العظيمة فهي شيء رهيب حقاً .

فقد روى البيهقي عن صفوان بن عمرو قوله :

(كان أهل الشام ستين الفاً ، فقتل منهم عشرون الفاً . وكان أهل العراق مائة وعشرين الفاً فقتل منهم اربعون الفاً) .

فأي مقتلة بين فئتين عظيمتين دعواهما واحدة تفوق هذا العدد ؟! ويكفينا رسول الله ﷺ حكماً على المعركة انه قال عن الطرفين : دعواهما واحدة .

فهم أصحاب عقيدة واحدة ودين واحد ، فدعواهما واحدة .

وقد حمل الإمام البيهقي هذه الوقعة على الحديث السابق كما ذكر ابن كثير في تاريخه (١) .

فأي محاولة ماكرة لإدخال الهوى في هذه المعركة ، او محاولة اتهام أحد الطرفين بقصد الباطل وشهوة التسلط والحكم ؛ هو اتهام باطل ، لأن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن دعوى الفريقين واحدة .

وحدد رسول الله ﷺ ثانياً : الفريق الذي اصاب الحق .

وذلك فيما رواه الإمام احمد عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة ؛ تمرق بينهما مارقة يقتلها أولاهما بالحق) . وإسناده حسن .

وفي رواية اخرى عن الثوري عن ابن جدعان عن ابي نضرة عن ابي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص ٢٧٥ .

(لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعوتهما واحدة . فبينما هم كذلك مرق منهما مارقة تقتلهم أولى الطائفتين بالحق) (١) .

واهمية هـذا الحديث هو انه يؤكد بأن المقصود في هاتين الفئتين العظيمتين هما جيش علي وجيش معاوية رضي الله عنهما ، لأنه جمع بين قتال الفئتين وبين خروج الخوارج ـ الفئة المارقة ـ والتي يقاتلها اولى الطائفتين بالحق . وقد قاتل علي رضي الله عنه الخوارج ، هذه الفئة المارقة التي خرجت عليه وعلى معاوية . فهو الأولى بالحق .

هذا وهناك رواية منفصلة عن الفئة المارقة دون أن تربطها بالمقتلة العظيمة عند عدد من ائمة الحديث هي :

(تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق) .

ورواية ابي داود الطيالسي في مسنده : تكون فرقة بين طائفتين من امتي ، تمرق بينهما مارقة تقتلها اولى الطائفتين بالحق .

اما رواية الإمام مسلم رضي الله عنه فهي :

(تكون في أمتي فرقتان ، فتخرج من بينهما مارقة تقتلها اولى الطائفتين بالحق) .

---

(١) رواة هذا الحديث كما قال عنهم الإمام ابن حجر في تقريب التهذيب :
سفيان الثوري : ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة ربما دلس .
علي بن زيد بن جدعان : ضعيف . أبو نضرة المنذر بن مالك بن قطعة : ثقة .

إن الفرقتين متنازعتان على الحق ، لكن علياً رضي الله عنه هو الذي أصابه ، ومعاوية هو الذي اخطاه ؛ وكلاهما يقصد الحق ويهدف له .

ولعل الفئة المارقة كثير منها من قتلة عثمان ، فشاء الله تعالى ان يكون قتلهم على يد امير المؤمنين علي . بعد ان كان لا يملكهم وهم يملكونه .

والشهادة الثالثة لرسول الله ﷺ في هذا الصدد هو ما ورد عن عمار رضي الله عنه في الأحاديث الصحيحة التي لا يرتقي الشك إليها : (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) (١) .

فهذا حديث أوضح واصرح في ان معاوية رضي الله عنه وصحبه في الشام قد بغوا على أمير المؤمنين علي . ولقد كان لمقتل عمار رضي الله عنه ضجة كبرى في الجيشين ، غير انا لا بد أن نعرض لنقطتين اثنتين في هذا الموضوع هما :

النقطة الأولى : نفسية عمار رضي الله عنه وهو يقاتل .

النقطة الثانية : شعور المسلمين في جيش معاوية بعد مقتل عمار بن ياسر .

اما عمار رضي الله عنه ، فقد حدثنا بشأنه قيس بن عباد فقال:

قلت لعمار بن ياسر :

أرايتم قتالكم مع علي رأياً رايتموه ، فإن الراي يخطىء ويصيب ؟.

أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ ؟

---

(١) روى الحديث البخاري ومسلم والإمام احمد وابو داود والترمذي والنسائي والطيالسي بروايات مختلفة .

فقال : ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده للناس كافة.

وقد رواه مسلم من حديث شعبة وله تمام عن عمار عن حذيفة في المنافقين .

فعمار رضي الله عنه يؤكد انه لا يملك عهداً من رسول الله ﷺ ان يكون مع علي رضوان الله عليه ، ولكنه اجتهد فراى الحق مع علي ، وكان واثقاً تمام الثقة من موقفه حتى إنه ليقول :

والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة . والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت ان مصلحينا على الحق ، وانهم على الضلالة(١) .

ولم يكن حديث مقتل عمار رضي الله عنه مجهولاً بين المسلمين الأوائل الذين شهدوا فجر الرسالة واحداثها الأولى ، بل وحتى المتأخرين منهم . ولكن معاوية رضي الله عنه عاش مع الدعوة نزراً يسيراً بعد الفتح ، ومضى يجاهد في سبيل الله ؛ فليس غريباً الا يشهد ولا يسمع هذا الحديث إلا في الحرب .

وقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه .

فماذا كان صدى مقتله في جيش المسلمين بالشام ؟

لقد كان عمرو بن العاص يعلم هذا الحديث ، وكان لا يدري من الذي سيقتل عماراً ، إنه وإن كان في جيش علي ، فقد ينقض

---

(١) رواه الإمام احمد والطبراني . قال الهيثمي : ورجال احمد رجال الصحيح . ورواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

عليه رجل من جيش علي ويقتله ، تماماً كما حصل للزبير بن العوام رضي الله عنه ، فلم يقتله رجل من جيش علي ، بل قتله رجل من اهل الجمل !!

فما إن بلغ عَمراً رضي الله عنه مقتل عمار وهو في جيش علي حتى قطع ظنَّه اليقينُ .

ولعل اقتراحه رفع المصاحف والرغبة في الصلح ناتج عن هذا الموقف النفسي ومحاولة للتكفير عن هذه الخطيئة .

وبين ايدينا رواية لابن جرير نجت من بين يدي ابي مخنف التالف ، فلم تَصِلْه ولم يشترك في روايتها ، وهي تعطينا صورة حية عن أثر مقتل عمار في جيش المسلمين بالشام وسنسوقها كاملة. وذلك فيما نقله ابن جرير عن الأعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال (١) :

كنا مع علي بصفين ، فكنا قد وكلنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من ان يحمل ، فكان إذا حانت منهما غفلة يحمل فلا يرجع حتى يخضب سيفه . وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه فالقاه إليهم وقال : لولا انه انثنى ما رجعت .

قال الأعمش : هذا والله ضرب غير مرتاب !

فقال ابو عبد الرحمن : سمع القوم شيئاً فادّوه وما كانوا بكذابين .

---

(١) رواة الخبر هم : أحمد بن محمد : صدوق كان فيه غفلة . الوليد بن صالح النخاس : ثقة . عطاء بن مسلم : يخطىء كثيراً . الأعمش : ثقة حافظ ورع لكنه يدلس . ابو عبد الرحمن السلمي : ثقة ثبت . فنحن مع رواة موثوقين لكن قد يخطىء بعضهم في النقل .

قال : ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً إلا تبعه من كان هنـاك من أصحاب محمد ﷺ (١) ، ورأيته جاء إلى المرقال : هاشم بن عتبة وهو صاحب راية علي ، فقال :

يا هاشم أعوَراً وجبناً ، لا خير في أعور يخشى البأس .

فإذا رجل بين الصفّين قال : هـذا والله ليخلفن إمامه ، وليخذلنّ جنده ، وليصبرنّ جهده ، اركب يا هاشم ، فركب .

ومضى هاشم يقول :

أعـور يبغـي أهلـه محـلاّ   قد عالج الحيـاة حتى مـلاّ
لا بـد أن يَفـلّ أو يُفـلاّ

وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت في أطراف الأسل وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه !!

فلم يرجعا وقتلا .

قال : يفيد لك عليهما من كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ أنهما كانا علماً .

فلما كان الليل قلت : لأدخلن إليهم حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا ـ وكنا إذا توادعنا من القتال تحدثوا إلينـا وتحدثنا إليهم ـ فركبت فرسي وقد هدأت الرِجل ، ثم دخلت فإذا أنا بأربعة يتسايرون : معاوية ، وأبو الأعور السلمي ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمرو ـ هو خير الأربعة ـ .

---

(١) لأنهم يعلمون من حديث رسول الله ﷺ أنه إذا اختلف الناس فابن سمية مع الحق .

فأدخلت فرسي بينهم مخافة ان يفوتني ما يقول احد الشقين .

فقال عبد الله لأبيه : يا ابت قتلتم هذا الرجل في يومكم هــذا وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال !؟

قال : وما قال ؟

قال : الم تكن (١) معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة ، وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين ؛ فغُشي عليه ، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول : « ويحك يا ابن سمية ، الناس ينقلون حجراً حجراً ، ولبنة لبنة ؛ وانت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منه في الأجر ! وانت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية » !!

فدفع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال :

يا معاوية أما تسمع ما يقول عبد الله ؟!

قال : وما يقول ؟ فأخبره الخبر .

فقال معاوية : إنك شيخ اخرق ولا تزال تحدث بالحديث وانت تدحض في بولك ، اَوَ نحن قتلنا عماراً ؟ إنما قتل عماراً من جاء به ! !

---

(١) لاشك أن كلمة ــ تكن ــ غير صحيحة لأن عمرو بن العاص رضي الله عنه أسلم بعد صلح الحديبية . فهو بالتأكيد لم يكن مع المسلمين يوم بناء المسجد النبوي عقب الهجرة مباشرة ، وقد صححها ابن كثير بقوله : الم يكن ؛ ليستقيم المعنى . وقد ظهر الخطأ في هذه الكلمة من خلال رواتنا الذين فيهم عطاء بن مسلم الذي يخطىء كثيراً .

فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون :
إنما قتل عماراً من جاء به .
فلا ادري من كان اعجب هو او هم(١) !!

وثقة معاوية رضي الله عنه أنه على الحق لا تقبل النقاش عنده ولا غرابة أن يفهم النص أو يؤوله بهذه الصورة ، فلا يمكن لمعاوية أن يتصور أن قتلة عثمان على الحق .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٨ ــ ٢٩ .

وقد وردت هذه الرواية عن عبد الله بن الحارث قال :
إني لأسير مع معاوية رضي الله عنه منصرفه من صفين بينه وبين عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قال : فقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : يا أبت ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار : ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية ، قال : فقال عمرو لمعاوية : الا تسمع ما يقول هذا ؟ فقال معاوية : لا تزال تأتينا بهنة انحن قتلناه ، إنما قتله الذين جاؤوا به !!

رواه الامام احمد بإسناد صحيح

وقد رواه الامام احمد أيضاً من حديث حنظلة بن خويلد العنزي قال : بينما انا عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار يقول كل واحد منهما انا قتلته . فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تقتلك الفئة الباغية) . قال معاوية : فما بالك معنا . قال : إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال : (أطع اباك ما دام حياً ولا تعصِه) ؛ فأنا معكم ولست أقاتل .

ورواه ابن أبي شيبة وابن عساكر في تاريخه بنحوه .
ورواه النسائي في كتاب خصائص علي بإسناد حسن وليس فيه قول معاوية لعبد الله وجواب عبد الله له .

وصورة عمار في ذهنه مشوهة أيما تشويه : فعمار إن لم يقتل عثمان فقد كان من المؤلبين والمحرضين عليه ، ولا يمكن أن يتطرق إلى ذهنه أدنى شك في أن الفئة الباغية هي التي قتلت عثمان ، وجميعها في جيش علي .

حتى ولا غرابة في تجاوب الناس مع أميرهم معاوية .

فمقتل عثمان، والصورة البشعة التي تم بها القتل كانت كافية لتصرف البغي عنده نحو جيش علي ، ففي ذلك الجيش من بغى على الخليفة ، بل وقتله .

ونحن نقول : إن التأويل بعيد عن مجموع النصوص التي وردت في هذا الموضوع ، وإن عماراً رضي الله عنه خرج قانعاً مختاراً بصحة هذه الحرب كما قال :

(والذي نفسي بيده لوضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت أن مصلحينا (١) على الحق ، وانهم على الضلالة) .

فأمير المؤمنين علي رضي الله عنه أولى بالحق من معاوية ، وهو أدرى الناس بملابسات خلافته والطريقة التي تمت بها بيعته ؛ ولكنا نقول لمن يرسل لسانه في حق معاوية رضي الله عنه ـ إن كان من أهل الصدق والتقى والصلاح ـ ماقاله أبو بكر رضي الله عنه لعمر يوم تكلم في حق خالدٍ وطالب بعزله :

---

(١) لقد كان عمار رضي الله عنه عميق الغور حين استعمل هـذه العبارة : لعرفت أن مصلحينا على الحق ؛ فهـو يؤكد أن المصلحين في الجيش على الحق ، وليس كـل افـراد الجيش . إذ فيهم الانتهازيون ، وقتلة عثمان ، ومن هذا الجيش نفسه كانت الخوارج .

(تأول فأخطأ . كف لسانك عن خالد ، لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين) .

واما إن كان من أهل الهوى والضلالة ، فحسيبه الله رب العالمين .

إن جلّ الصحابة (١) والتابعين قد فهموا من قول رسول الله

---

(١) حتى الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة ، وعلى راسهم سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ندموا أن لايكونوا قد شاركوا في الحرب مع علي رضي الله عنه ، فعن محمد بن ابراهيم التيمي أن فلاناً دخل المدينة حاجاً فأتاه الناس يسلمون عليه فدخل سعد رضي الله عنه فسلم فقال : وهذا لم يُمنّا على حقنا على باطل غيرنا ، قال : فسكت عنه . فقال : مالك لا تتكلم؟ فقال : هاجت فتنة وظلمة ، فقلت لبعيري : اخ اخ ، فأنخت حتى انجلت . فقال رجل : إني قرات كتاب الله من أوله إلى آخره ؛ فلم أرَ فيه اخ اخ !! فقال : (أي سعد) : اما إذا قلت ذاك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (علي مع الحق ، أو الحق مع علي حيث كان) . قال (أي الرجل) : من سمع ذلك ؟ قال : قاله في بيت أم سلمة قال : فأرسل إلى أم سلمة ، فقالت : قد قاله رسول الله ﷺ في بيتي . فقال الرجل لسعد : (ما كنت عندي قط ألوم منك الآن ؛ فقال : ولم ؟ قال : لو سمعت هذا من النبي ﷺ لم ازل خادماً لعلي حتى أموت) .

رواه البزار . قال الهيثمي : وفيه سعد بن شبيب ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح . (وقد ورد في رواية أخرى أن الذي قال هذا الكلام هو معاوية بن أبي سفيان) . كما روي عن عبد الله
←

ﷺ لعمار : (تقتلك الفئة الباغية) (١) أن المقصود جيش معاوية رضي الله عنه ، مع انهم معذورون في اجتهادهم فهم يقصدون الحق ويريدونه لكنهم لم يصيبوه . وفئة علي أولى بالحق منهم كما قال عليه الصلاة والسلام .

ولا بد من الإشارة إلى أن عمرو بن العاص لم يكن اجتهاده مثل اجتهاد معاوية (٢) ، وكان يأمل أن ينضم عمار إلى جيش معاوية

→

ابن عمر قوله : (لم اجدني آسى على شيء إلا اني لم اقاتل الفئة الباغية مع علي) . رواه الطبراني بأسانيد قال الهيثمي : وأحدها رجاله رجال الصحيح .

قلت : الحديث الذي اورده المؤلف عن سعد بن ابي وقاص بشأن علي ضعيف لأن احد رواته وهو سعد بن شبيب مجهول ، فلا يحتج به . (الناشر)

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : روى حديث تقتل عماراً الفئة الباغية جماعة من الصحابة منهم : قتادة بن النعمان وأم سلمة عند مسلم ، وابو هريرة عند الترمذي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان وحذيفة وابو أيوب ، وابو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وابو اليسر وعمار نفسه . وكلها عند الطبراني وغيره ، وغالب طرقها صحيحة او حسنة ، وفيه عن جماعة آخرين يطول عدهم . وفي هذا الحديث علم من اعلام النبوة ، وفضيلة ظاهرة لعلي وعمار ، ورد على النواصب الزاعمين ان علياً لم يكن مصيباً في حروبه .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم قال : لما قتل عمار بن ياسر رضي الله عنه دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال : قتل

←

قبل وفاته أو قتله على الأقل . فلما قتل عمار رضي الله عنه ، مضى إلى إنهاء الحرب باقتراح رفع المصاحف لحقن دماء المسلمين .



→

عمار ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تقتله الفئة الباغية) . فقال عمرو بن العاص : يرجّع ــ يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ــ حتى دخل على معاوية فقال معاوية : مه ؟!

فقال : قتل عمار .

فقال معاوية : قد قتل عمار فماذا ؟

قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية!!

فقال له معاوية : دحضتَ في بولك أنحن قتلناه ؟ إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا ــ أو قال بين سيوفنا .

رواه الإمام أحمد ، والحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه .

وهذا يعني أن ثقة عمرو بعد قتل عمـــار رضي الله عنه بحقه كانت أضعف من ثقته بأنه على الحق قبلها ، وإن كان لم يعترض على اجتهاد معـــاوية رضي الله عنهما وآجرهما على اجتهادهما وإن كان خاطئاً .

قصة التحكيم

روايات التحكيم عديدة ، وليس بين أيدينا رواية واحدة نطمئن إليها لكون كل رواتها ثقات ، وسندع روايات ابي مخنف جانباً ؛ فهي تحمل في ثناياها أقبح الصور عن الخلاف والتحكيم ، ومما يؤلم أن هذه الصور هي الثابتة في أذهان الناس :

١ - فالمعروف لدى عامة الناس أن عمرو بن العاص غدر بأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ، وقدمه للكلام بعد أن اتفقا على خلع معاوية وعلي رضي الله عنهما ، وخلع ابو موسى معاوية وعلياً ، بينما تقدم عمرو بعده فخلع علياً ، واثبت معاوية .

٢ - ومن هذه الصور كذلك أن علياً رضي الله عنه كان إذا قنت لعن معاوية وعمراً وغيرهما من أهل الشام ، فبلغ ذلك معاوية فصار إذا قنت يلعن علياً وابن عباس والأشتر وحسناً وحسيناً !!

ويسقط الخبر الأول لتهافت رواته وضعفهم (١) .

ويسقط الخبر الثاني لتهافت رواته وضعفهم أيضاً (٢) .

٣ - ومن هذه الصور كذلك تشبيه ابي موسى لعمرو بالكلب وتشبيه عمرو لأبي موسى بالحمار . وفي الرواية كذلك ان ابا موسى سمى عمراً ، الفاسق (٣) .

(١ و ٢ و ٣) رواة هذا الخبر كما أوردهم الطبري : (قال أبو مخنف حدثني ابو جناب الكلبي ان عمراً وابا موسى . . .) .

←

واقرب الروايات إلى الصحة هي التي ندعها تنطق دون ان تتدخل فيها :

قال الطبري في تاريخه :

(حدثني عبد الله بن احمد قال : حدثني ابي قال : حدثني سليمان بن يونس بن يزيد عن الزهري قال (١) :

←

وابو مخنف لم يوثقه أحد من علماء الرجال . أما أبو جناب الكلبي ، فكما أورد ابن حجر رحمه الله في تقريب التهذيب (ضعّفوه لكثرة تدليسه) ويظهر تدليسه هنا انه لم يذكر من روى عنه الخبر إطلاقاً؛ ففي الرواية راوٍ ساقط. كما ذكرت الروايات أن أهل الشام سلموا على معاوية بالخلافة بعد خطبة الحكمين. وهذا لايصح كذلك. وهكذا يشوه التاريخ الإسلامي برواية ساقطة كاذبة .

(١) ذكر ابن جرير الطبري هذا السند على الصيغة المذكورة . ثم عاد فذكره مرة ثانية بقوله : وذلك ماحدثنا عبد الله عن يونس عن الزهري .

ونلاحظ تبايناً بين السندين رغم أن الإشارة إليهما واحدة . فلا بد من خطأ في واحد من السندين . وأرجح أن الخطأ في الرواية الأولى من حيث سندها لما يلي :

١ ــ في الأولى عبد الله بن احمد عن أبيه ، وفي الثانية عبد الله عن يونس . فأحمد ليس وارداً في الرواية الثانية .

٢ ــ في الأولى قال : حدثنا سليمان بن يونس بن يزيد عن الزهري . وسليمان هذا لم يرو عن الزهري إنما الذي روى عنه هو أبوه يونس بن يزيد .

←

قــال صعصعة بن صوحان يوم صِفّين ، حين راى الناس يتبارون :

الا اسمعوا واعقلوا ، تعلمن والله لئن ظهر عليٌ ليكونن مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وإن ظهر معاوية لا يقر لقائل بقول حق.

قال الزهري : فاصبح اهل الشام قد نشــروا مصاحفهم ، ودعوا إلى مافيها ، فهاب اهل العراقين. فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختار اهل العراق ابا موسى الأشعري واختار اهل الشام عمرو ابن العاص .

فتفرق أهل صِفّين حين حَكَّم الحكمان ، فاشترطا ان يرفعا مارفع القرآن ، ويخفضا ما خفض القرآن ، وان يختارا لأمة محمد ﷺ ، وانهما يجتمعان بدومة الجندل . فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح .

فلما انصرف عليّ خالفت الحرورية وخرجت ــ وكان ذلك اول ما ظهرت ــ فآذنوه بالحرب ، وردوا عليه : ان حكَّمَ بني آدم في حكم الله عزوجل ، وقالوا : لا حكم إلا لله سبحانه وقاتلوا .

→

ويستقيم السندان معــاً عندما يكونان على الشكل التالي : حدثني عبد الله بن أحمد قال: حدثني سليمان بن يونس قال: حدثني أبي يونس بن يزيد عن الزهري . فينتهي الإشكــال بتأخير كلمــة ــ أبي ــ بعد سليمان لاقبله . ورجال السند هم كما وردوا لــدى ابن حجر : عبد الله بن أحمد : صدوق متقدم في القراءة . سليمان ابن يونس : ضعيف . يونس بن يزيد : ثقة إلا أن في روايتــه عن الزهري وهماً قليلاً . الزهري : الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه .

فلما اجتمع الحكمان بأذرح ، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس . فارسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير .

ووافى معاوية بأهل الشام .

وابى علي واهل العراق ان يوافوا .

فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الراي من قريش :

اترون احداً من الناس براي يبتدعه يستطيع ان يعلم ايجتمع الحكمان ام يتفرقان ؟

قالوا : لا نرى احداً يعلم ذلك .

قال: فوالله إني لأظن سأعلمه منهما حين اخلو بهما واراجعهما.

فدخل على عمرو بن العاص وبدأ به فقال :

يا ابا عبد الله اخبرني عما اسألك عنه : كيف ترانا معشر المعتزلة ، فإنا قد شككنا في الأمر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا ان نستاني ونتثبت حتى تجتمع الأمة .

قال : اراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وامام الفجار .

فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك .

حتى دخل على ابي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو .

فقال ابو موسى : اراكم اثبت الناس رايا فيكم بقية المسلمين. فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك .

فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوي الراي من قريش فقال : لا يجتمع هذان على امر واحد .

فلما اجتمع الحكمان وتكلما قال عمرو بن العاص :

يا ابا موسى رايت اول ماتقضي به من الحق ان نقضي لأهل الوفاء بوفائهم ، وعلى أهل الغدر بغدرهم .

قال ابو موسى : وما ذاك ؟

قال : الست تعلم ان معاوية واهل الشام قد وفوا وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه ؟

قال : بلى .

قال عمرو : اكتبها . فكتبها ابو موسى .

قال عمرو : اانت معي على ان نسمي رجلاً يلي امر هذه الأمة فسمّه لي ؛ فإن اقدر على ان اتابعك فلك عليّ ان اتابعك ، وإلا فلي عليك ان تتابعني .

قال ابو موسى : اسمي لك عبد الله بن عمر (وكان ابن عمر فيمن اعتزل) .

قال عمرو : إني اسمي لك معاوية بن ابي سفيان .

فلم يبرحا مجلسهما حتى استبا ، ثم خرجا إلى الناس .

فقال ابو موسى :

إني وجدت مثل عمرو مثل الذي قال الله عزوجل :

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) .

فلما سكت ابو موسى تكلم عمرو فقال :

أيها الناس إني وجدت مثل أبي موسى كمثل الذي قال الله عزوجل :

(مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) .

وكتب كل واحد منهما مثله الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار.

قال ابن شهاب :

فقام معاوية عشية في الناس فأثنى على الله جل ثناؤه بما هو اهله ثم قال : اما بعد فمن كان متكلماً في الأمر ، فليطلع لنا قرنه .

قال ابن عمر : فأطلقت حبوتي فأردت أن أقول :

يتكلم فيه رجال قاتلوا اباك على الإسلام .

ثم خشيت أن اقول كلمة تفرق الجماعة او يسفك فيها دم ، أو احمل فيها على غير رأي . فكان ماوعد الله عزوجل في الجنان احب إلي من ذلك .

فلما انصرف إلى المنزل جاءني حبيب بن مسلمة فقال :

ما منعك أن تتكلم حين سمعت الرجل يتكلم .

قلت : اردت ذلك ثم خشيت أن اقول كلمة تفرق الجماعة أو يسفك فيها دم أو احمل فيها على غير رأي . فكان ماوعد الله عز وجل من الجنان احب إلي من ذلك . قال حبيب : فقد عصمت(١)) (٢) .

---

(١) اورد حديث ابن عمر رضي الله عنه وامتناعه عن الكلام خشية الفتنة البخاري في صحيحه .

(٢) الطبري ج٥ ص٥٧ . ط دار المعارف بمصر .

والذي نجده نشازاً في هذه الرواية لايتسق مع المستوى الإسلامي المطلوب ، وقد يزل قليلاً عن المنهج الإسلامي هو قوله :

ـ فلم يبرحا مجلسهما حتى استبا .

ـ والمثل الذي ضربه كل واحد منهما لصاحبه .

ولا نعرف في الحقيقة علام اختلفا حتى استبا ، خاصة وقد بدات المباحثات بروح مرنة ونفسية رضية حريصة على الصلح وإصلاح ذات البين . وفي الرواية فجوة هي الحديث الذي تناقشا فيه حتى وصلا إلى السباب ، وظني أن السباب الذي حصل بينهما هو هذا المثل المضروب من كتاب الله .

وقد تبرز الطبيعةالبشرية في لحظة حنق زائد وغضب جارف. فيتصور أبو موسى أن يكون عمرو قد نكث بعهده ، وتخلى عن مسؤولياته حين أصر على نوعيات معينة لتحكم الأمة . ويتصور عمرو أن أبا موسى لم يدرك مدى مسؤولية حمله للقرآن والاحتكام إليه .

إن الجو المشحون بالتوتر قاد إلى هذه الآراء التي صدرت عن كل صحابي في صاحبه ، ويحسن أن يكون واضحاً في ذهننا ان ما وراء النص يوحي بالقصد المباشر منه .

فعمرو رضي الله عنه يرى في أبي موسى القارىء المتقن لكتاب الله لا يعمل بما فيه ، وابو موسى رضي الله عنه يرى في عمرو انه تخلى عن مسؤوليته الإسلامية ، ولم يستجب لداعي الجماعة .

هذا لو سلمت الرواية من اي تجريح .

لكننا مع اعتقادنا ان هذه الرواية أقرب ماتكون من الصواب، لكن لانرى صحتها كاملة لأن أحد رواتها ضعيف ، وأباه فيه بعض الوهن فيما يرويه عن الزهري .

وكل ما يمكن الاطمئنان إليه فقط من مجموع الروايات : هو ان عمرو بن العاص وابا موسى الأشعري حاولا أن يصلا إلى شخصية يجتمعان عليها لكن هذا لم يحصل .

وقد لخص ابن كثير في البداية والنهاية ما اقتنع به من خلال الروايات فقال :

(فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين ، ونظرا في تقدير امور ، ثم اتفقا على ان يعزلا علياً ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما . وقد اشار ابو موسى بتولية عبد الله بن عمر بن الخطاب . فقال له عمرو : فولّ ابني عبد الله فإنه يقاربه في العلم والعمل والزهد .

فقال ابو موسى: إنك قد غمست ابنك في الفتن معك ، وهو مع ذلك رجل صدق) (١) .

هذه هي الصورة التي قدمها ابن كثير عن التحكيم ، ولكنه عاد بعد ذلك فساق بعض روايات الطبري التي اطمأن إلى طبيعتها لا إلى سندها ، وعندما انتهى إلى آخرها قال :

(ويقال إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة ، ورد عليه عمرو بن العاص مثله) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٨٣ .

ونذكر هنا رواية اوردها الحافظ الدارقطني بسنده عن الحضين بن المنذر قال :

(لما عزل عمرو معاوية جاء (أي حضين بن المنذر) فضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية ، فبلغ نبأه معاوية ، فأرسل إليه فقال :

إنه بلغني عن هذا (أي عمرو) كذا وكذا ، فاذهب فانظر ماهذا الذي بلغني عنه . فأتيته فقلت :

اخبرني عن الأمر الذي وليت انت وابو موسى كيف صنعتما فيه ؟ ؟ .

قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما قالوا ، ولكن قلت لأبي موسى : ماترى في هذا الأمر ؟

قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . قلت : فأين تجعلني انا ومعاوية ؟

قال : إن يستعن بكما ففيكما معونة . وإن يستغن عنكما فطالما استغنى امر الله عنكما .

قال : فكانت هي التي فتل معاوية منها نفسه . فأتيته فأخبرته ان الذي بلغه كان كما بلغه) (١) .

ونخلص من هذه الروايات التي هي اقرب ماتكون إلى الصحة والتي اتفقت على قدر معين من الحوادث إلى ما يلي :

١ ـ أن الحكمين التقيا بدومة الجندل في الموعد المحدد .

---

(١) العواصم من القواصم ص ١٢٩ . ط جديدة بمراجعة محمود مهدي استانبولي .

٢ ـ كانت محاولات أبي موسى رضي الله عنه في إقناع عمرو بولاية عبد الله بن عمر بن الخطاب فأبى عليه ذلك .

٣ ـ كانت محاولات عمرو بن العاص رضي الله عنه في إقناع أبي موسى رضي الله عنه بولاية معاوية فأبى عليه ذلك ، ثم بولاية عبد الله بن عمرو بن العاص فأبى عليه ذلك .

٤ ـ اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين المسلمين ، وأن يكون الأمر فيمن توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم .

هذه هي النقاط الثابتة في موضوع التحكيم . والذي ميّع الأمر هو عدم اتفاقهما على والٍ معين يجمعان عليه ، فكانت النتائج سلبية ، وبقيت الأمور على ما هي عليه بدون اتفاق .

وما عدا ذلك فروايات ضعيفة أو مكذوبة يتعرض الوهن لها من حيث المتن ومن حيث السند ، لاتقوم عليها الحقائق ، ولا تبنى عليها المفاهيم .

يقول المؤرخ المحدث خليفة بن خياط في تاريخه :

وفيها (أي سنة سبع وثلاثين) اجتمع الحكمان ابو موسى الأشعري من قبل علي ، وعمرو بن العاص من قبل معاوية بدومة الجندل في شهر رمضان ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب . فبعث علي ابن عباس ولم يحضر وحضر معاوية فلم يتفق الحكمان على شيء ، وافترق الناس .

وبايع أهل الشام لمعاوية بالخلافة في ذي القعدة سنة سبع وثلاثين . واقتضى هذا الأمر موقفاً جديداً من معاوية رضي الله عنه ؛ أن يبدأ بمحاولات اخذ البيعة من بقية المناطق له بالخلافة بعد أن بايعه أهل الشام .

عام ثمانية وثلاثين

جاء في تاريخ الطبري :

(... لما حدّث قيس بن سعد (١) بمجيء محمد بن أبي بكر، وانه قادم عليه أميراً ، تلقاه وخلا به وناجاه فقال :

إنك جئت من عند امرىءٍ لاراي له ، وليس عزلكم إياي بمانعي ان انصح لكم . وانا من امركم هذا على بصيرة .

وإني في ذلك على الذي كنت اكايد به معاوية وعمراً واهل (خَرْبِتا) (٢) فكايدهم به فإنك إن تكايدهم بغيره تهلك) .

ووصف قيس بن سعد لمحمد بن ابي بكر المكايدة التي كان يكايدهم بها ، واغتشه محمد بن ابي بكر (اعتبره غاشاً له) وخالف

---

(١) قيس بن سعد بن عبادة من كبار الأنصار وساداتهم . أعطاه رسول الله ﷺ اللواء يوم فتح مكة بعد ان نزعه من ابيه ، وهو الذي راب صدع المسلمين وبايع ابا بكرٍ بالخلافة حين امتنع سعد بن عبادة رضي الله عنه عن ذلك . وكان من كبار مستشاري علي بن أبي طالب ، وكبار قادته ، وولاه قيادة مصر ، ثم دخل الوشاة بينهما فعزله عن مصر وولى محمد بن ابي بكر مكانه ، فما غيَّر ذلك قيساً . وعاد فوضع طاقاته تحت تصرف أمير المؤمنين علي بن ابي طالب حتى استشهد .

(٢) خربتا : موطن في مصر بقي اهله موالين لعثمان رضي الله عنه بعد مقتله ، ولم يدخلوا في طاعة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

كل شيء أمره به ، فلما قدم محمد بن أبي بكر ، فبلغ ذلك معاوية وعمراً ، فسار بأهل الشام حتى افتتحا مصر ، وقتلا محمد بن أبي بكر ، لم تزل في حيّز معاوية حتى ظهر .

وقدم قيس بن سعد المدينة ، فأخافه مروان بن الحكم والأسود ابن البختري ، حتى إذا خاف أن يؤخذ ويقتل ركب راحلته وظهر إلى علي .

فكتب معاوية إلى مروان والأسود يتغيظ عليهما ويقول :

امددتما علياً بقيس بن سعد ورأيه ومكايدته ، فوالله لو أنكما امددتماه بمائة الف مقاتل ماكان بأغيظ إلي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي !!

فلما باثه الحديث وجاءهم قتل محمد بن أبي بكر ، عرف ان قيس بن سعد كان يوازي أموراً عظاماً من المكايدة ، وأن من كان يشير عليه بعزل قيس بن سعد لم ينصح له (١) .

ولعل أصح رواية (٢) في مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما ؛ ما رواه عمرو بن دينار قال : اتي عمرو بن العاص بمحمد بن أبي بكر اسيراً فقال : هل معك عهد ؟ هل معك عقد من احد ؟ قال : لا ؛ فأمر به فقتل !!

---

(١) الطبري ج٥ ص٧٠ عن عبد الله عن يونس عن الزهري . وهؤلاء هم الذين تحدثنا عنهم في الرواية السابقة، عبد الله بن أحمد: صدوق ، متقدم في القراءة يونس بن يزيد : ثقة إلا انه في روايته عن الزهري وهماً قليلاً . الزهري فقيه ، حافظ متفق على جلالته وإتقانه .

(٢) رواة الحديث هم : غندر عن شعبة عن عمرو بن دينار ؛ وكل هؤلاء الرواة ثقات ، وهم رجال الصحيح عند البخاري ومسلم .

بينما تأتينا رواية اخرى تسرد جميع التفاصيل الثابتة في أذهان الناس عن مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ، وإحراقه في جوف حمار ، وكلام قبيح من علي رضي الله عنه بحق معاوية وعمرو ، ودس السم للأشتر النخعي عن طريق معاوية . كل هذه الترهات والأباطيل وجدت في رواية هذا سندها :

(واما ما قال ــ في ابتداء أمر محمد بن ابي بكر في مصيره إلى مصر وولايته إياها ــ ابو مخنف فقد تقدم ذكرنا له ، ونذكر الآن بقية خبره في روايته ما روى من ذلك عن يزيد بن ظبيان الهمداني ، قال . . . .) .

فالراويان هما : ابو مخنف ، ويزيد بن ظبيان .

وأبو مخنف : ضعيف تالف .

ويزيد بن ظبيان : لا اسم له في الرواة .

فكيف نأخذ أحداثاً ونبني عليها أحكامنا من مطعون بصدقه ، ومجهول بحقيقته ومنكر بمعرفته ؟؟!!

والرواية التي اعتمدناها متسقة مع المنهج الإسلامي ، ترفع من مقام قيس بن سعد رضي الله عنه . ولا تزري بحق احد من صحابة رسول الله رضوان الله عليهم جميعاً .

ولكن هذا الحادث يشير إلى انطلاقة جديدة في الحوادث بعد أن انتهى أمر التحكيم إلى نتائج سلبية ، وتمكن معاوية بن ابي سفيان أن يضم مصر إلى جانبه ، وهذا يعني أن الكفة بدات تميل إلى جانبه وتعطي مؤشراً جديداً في طبيعة التحرك للجانبين .

وقد فتحت جبهة جديدة على امير المؤمنين من الخوارج الذين انشقوا عنه ومرقوا من جيشه ، وكان على ثقة تامة من حربهم

وكونهم على الباطل رغم كل ادعائهم بالحق وصراعهم الظاهر من أجل الحق(١) .

واستفاد معاوية من هذه الظروف ، ورأى انه لا بد من حزم للأمور تنهي هذه الفرقة بين المسلمين ، فأقدم على مغامرات لتفتيت

---

(١) روى البخاري قال: حدثنا ابو اليمان ، حدثنا شعيب عن الزهري قال : اخبرني ابو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدري قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة ــ وهو رجل من بني تميم ــ فقال : يا رسول الله اعدل ، فقال : ويلك ومن يعدل . قد خبت وخسرت إن لم أعدل !! فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه ؛ فقال : دعه . فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نضبه ــ وهو قدحه ــ فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى قذذه فلم يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم . آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة ، أو مثل البضعة تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو سعيد :

فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتمس ، فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته .

وهكذا رواه مسلم من حديث أبي سعيد . البداية والنهاية ج٦/ص ٢١٩ .

التجمع حول علي رضي الله عنه ، وكان أولها في البصرة حيث تجمع حول ابن الحضرمي الذي أرسله لهم نفر كبير من أهلها ، واختبأ زياد والي البصرة من قبل امير المؤمنين ، لكن علياً سارع وانقذ الموقف،وكانت المحاولة الثانية من قبل معاوية الأمير أن وجه النعمان ابن بشير رضي الله عنه في ألفي رجل إلى عين التمر إحدى الولايات التابعة لعلي ؛ ولم تجدِ المحاولة وذهبت أدراج الرياح .



محاولات امتداد لمعاوية

كان عام تسع وثلاثين اكثر إيجابية لصالح أمير الشام ، حيث عبأ ستة آلاف جندي بإمرة سفيان بن‌عوف إلى هيت في العـراق ، ومنها إلى الأنبار فالمدائن . وحدث اشتباك في الأنبار ، قتل فيه ثلاثون رجلاً من المسلمين ، كما تمت بعض الإغـارات على تيمـاء وواقصة ودجلة .

أما عام أربعين فقد كانت الوقائع فيه سجالاً بين الفريقين بالنسبة للولايات النائية .

بعث معاوية رضي الله عنه بسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز في بيته . أما الجيوش الإسلامية فهي مرابطة على الثغور في الشام وفارس ، ولم يكن هناك قوات ثابتة مستقرة في المدن الإسلامية الداخلية ، فاضطر أبو أيوب الأنصاري أن يفر من وجه الجيش الغازي ، ودخل بسر المدينة ، ولم يقاتله فيها أحد . والمدينة أقرب مدن الحجاز إلى الشام ، والمسافة بينها وبين الشام أقرب بكثير من المسافة بينها وبين الكوفة في العراق .

وصعد بسر منبر المدينة ونادى :

يا دينار ، ويا نجار ، ويا زريق ، شيخي شيخي ، عهدي به بالأمس ، فأين هو ــ يعني عثمان ــ ؟!

إنها المرة الأولى التي تتحرر فيها المدينة من شبح الثوار الذين

قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة المظلوم ، والمرة الأولى التي ينادى فيها بثارات عثمان .

ويشير نداء بسر من جهة ثانية إلى أنه يتهم أهل المدينة بقتل عثمان ، أو هكذا كانت الصورة في ذهن الجيش الغازي . إنه ينادي قبائل أهل المدينة : بني النجار وبني دينار ، وبني زريق ، وينعى عليهم تخليهم عن شيخ الأمة عثمان بن عفان .

وكان يود لو ينتقم من أهل المدينة الذين تواطؤوا على قتل عثمان كما خيل له .

وبسر قائد فاتك ، ولولا أن معاوية رضي الله عنه أخذ بلجامه لعاث فيها فساداً .

ولقد صرح بذلك فقال : يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إلي معاوية ما تركت بها محتلماً إلا قتلته .

ويح بسر ألم يقرأ في القرآن الكريم عن (الذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. .) ! وعن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ؟!

ألم يسمع حديث رسول الله ﷺ :

(اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار)؟!

(والله لو سلك الناس شِعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، والله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار) !!

لهف نفسي على المدينة !!

بالأمس احتلها الثوار ، وتركوا فيها خليفة المسلمين مضرجاً بدمائه .

واليوم يرعد بسر فيها ويبرق ؛ إنه لولا لجام معاوية له لما أبقى محتلماً فيها .

ولئن فات معاوية رضي الله عنه أن يحمي عثمان الخليفة الشهيد في الاحتلال الأول لأن الثوار عاجلوه وقضوا عليه قبل وصول جيش الشام ، فلن يفوته اليوم أن يحمي دماءها وذمارها في الاحتلال الثاني نتيجة توصياته العظيمة لبسر بن أبي أرطاة أن لا يريق فيها دماً .

وتمت البيعة لمعاوية في المدينة تحت ضغط التخويف والإرهاب، ولا بيعة لمكره . يؤكد هذه الفكرة قول بسر وهو يطلب الصحابي العظيم جابر بن عبد الله ـ وكان قد استخفى ـ فأرسل إلى بني سلمة فقال : والله ما لكم عندي أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر ابن عبد الله .

فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال لها :

ماذا ترين ؟ إني قد خشيت أن أقتل وهذه بيعة ضلالة ؟!

قالت : أرى أن تبايع ، فإني قد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن يبايع ، وأمرت ختني عبد الله بن زمعة فأتاه جابر فبايعه (١) .

ومن المدينة انطلق بسر إلى مكة حيث كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، فخشي أن يقتله . فأمنه بسر قائلاً :

ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ذلك فخلى عنه .

لقد كان أبو موسى قد اشتهر بعد الحكومة ، وتداول الناس أن أبا موسى صاحب رسول الله ﷺ . بينما لم يكن غيره على هذا

---

(١) الطبري ج٥ ص١٣٩ عن زياد بن عبد الله البكائي عن عوانة .

المستوى من الشهرة والمعرفة لدى ابن ابي ارطاة . واستمر زحف بسر من الحجاز إلى اليمن في الجنوب ، حيث انطلق عبيد الله بن عباس بتوّه إلى الكوفة يخبر امير المؤمنين علياً رضي الله عنه بالتطورات الأخيرة والخطيرة التي ادت إلى سقوط المدينة ومكة واليمن بيد معاوية .

وكانت مبادرة طيبة وناجحة جهز علي رضي الله عنه إثرها بعثين :

الأول : بإمرة جارية بن قدامة في الفين .

والثاني بإمرة وهب بن مسعود في الفين .

وكان لابد من قتل كبار المحاربين لتستقر البلد في يد من تقع في يده ؛ فقتل من الطرفين في اليمن عدد كبير .

ومع وصول جيش علي وجد بسر ان لا قدرة له على المقاومة ، فانسحب عائداً بمن تبقى معه من جيشه إلى الشام ، ونزلت اليمن مرة ثانية على حكم امير المؤمنين علي رضي الله عنه ، كما امكن استعادة مكة دون ان تراق قطرة دم في البلد الحرام .

وتابع جيش أمير المؤمنين علي زحفه إلى المدينة ، واستردها من حوزة معاوية .

ولم تبق تجربة يمكن فيها ان يتغلب احد الفريقين على الآخر إلا سلكها الآخر ولكن دون جدوى . فالبلد تحتل من جانب ، وسرعان ما تعود إلى طاعة الآخر . لقد اثبتت القوة فشلها في حل المشكلة ، وتوحيد الكلمة للمسلمين قاطبة . وهو الحل المنشود يوم تسود الفرقة ، لا بد من القوة !!

لكن القوتين متكافئتان . وايس اي طرف من التغلب على الآخر .

وعادت المفاوضات من جديد .

وليس بين أيدينا أية صورة عنها إلا ما انتهت إليه .

و (لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية إلى علي :

أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام ، وتكف السيف عن هذه الأمة ولا تهريق دماء المسلمين .

ففعل ذلك ، وتراضيا على ذلك(١) .

فأقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها ، وعلي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده) .

ونتساءل : لم لم يكن هذا من بداية الطريق ؟

والجواب واضح : إنه حرام في بداية الطريق أن يكون خليفتان قائمين في وقت واحد. لا بد من الحرب حتى يستسلم أحد الفريقين، وتعود الكلمة واحدة .

وتم ذلك ، وسقط القتلى بعشرات الألوف دون حساب ، ودون أن يتزحزح أحد الفريقين عن موقفه ؛ لأن كلا الفريقين واثق من حقه .

فهل يستمر القتال حتى تفنى الأمة ؟!

لا بد من هدنة مؤقتة حتى ينجلي الموقف، وترجح كفة أحدهما على الآخر .

ومن هذا المنطلق كان التراوض والصلح .

ورفض كل فريق أن ينصاع للآخر لأنه ــ كما قلنا ــ واثق من حقه . ولن يتنازل للباطل من أجل الحق . ورسول الله ﷺ يؤكد لنا ان أولى الطائفتين بالحق طائفة أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه.

* * *

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٤٠ . زياد بن عبد الله عن ابن اسحاق .

معاوية أمير المؤمنين

لما خرج معاوية رضي الله عنه ليصلي الغداة شدّ عليه البرك ابن عبد الله بسيفه ، فوقع السيف في أليته ، فأُخذ ، فقال لمعاوية :

إن عندي خبراً أسرّك به ، فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك ؟!

قال : نعم

قال : إن أخاً لي قتل علياً في مثل هذه الليلة .

قال : فلعله لم يقدر على ذلك .

قال : بلى إن علياً يخرج ليس معه من يحرسه .

فأمر به معاوية فقتل(١) .

ورأى أنه أوشك على الخطر ، فاستدعى طبيبه الساعدي ، فلما نظر إليه قال :

اختر إحدى خصلتين : إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف ، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها ؛ فإن ضربتك مسمومة .

وراجع معاوية رصيد حياته ، وردد على مسامع الطبيب :

---

(١) الطبري ج٥ ص ١٤٩ .

أما النار فلا صبر لي عليها . وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني . فسقاه تلك الشربة فبرأ ولم يولد له بعدها ؛ وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات ، وحرس الليل ، وقيام الشرط على راسه إذا سجد (١) .

وأتت الأخبار إليه بمقتل علي امير المؤمنين ، وبيعة الحسن رضي الله عنه ابن بنت رسول الله ﷺ . وكان هذا إيذاناً بمرحلة جديدة من العنف والقتال ، فليست القضية قضية رجل يقتل ، إنما الأمر أمر مبادىء يجب أن تسود ، فلعل قتلة عثمان يبقون في ظل الحسن كما هم في ظل ابيه .

إنهم وإن خضدت شوكتهم ، لكن لايزال بعض رؤسائهم بارزين في جيش علي ، فأعلن في المسلمين النفير ، ومضى يعبىء جيشه لمعركة فاصلة إذا لم يكن لدى الحسن شيءٌ سوى القتال .

وكان الحسن رضوان الله عليه يعبىء جيشه كذلك للقاء الحاسم ، وبدا على الأفق أن ساعة اللقاء الرهيبة قد دنت ، وأن صِفِّين جديدة قد ازفت .

واضحى معاوية في قلق شديد وهم عظيم .

الثارات تتجدد ، والجيوش تزحف ، اترى حان هلاك المسلمين على يد بعضهم بعضاً . وراح معاوية يسائل نفسه .

---

(١) ذكر ابن كثير عن جرير بن عبد الحميد (ثقة) عن مغيرة قال : لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي . فقالت له امرأته: اتبكيه وقد قاتلته ؟. فقال : ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم !!

لقد خطا الخطوة الحاسمة مع علي أمير المؤمنين ، وأوقف سيول الدماء ، ورفع السيف عن رقاب هذه الأمة يوم مضى بالشام وما حولها ، وبقي أمامه العراق وما حوله . إنه متربص ينتظر اللحظة المواتية لينهي هذه الحالة المؤقتة التي لا يمكن أن تستمر فكلمة المسلمين متفرقة ، وقلوبهم متباغضة ، وعيونهم زائفة من هول اللقاء والمصير .

وحانت الفرصة المواتية .

لعل الشخصية الجديدة ، شخصية الحسن رضوان الله عليه يكون لها موقف آخر .

فلا بد من البدء بالمفاوضات .

وصدق ظن معاوية ، وكانت الرحمة بعد الفاجعة .

ولكن لا بد من إعداد العدة مع ذلك .

هذا معاوية يخلو بعمرو بن العاص ، ويبثه مخاوفه واشجانه. كما نقل لنا الحسن البصري يقول :

(استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال ، فقال عمرو بن العاص :

إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها !!

فقال له معاوية ـــ وكان والله خير الرجلين ـــ :

أي عمرو إن قتل هؤلاء وهؤلاء من لي بأمور الناس ؟!! من لي بنسائهم ؟! من لي بضيعتهم ؟!

فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس : عبدالرحمن ابن سمرة ، وعبد الله بن عامر بن كريز ؛ فقال :

اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له ، واطلبا إليه .

فأتياه ــ أي الحسن ــ فدخلا عليه فتكلما ، وقالا له وطلبا إليه .

فقال لهما الحسن بن علي :

إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال ، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها .

قالا : فإنه يعرض عليك كذا وكذا ، ويطلب إليك ويسألك .

قال : فمن لي بهذا ؟

قالا : نحن لك به .

فما سألهما شيئاً إلا قالا : نحن لك به .

فصالحه(١) .

---

(١) قال الحسن (أي البصري) :

ولقد سمعت أبا بكرة رضي الله عنه يقول :

رأيت رسول الله على المنبر ، والحسن بن علي رضي الله عنهما إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول :

(إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين) .

وهذا الحديث رواه البخاري ورواه الامام أحمد .

قال الخطابي :

قد خرج مصداق هذا القول فيه بما كان من إصلاحه بين ←

وهكذا انتهت الفتنة الكبرى التي مزقت شمل المسلمين بفضل نبل الحسن وإخلاصه لله عزوجل ، وحكمة معاوية وبعد نظره .

ولا شك أن عظمة الحسن رضي‌الله عنه وسماحته التي استحق بها لقب السيادة ؛ كانت عن جدارة شهد له بها سيد الخلق صلوات الله عليه !!

→

أهل العراق والشام وتخليه عن الأمر خوفاً من الفتنة ، وكراهية لإراقة الدم ، ويسمى ذلك العام عام الجماعة .

وفي الخبر دليل على أن واحداً من الفريقين لم يخرج بما كان منه في تلك الفتنة من قول أو فعلٍ عن ملة الإسلام إذ قد جعلهم النبي ﷺ مسلمين .

ومعلوم أن إحدى الفئتين كانت مصيبة والأخرى مخطئة .

وقال ابن كثير : قد شهد الصادق المصدوق للفرقتين بالإسلام ؛ فمن كفرهم أو واحداً منهم لمجرد ما وقع فقد أخطأ وخالف النص النبوي المحمدي الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال : قلت للحسن ابن علي رضي الله عنهما :

إن الناس يقولون إنك تريد الخلافة ؛ فقال :

قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت ، ويسالمون من سالمت ؛ تركتها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء أمة محمد ﷺ ، ثم أثيرها ثانياً من أهل الحجاز) ؟!

رواه ابن سعد والحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في تلخيصه .

ودخل الناس في طاعة معاوية ، ودخل معاوية الكوفة فبايعه الناس .

يقول ابن جرير الطبري في تاريخه :

وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء ، حدثني بذلك موسى بن عبد الرحمن قال : حدثنا عثمان بن عبد الرحمن قال : أخبرنا اسماعيل بن راشد ـ وكان قبل يدعى بالشام أميراً ـ وحدثت عن أبي مسهر عن سعيد بن عبد العزيز(١) ، قال : كان علي رضي الله عنه يدعى بالعراق أمير المؤمنين ، وكان معاوية يدعى بالشام الأمير فلما قتل علي رضي الله عنه دعي معاوية : أمير المؤمنين .

ولا بد من أن تتضح أمام الناس طبيعة هذا الصلح ؛ لذلك طلب معاوية رضي الله عنه من الحسن بن علي أن يخطب في المسلمين، وقال له :

قم فاخطب الناس واذكر ما كنت فيه ، فقام الحسن فخطب فقال (٢) :

الحمد لله الذي هدى بنا اولكم ، وحقن بنا دماء آخركم .

الا إن أكيس الكيس التقى ، واعجز العجز الفجور .

وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون أحق به مني ، وإما أن يكون حقي ، فتركناه لله ولصلاح امة محمد ﷺ وحقن دمائهم .

---

(١) ابو مسهر : مقبول . سعيد بن عبد العزيز : ثقة إمام ، اختلط في آخر عمره . جعله الامام أحمد كالأوزاعي .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣٧٤/١) .

قال : ثم التفت إلى معاوية فقال :

« وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » .

ثم نزل فقال عمرو لمعاوية : ما أردتَ إلا هذا) (١) .

فهذه نفسية الحسن ، نفسية المسلم الذي تربى في حضن محمد ﷺ . فلقد تنازل حقناً لدماء المسلمين ، ولصلاح الأمة ، ولم يتنازل عن عجز أو ضعف ؛ بل كانت جماجم المسلمين بيده . حتى لقد قال له بعض المغضبين من صنيعه : السلام عليك يا مذل المؤمنين !!

فأجابه : لا تقل ذلك يا أبا عامر ، لم أذل المؤمنين ؛ ولكني كرهت أن أقتلهم في طلب الملك(٢) .

* * *

---

(١) وأخرجه الحاكم أيضاً (٣ : ١٧٥) . والبيهقي (٨ : ١٧٣) عن الشعبي بنحوه؛ انظر : حياة الصحابة ج٢ ص٦٩٩،ط دار القلم .

(٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٦٩٨ ، عن الحاكم في مستدركه (٣ : ١٧٥) ، وابن عبد البر في الاستيعاب (١ : ٣٧٢) .

دَاهِيَتَا العَرَب يَنضَمَّان إلىٰ معَاوِيَة

أما قيس بن سعد فقد بايعه المسلمون أميراً عليهم بعد تنازل الحسن رضي الله عنه ، وتعاهدوا معه على قتال معاوية .

(وخلص معاوية حين فرغ من عبد الله بن عباس والحسن رضي الله عنهم إلى مكايدة رجل هو أهم الناس عنده مكايدة ، ومعه أربعون ألفاً . وقد نزل معاوية بهم وعمرو وأهل الشام . وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله ويقول : على طاعة من تقاتل . وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك ؟! فأبى قيس أن يلين له) (١) .

وليست هذه هي التجربة الأولى لمعاوية مع قيس رضي الله عنهما ، لقد كانت المحاولة الأولى حين كان قيس بن سعد أمير مصر ، وبذل معاوية كل طاقاته ودهائه ليلين جانبه فعجز . ولا زلنا نذكر كيف غضب معاوية غضباً شديداً يوم اضطر والي المدينة قيساً أن يمضي إلى الكوفة ، وقال يومئذ :

(أمددتما علياً بقيس بن سعد ورايه ومكايدته ! فوالله لو

---

(١) الطبري ج٥ ص١٢٥ وهي رواية عبد الله بن احمد عن أبيه عن سليمان بن الفضل عن عبد الله عن يونس عن الزهري وسبق أن تكلمنا عن رواتها من قبل وهي عموماً مقبولة .

انكما أمددتماه بمائة الف مقاتل ما كان بأغيظ إلي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي) .

وبذل محاولات مضنية في استدراجه إلى صفه ؛ لكنه لم يفلح .

لكن الفرق واضح بين موقفين :

الموقف الأول : وهو موالٍ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

الموقف الحالي : ليس له امير يواليه !!

وليس من شيمة قيس وخلقه أن يشق عصا الطاعة ، فهو الذي راب صدع المسلمين في سقيفة بني ساعدة ، وبايع الخليفة أبا بكر وترك أباه . وهو الذي اختاره رسول الله فأعطاه راية قومه ليعز قريشاً يوم فتح مكة بعد ان نزعها من ابيه .

وحتى يؤكد معاوية ثقته بقيس :

(ارسل إليه بسجل قد ختم عليه في أسفله . فقال :

اكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك)(١) .

واستغرب عمرو بن العاص هذا التساهل من معاوية امير المؤمنين إلى هذا الحد . وهو يرى أن جانب معاوية قد رجح ، ولم يعد ينازعه أحد ، فلم لا يقاتل قيس بن سعد ، ويضطره للخضوع له او يقتله ؟!

---

(١) الطبري ج٥ ص١٢٥ الرواية السابقة .

أما منطلق معاوية رضي الله عنه فهو الهدي النبوي في معرفة الرجال وفقه معاملتهم . إنــه يريد أن يمسح جراحات القلوب ، والمحاولة الدؤوبة للحل المقنع ما دام في قوس الصبر منزع . وفرق كبير بين أن يخضد شوكة الخصوم أو يستأصلهم ، وتبقى الأحقاد والضغائن فيمن تبقى منهم ؛ وبين أن يجبر مصيبتهم ويؤلف قلوبهم ويكسب ودهم .

(قال عمرو لمعاوية : لا تعطه هذا وقاتله .

قال معاوية : على رسلك ، فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام ؛ فما خير العيش بعد ذلك !! وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدآ) (١) . وكانت خطة حكيمة غاية الحكمة ، فلقد اضطر معاوية قيساً أن يفتح صدره للأمن والسلام معه رغم شديد تحمسه للحرب من قبل .

(واشترط قيس فيه له ولشيعة علي الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ولم يسأل معاوية في سجله ذلك مالاً .

وأعطاه معاوية ما سأل)(٢) .

ورغم أنها مخاطرة كبيرة ولا شك . فكثير أولئك الذين تتلظى قلوبهم حقداً على معاوية . وكثير أولئك الذين قد يفتحون حرباً عنيفة عليه في كل وقت . لكن تفتيت هذا الجمع وإعطاءه الأمان هو ربح كبير لمعاوية في صفوف رعيته ، وكسب قيس بن سعد لجانبه

(١ــ٢) الطبري ج٥ ص١٢٥ الرواية السابقة .

هو أكبر الأرباح في تصوره ، لأنه يعدل عنده مائة ألف في موازين الرجال ، بسبب دهائه وصبره ، وحنكته وشجاعته .

واعطاه معاوية ما سأل ، ودخل الكوفة التي وقفت ضـــده أربع سنين متوالية . وما هي إلا أيام قليلة حتى توجه خارجاً من الكوفة ، وقد نكأ الجرح الذي عانى منه طويلاً .

* * *

وتحركت الكتائب الأولى للخوارج .

إنه وهو في النخيلة تداعت الحرورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعي قائلة :

قد جاء الآن مالاشك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه .

وابتدأت خطواتهم الأولى بالاستيلاء على الكوفة .

واراد معاوية أن يجنب أهل الكوفة مقاومة الخوارج ، فبعث خيلاً من أهل الشام ، وما إن كان اللقاء بين الفريقين حتى انكشف أهل الشام وعادوا مهزومين .

وتدبر معاوية الأمر . . لا بد من حل حازم .

إنه لا يتقن الحرب مـــع الخوارج إلا بنو جلدتهم مـــن أهل الكوفة .

وكما تحدث عن نفسه ، فقد خلقه الله للمعضلة ، وهذا باب واسع إن فتح عليه من الخوارج فلن يغلق ، وهو قد يجرىء الخوارج على غزو الشام إن بدا تراجع جيش الخلافة ، وعزم عندئذ عزمته القوية ، وأمر مناديه أن ينادي أهل الكوفة :

لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم .

وهذا تهديد خطير يلف اهل الكوفة الذين غدوا في قبضة معاوية ، فكان ان تسارعوا إلى سيوفهم ، ومضوا إلى قتال الخوارج فقاتلوهم .

وقالت الخوارج : ويلكم ما تبغون منا ، اليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم ، وإن اصابنا كنتم قد كفيتمونا .

قالوا : لا والله حتى نقاتلكم .

فقالوا : رحم الله إخواننا من أهل النهر هم كانوا أعلم بكم منا يا أهل الكوفة (١) .

ولم تجد المناقشات ، وكان لا بد من الحرب .

واجهز اهل الكوفة على الخوارج ، واعادوا الكوفة مرة ثانية إلى ظئر الخلافة .

والبصرة البلد الثاني في العراق ، هل استسلم لمعاوية بسهولة؟

عادت التحركات من جديد فهذا حمران بن أبان يغلب على البصرة ، ويحكمها ويصرف الأمور فيها ، فيسارع أمير المؤمنين معاوية ، ويرسل احد بني القين إليها .

غير ان الخبير المجرب في العراق لم ينصحه بذلك ، ومن هو هذا الخبير ؟

---

(١) الطبري ج٥ ص١٢٦ سنة ٤١ وهي رواية زياد عن عوانة .

إنه شخصية جديدة كانت قبل لأي من اشد المخاصمين ، وانكى الأعداء له . ولكن الإسلام العظيم الذي ربى هذا الجيل على مفهوم الجماعة ؛ علمه الانصياع للعقيدة لا للعاطفة . إنه الساعد الأشد لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأحد دهاة العرب وقادتها ، وترجمان القرآن الكريم : حبر الأمة عبد الله بن عباس . وسنلتقي مع ابن عباس من الآن كثيراً ، بصفته المستشار الأمين لأمير المؤمنين معاويــة .

أشار ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية أن يولي عليها بسر بن أبي ارطاة . وابن عباس أدرى الناس بالبصرة وأهلها فهو والي أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عليها طيلة حياته .

واستجاب معاوية حالاً لمشورة ابن عباس ، وولى بسراً على البصرة ، فاستطاع أن يذللها له ويهيئها للطاعة لإمام المسلمين .

* * *

كانت الكوفة بلا شك هي أخطر البلدان على الإطلاق ، إنهــا مركز الخلافة الأول ومركز شيعة علي رضي الله عنه ، واكبر تجمع خطر على معاوية وخلافته .

فمن لها ؟

فكر معاوية كثيراً ، ورأى أن مصر محفوظة مضبوطة من عمرو ابن العاص . ولكن أين له مثل عمرو ؟

وفكر ملياً في الأمر : فليجرب ابنه عبد الله ، فولاه الكوفة ، ولم يمر طويلاً على توجيه الوالي الجديد حتى كان الداهية الشهير ؛ المغيرة بن شعبة يستأذن عليه ويقول له بعد معرفته بولاية ابن عمرو :

استعملت عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ، وعمراً على مصر فتكون انت بين لحيي الأسد !

ولعل كلمة المغيرة لم تجد وقعاً مهماً لدى معاوية . لكن أليس هذا الذي امامه المغيرة ، داهية ثقيف المحنك المجرب ؟! لم لا يرمي به في خضم الكوفة ، وهو اعرف الناس اليوم بما في الكوفة ؟!

ويالها من موافقات عجيبة ، فيوم كانت الكوفة تصدع رأس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فينقل همه للمغيرة بن شعبة أن أهل الكوفة لا يعجبهم أمير ، فمن يضبطها له ؟

ويقترح المغيرة النوعية المؤهلة للكوفة في مواصفاتها وحنكتها ، فلا يجد عمر غير المغيرة يحمل هذه المواصفات . فيقول له :

اذهب فليس لها إلا أنت .

ويصبح المغيرة والي عمر على الكوفة،وما اعرف عمر بالرجال!!

الموقف نفسه ، يستثير كل اهتمام معاوية ، وينظر بالمغيرة ، ويستعرض الكوفة ، فيعلم أن ليس لها إلا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب المغيرة بن شعبة . واصدر امره بالحال ، فعزل عبد الله بن عمرو ، واستعمل المغيرة على الكوفة ، وهكذا انضمت هذه الطاقة العبقرية إلى معاوية أمير المؤمنين .



الدّاهيَة الثالث وَالليْث المتربّص

كان هناك في اقصى الأرض الإسلامية ليث متربص شديد ، وكان هو آخر من يخشاه امير المؤمنين معاوية . فلقد كان في ذكائه ودهائه لا يقل عن قيس بن سعد او عبد الله بن عباس اللذين أعطياه بيعتهما وثمرة قلبيهما .

كان زياد بن ابيه هو ذاك الليث الذي يقلق معاوية ويقض مضجعه ، فهو يخشى ان ينتقض بالمسلمين في فارس . وبدأ معاوية خطواته الأولى في هذا الميدان ، هذه الخطوات التي تعطينا صورة فذة عن عبقريته في أصول السياسة والإدارة والحكم ، وكيف استطاع بما وهبه الله من حلم واناة وتعقل ؛ ان يضم تحت جناحه اكبر المبغضين له .

كانت الخطوة الأولى رسالة بعث بها امير المؤمنين معاوية إلى زياد قال فيها :

(إن في يديك مالاً من مال الله ، وقد وليت ولاية ، فأد ما عندك من المال) (١) . وقرأ زياد الرسالة ، وبعث على جناح السرعة جوابه الآتي بعد حمد الله وثنائه :

---

(١) الطبري ج٥ سنة ٤١ هـ . عن احمد بن زهير عن علي بن محمد عن سليمان بن بلال عن الجارود بن ابي سبرة .

(إنه لم يبق عندي شيء من المال ، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه ، واستودعت بعضه قوماً لنازلة إن نزلت، وحملت ما فضل إلى امير المؤمنين رحمة الله عليه) (١) .

عرف معاوية من الرسالة انه لن يظفر بما في يد زياد ، وحاول ان يظهر له كل ود ، ويذلل الصعاب أمامه فكتب له :

(ان اقبل إلي ننظر فيما وليت وجرى على يديك ، فإن استقام بنا امر فهو ذاك وإلا رجعت إلى مأمنك) .

ولكن زياداً اعتصم بفارس ، ولم تلن قناته ، ولم يرض بالقدوم على معاوية .

وبقيت المعضلة تملأ راس معاوية ، وتملك عليه فؤاده .

لقد قال معاوية يوماً عن زياد : إنه لكل صغيرة وكبيرة .

فكم الفرق بين ان يكون زياد ابو المعضلات له أو عليه .

وبلغ بسر بن ابي ارطاة ان زياداً استعصى على أمير المؤمنين ، وحسب ان القوة هي السلاح الوحيد الذي يحل المستعصي من الأمور .

وسارع فألقى القبض على أولاد زياد جميعاً ، وزج بهم في السجن ، وقام من توه فكتب رسالة إلى زياد يقول فيها :

لتقدمن على امير المؤمنين أو لأقتلن بنيك .

وكانت الرسالة غصة في حلق زياد ، لكن رجولته ابت عليه

---

(١) الطبري ج٥ سنة ٤١ ، الرواية التي في الصفحة السابقة .

ان ينقاد انقياد الذليل ، ويستسلم استسلام العبيد ؛ فكتب جواب الرسالة من نفس شجية مثخنة بالجراح :

لست بارحاً من مكاني الذي انا به حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك ، فإن قتلتَ من في يديك من ولدي ، فالمصير إلى الله سبحانه ، ومن ورائنا وورائكم الحساب : (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون) .

وكان المفروض ان تثني هذه الرسالة عزم بسر عن القتل استحياءً وخوفاً من حكم الله ، لكنه صمم على قتلهم ، وانتشر النبأ في البصرة ، وتناهي إلى ابي بكرة صاحب رسول الله ، وكان اخا زياد من امه .

وابو بكرة قد حبس ولده مع ولد اخيه ، وبات في شر ليلة .

إنه ليس من السهل ابداً ان يقدم على الأمير ، وقد اهانه من قبل ، وعرض نفسه للقتل .

كان ذلك يوم خطب بسر على منبر البصرة فشتم علياً رضي الله عنه ثم قال :

نشدت الله رجلاً علم اني صادق إلا صدقني او كاذب إلا كذّبني .

فقال ابو بكرة : اللهم لا نعلمك إلا كاذباً !!

فأمر به فخنق ، فقام ابو لؤلؤة الضبي فرمى بنفسه عليه فمنعه ، فأقطعه ابو بكرة بعد ذلك مائة جريب .

وقيل لأبي بكرة :

ما اردت إلى ما صنعت ؟

قال : أيناشدنا بالله ثم لا نصدقه (١) ؟!!

استعاد بذكرياته تلك الحادثة يوم كادت نفسه تتلف ، وعادت عوالج همومه تتوالى ، وهو يرى بسراً مصمماً على قتل بنيه ، وبني اخيه ، وخيِّل إليه ان ولده وولد اخيه صرعى على بابه ، فانتفض انتفاضة المذعور ، وصمم على ان يدخل على الأمير ، ولو كلفه ذلك حياته .

لم يذق للنوم طعماً وهو يرقب انبلاج الفجر ، وما إن تدلت خيوط الشمس حتى كان على راحلته ماضياً إلى الأمير ، حيث استأذن عليه ودخل وبادره قائلاً :

اخذت ولدي وولد أخي غلماناً بلا ذنب ، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب علي حيث كانوا ؛ فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل .

قال بسر : إن على اخيك اموالاً قد أخذها فامتنع من أدائها .

قال : ما عليه شيء .

وهمّ بسر أن يتكلم ، فقاطعه أبو بكرة قبل أن يفلت زمام الكلام من يده فقال : فاكفف عن بني أخي حتى آتيك بكتاب من معاوية بتخليتهم .

ولم يصدق نفسه انه ضمن حياة بنيه وبني أخيه لفترة حتى مضى يسابق الريح نحو معاوية .

---

(١) الطبري : عن عمر بن شبة عن علي بن محمد سنة ٤١ هـ ج٥ ص١٢٨ .

وسبقت الأخبار إلى معاوية رضي الله عنه بمقدمه ، فاحتفى به أمير المؤمنين أعظم حفاوة ، وقال :

ـ يا أبا بكرة ازائراً جئت ، أم دعتك إلينا حاجة ؟

ـ لا أقول باطلاً ما جئت إلا لحاجة .

ـ تشفع يا أبا بكرة ، ونرى لك بذلك فضلاً ، وانت لذلك أهل ، فما هو ؟

ـ تؤمن أخي زياداً ، وتكتب إلى بسرٍ بتخلية ولده ، وبترك التعرض لهم .

وهكذا وفي الوقت الذي كاد أبو بكرة رضي الله عنه أن يخنق على يدي بسر بن أبي أرطاة ؛ كان لدى معاوية أمير المؤمنين مبجلاً معززاً مكرماً !!

لقد كان معاوية أرحب افقاً ، وابعد مدىً من المحيط الذي حوله ، لقد كانت تطلعاته إلى دولة إسلامية يسودها الرخاء والعدل، وينتهي سيل الدماء فيها إلى الأبد . وها هو يرى أبا بكرة الصحابي العظيم ، فحنا عليه ، ورقّ له وجدانه العظيم ، واكرمه ، وقال له :

اما بنو زياد فنكتب لك فيهم ما سألت .

واما زياد ففي يده مال المسلمين، فإذا اداه فلا سبيل لنا عليه .

ـ يا أمير المؤمنين إن يكن عنده شيء فليس يحبسه عنك إن شاء الله . فكتب معاوية لأبي بكرة كتاباً إلى بسر الاّ يتعرض لأحدٍ من ولد زياد .

وراى معاوية فرصة سانحة ان ينهل من معين النبوة العظيم ـ وابو بكرة احد تلامذتها ـ فتوجه إلى أبي بكرة يقول : (اتعهد إلينا عهداً يا أبا بكرة ؟!

قال : نعم . اعهد إليـك يا أمير المؤمنين أن تنظـر لنفسك ورعيتك وتعمل صالحاً ؛ فإنك قد تقلّدت عظيماً : خلافة الله في خلقه . فاتق الله فإن لك غاية لا تعدوها ،ومن ورائك طالب حثيث، فأوشك أن تبلغ المدى فيلحق الطالب ، فتصير إلى من يسألك عما كنت فيـه ، وهو أعلم به منـك . وإنما هي محاسبة وتوقيف ، فلا تؤثرنّ على رضا الله عز وجل شيئاً) (١) .

واقبل اليوم السابع ـ وهو آخر أيام عودة ابي بكرة ـ وسحب الغم تتكاثف لدى المسلمين بالكوفة ، خوفاً من أن ينفذ بسر تهديده .

وطلعت الشمس واخرج بسر بني زياد ينتظر بهم غـروب الشمس ليقتلهم إذا وجبت .

فاجتمع الناس لذلك ، واعينهم طامحة ينتظرون ابـا بكرة . إذ رُفع لهم على نجيب أو برذون يكده ويجهده .

فقام عليه فنزل عنه والاح بثوبه وكبر وكبر الناس ، فأقبل يسعى على رجليه حتى ادرك بسراً قبل أن يقتلهم ، فدفع إليه كتاب معاوية فأطلقهم !!

وهكذا وافق معاوية امير المؤمنين على إطلاق سراح بني زياد ، والمتسرع العجول يرى في هذا التصرف من معاوية تهوراً شديداً ، لكن صبر معاوية وحلمه كان يفتت كل المصاعب ، فلقد خلق للمعضلة كما تحدث عن نفسه ، ومع هذا فقد كادت هذه المعضلة تنهكه .

انتظر أشهراً لعل ابا بكرة يقدر ان يقنع زياداً بالبيعة فلم يحصل على شيء ، وبات ذات ليلة يتقلب على فراشه لا يجد النوم إلى عينيه سبيلاً ، فليس زياد ممن يستهان به ، وحاول معاوية

---

(١) الطبري ج٥ ص ١٢٩ .

أن يتسلى بالناس عن هذا الهم ، فأذن لمن يريد الدخول عليه ، ودخل عليه داهية العرب المغيرة بن شعبة ، فرحب به ترحيباً حاراً . فقد جاءه من يبثه شكاته ، علّه يعينه على همه . فإن ثقيف قوم مناكير ، ولعل دهاء المغيرة يذلل الصعاب .

وقال معاوية حين نظر إليه :

إنما موضع سر المرء إن ... باح بالسر اخوه لمنتصح
فإذا بحت بسر فإلى ... ناصح يستره أو لا تبح

ولقد كنا عهدنا المغيرة في بداية الفتنة بجوار علي رضي الله عنه وهو الذي اقترح على أمير المؤمنين علي أن لا يعزل معاوية ، لأنه يدرك شخصية معاوية ومدى سلطانه في الشام،ثم إنه اعتزل الفتنة. أما الآن فهو عند أمير المؤمنين معاوية يضع طاقاته وعبقريته بين يديه ، وهو الآن واليه على الكوفة .

وعندما وجد معاوية مهموماً ، قال له :

يا أمير المؤمنين إن تستودعني تستودع ناصحاً شفيقاً ، ورعاً وثيقاً ، فماذاك يا أمير المؤمنين ؟!

معاوية : ذكرتُ زياداً واعتصامه بأرض فارس ، وامتناعه بها ؛ فلم أنم ليلتي .

واحب المغيرة أن يهوّن من شأن زياد وخطره ليخفف من قلق الخليفة فقال :

ــ ما زياد هناك يا أمير المؤمنين !

ــ بئس الوطء العجز !!

داهية العرب معه الأموال متحصن بقلاع فارس ، يدبر ويربص الحيل ما يؤمنني أن يبايع لرجلٍ من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعاد علي الحرب جذعة .؟!

ــ أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه ؟

ــ نعم فأته وتلطف له .

وهيأ المغيرة رحله ، وجمع حوائجه ، ومضى يكد السير إلى فارس .

وطرق المغيرة باب زياد بفارس .

فسأل عمن في الباب فقيل له : المغيرة بن شعبة ، فخرج مهرولاً يستقبل ضيفه الكبير المغيرة الذي لم يلقه من وقت طويل .

وقال زياد : أفلح رائد .

واهتبلها المغيرة فرصة سانحة يتحدث فيها عما بدا له بعد أن رحب زياد به وأدناه .

وقال المغيرة : إليك ينتهي الخبر أبا المغيرة ، إن معاوية استخفه الوجل حين بعثني إليك .

وهنا سكت المغيرة هنيهة ، وتفرس في وجه زياد ليرى وقع الكلام عنده فوجده مصغياً بكليته إليه فتابع قائلاً :

ولم يكن يعلم أحداً يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع معاوية . ثم اختلس نظرة ثانية تفحص بها وجه زياد ؛ فوجده على أشد ما يكون من الاهتمام .

قال عندئذٍ : فخذ لنفسك قبل التوطين ، فيستغني عنك معاوية .

زياد : أشر عليَّ ، وارمِ الفرض الأقصى ، ودع عنك الفضول فإن المستشار مؤتمن .

المغيرة : في محض الراي بشاعة (لب الراي) ولاخير في المذيق (هامشه) .

ارى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله .

زياد : أرى ويقضي الله .

وعاد المغيرة أدراجه من حيث جاء .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد زياد بين يديه كتاباً من أمير المؤمنين ، ففضه فإذا فيه :

علام تهلك نفسك . فأقبل إلي فأعلمني علم ما صار إليك مما اجتبيت من الأموال وما خرج من يديك ، وما بقي عندك وأنت آمن ؛ فإن احببت المقام عندنا اقمت ، وإن احببت ان ترجع إلى مأمنك رجعت .

وكانت هذه الرسالة هي الحاسمة في الأمر ، فإشخاص المغيرة إليه ، والوثيقة الخطية بيده ، ليؤكدان حرص معاوية على سلامته وأمانه . فعزم على السير دون تردد ، ومضى يقطع سهوب فارس وجبالها الوعرة يركب كل صعب وذلول حتى قدم الشام ، ونزل على أمير المؤمنين معاوية .

وكان لقاءً طالما انتظره معاوية ، واحسن استقبال زياد ، واحتفى به ، وانتقل بعدها للموضوع الذي اشجاه . موضوع المال الذي يقدر به زياد أن يزعزع الحكم ، ويزحزح الأرض من تحت معاوية .

وحق لمعاوية هذا الخوف .

فالرايات السود التي اقبلت من فارس والتي بايعت لرجل من آل بيت النبي ، هي التي قوضت دعائم الدولة الأموية واجتثتها بعد قريب من مائة عام .

و (سأل معاوية زياداً عما صار إليه من أموال فارس ، فأخبره بما حمل منها إلى علي رضي الله عنه ، وما أنفق منها في الوجوه التي يحتاج فيها إلى النفقة ، فصدّقه معاوية على ما أنفق ، وما بقي عنده ، وقبضه منه وقال :

قد كنت أمين خلفائنا) (١) .

قال زياد : يا امير المؤمنين قد كان لي مال قبل الولاية فوددت ان ذلك المال بقي ، وذهب ما أخذت من الولاية .

وكان المغيرة يتنسم اخبار زياد ، فما إن عرف بتوجهه لأمير المؤمنين ، حتى مضى إلى الشام ، واخر وصوله إليها شهراً بعد وصول زياد .

قال معاوية : يا مغيرة، زياد أبعد منك بمسيرة شهر، وخرجت قبله وسبقك .

فقال : يا أمير المؤمنين إن الأريب إذا كلم الأريب أفحمه .

قال : خذ حذرك ، واطوِ عني سرّك .

فأجاب المغيرة :

إن زياداً قدم يرجو الزيادة ، وقدمت اتخوف النقصان .

---

(١) الطبري ج٥ ص ١٧٨ رواه ابن جرير عن عمر بن شبة (ثقة) عن علي بن محمد (صدوق) عن مسلمة بن محارب (لا اسم له) .

وهكذا التقى الدهاة الثلاثة ، وكان رابعهم عمرو بن العاص متربصاً في مصر . أما الداهيتان الآخران فقد اكتفى منهما معاوية بالاستشارة . وكان هؤلاء جبالاً في الدهاء والحكمة ، لكن زياداً لا يزال حتى الآن تحت الاختبار .

واستأذن زياد معاوية أن يمضي للإقامة في الكوفة ، فأذن له على حذر :

فالخليفة يعلم أن الكوفة معقل خصومه ، وهم وإن دخلوا في البيعة والولاية لكن قلوبهم لا تزال منطوية على البغضاء له .

نزل زياد الكوفة ، وأخبار معاوية تلاحقه ، وزياد يعلم أن معاوية لا بد وأن يلاحقه ، فسلك سبيلاً هيناً حيث ربط حبله بحبل المغيرة بن شعبة أمير الكوفة . وتناهى إلى معاوية بعض الأخبار أن زياداً قد يتفلت من الجماعة بعض الأحيان ، فأسرع بإرسال كتاب هذا نصه :

خذ زياداً وسليمان بن صرد ، وحجر بن عدي ، وشبث بن ربعي ، وابن الكواء ، وعمرو بن الحمق ، بالصلاة في الجماعة .

فكانوا يحضرون معه الصلاة .

واحب المغيرة أن يكرم زياداً أكثر فأكثر ، فعندما حضرت الصلاة قال له : تقدم فصل .

فقال : لا أفعل أنت أحق مني بالصلاة في سلطانك(١) .



---

(١) الطبري ج٥ ص ١٨٠ . عمر بن شبة عن علي بن محمد عن سليمان بن أرقم (ضعيف) .

شيعة عليّ في وجه المارقين

السنة الثالثة من خلافة معاوية تدلف ، والخلاف بين المسلمين تفتت أوكاد ، وحلم معاوية يذيب المعضلات . ولقد آن الأوان للتطلع إلى الجهاد من جديد ، بعد أن تعطل اربع سنين أو يزيد . فكان عوداً على بدء ، وبدأت الغزوات تتوالى في أرض الروم ، وحوّل معاوية بسر بن ابي ارطاة من البصرة إلى قيادة الجيش على الثغور الإسلامية ، فلقد كان شديداً في ولايته ، فلتكن هذه الشدة على أعداء الله . وتفرغ معاوية لمشاكل المسلمين ، وكان الحدث الذي هزه في هذا العام هو نبأ وفاة عمرو بن العاص الذي كان يكفيه ارض مصر ، فسارع وولى ابنه عبد الله هناك . ومن مثل عبد الله في صلاحه وتقواه (١) .

---

(١) ولنحضر عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يعالج سكرات الموت :

روى الإمام احمد عن عبد الرحمن بن شماسة قال :

(لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى، فقال له ابنه عبد الله : لم تبكي ؟ أجزعاً من الموت ؟

فقال : لا والله ولكن مما بعد الموت .

فقال له :

قد كنت على خير ، فجعل يذكره صحبة رسول الله وفتوحه الشام .

فقال عمرو : تركت أفضل من ذلك كله شهادة أن لا إله إلا الله .)

←

وبينا هو كذلك ، **إذ فتحت عليه ثغرة داخلية كبيرة حيث اشتعلت ثورة الخوارج في العراق . لكن قلقه من جراء هذا الحدث**

→

وراح عمرو يستعرض شريط حياته كله . فقال :

(إني كنت على ثلاثة أطباق ليس فيها طبق إلا عرفت نفسي فيه :

كنت اول قريش كافراً ، وكنت اشد الناس على رسول الله ﷺ فلو مت حينئذ وجبت لي النار .

فلما بايعت رسول الله ﷺ كنت اشد الناس حياءً منه ، فما ملأت عيني من رسول الله ، ولا راجعته فيما اريد حتى لحق بالله حياءً .

فلو مت يومئذ قال الناس : هنيئاً لعمرو أسلم وكان على خير فمات عليه نرجو له الجنة .

ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء . فلا أدري عليّ أم لي ، فإذا مت فلا تبكين علي باكية ، ولا يتبعني مادح ولا نار ، وشدوا عليّ إزاري فإني مخاصم ، وشنوا عليّ التراب شناً ، فإن جنبي الأيمن ليس احق بالتراب من جنبي الأيسر ، ولا تجعلن في قبري خشبة ولا حجراً ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحرجزور أستأنس بكم) .

وقد روى مسلم هذا الحديث في صحيحه من حديث يزيد ابن أبي حبيب بإسناده نحوه .

ولعل هذا العرض الذي قدمه عمرو بن العاص رضي الله عنه لأطباقه الثلاثة هو الذي يعطينا صورة عن نفسيته في موقفه مع معاوية ، إنه اجتهد . ولا يدري أصاب باجتهاده ام اخطأ ، وعمل ما في وسعه لتحري الحق وهو يسأل الله عز وجل المغفرة إن اخطأه الصواب .

لم يكن كبيراً ، فهو يعلم أن المغيرة بن شعبة ابو المعضلات ، وكان من عبقرية المغيرة ان وجه الطاقات الكامنة المتفجرة في الشجاعة والبطولة إلى قتال الخوارج ، إذ ابتدأ خطواته عندما علم بخروجهم فقال : قد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكف عنكم الأذى ، وإني والله لقد خشيت أن يكون ذلك ادب سوءٍ لسفهائكم . فأما الحلماء الأتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بدأ من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل (١) .

إنها بوادر تغيير جديدة في سياسة المغيرة ، وما استطاع امرؤ أن يسبر نفسية أهل الكوفة ، ويقدر على حل مشاكلهم مثل المغيرة بن شعبة ، وهو الذي اختاره أمير المؤمنين عمر ليحل معضلة اهل الكوفة ، وأحس اهل الكوفة بالوجل خاصة عندما رأوا اللهجة الصارمة في حديثه والتهديد العنيف الذي يقول :

(فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف ؛ وايم الله لا يخرجون في حي من احياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم ، وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار) (٢) .

وتحرك اكبر سادات الكوفة : معقل بن قيس الرياحي ، والذي كان من كرام شيعة علي فقال :

---

(١) الطبري ج٥ ص١٨٢ ، سنة ٤٣ .

(٢) الطبري ج٥ ص١٨٢ ـ ١٨٣ ، سنة ٤٣ .

أيها الأمير هل سمّي لك أحد من هؤلاء القوم ؟ فإن كانوا سموا لك ، فأعلمنا من هم فإن كانوا منا كفيناكهم ، وإن كانوا من غيرنا ، أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها .

قال المغيرة : ما سمي لي أحد منهم ، ولكن قد قيل لي إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر .

أجاب معقل : أصلحك الله فإني اسير في قومي ، واكفيك ماهم فيه ؛ فليكفك كل امرىءٍ من الرؤساء قومه .

واهتبلها المغيرة من فم معقل بن قيس ، فبادر فوراً بالدعوة إلى اجتماع مغلق لرؤساء الكوفة .

ولما التأم الشمل قام فيهم خطيباً فقال :

إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ؛ فليكفني كل امرىءٍ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره (لأتحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلم لائم إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر) (١) .

وانتهى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه من إنذاره ليتحرك الرؤساء جميعاً إلى عشائرهم ، فناشدوهم الله والاسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة او يفارق جماعة .

ونجحت خطة المغيرة أيما نجاح ، لقد حرك الآساد من آجامها ، وراحت الكتائب تترى تحمساً للقتال ، وكأنما علي أمير المؤمنين هو الذي يقودها .

---

(١) الطبري ج٥ ص١٨٢ ــ ١٨٣ ، سنة ٤٣ .

هذا صعصعة بن صوحان رئيس عبد قيس ـ والخوارج بين ظهرانيهم ـ يخطب قومه قائلاً :

إن الله ـ وله الحمد كثيراً ـ لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتم إلى دين الله الذي اختاره لنفسه ، وارتضاه لملائكته ورسله ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله ﷺ ، ثم اختلف الناس بعده فثبتت طائفة وارتدت طائفة ، وأدهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمتم دين الله إيماناً به وبرسوله وقاتلتم المرتدين حتى قام الدين وأهلك الله الظالمين .

فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء وعلى كل حال حتى اختلفت الأمة بينها ، فقالت طائفة نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة نريد أهل المغرب ، وقالت طائفة نريد عبد الله بن وهب الراسبي راسب الأزد .

وقلتم أنتم : لا نريد إلا اهل البيت الذين ابتدانا الله من قبلهم بالكرامة تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخذين به ؛ حتى أهلك الله بكم وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم الناكثين يوم الجمل ، والمارقين يوم النهر .

(وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذٍ سلطانهم) .

ولا قوم أعدى لله ولكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجماعة المسلمين؛ من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إمامنا ، واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر .

فإياكم ان تؤوهم في دوركم ، أو تكتموا عليهم ؛ فإنه ليس ينبغي لحي من احياء العرب ان يكون اعدى لهذه المارقة منكم ، وقد

والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي ، وانا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حكي لي ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم فإن دماءهم حلال ، ثم قال :

يا معشر عبد القيس : إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرايكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

ثم تنحى فجلس) (١) .

وكان لابد لصعصعة أن يستعرض مواقف عشيرته ، ليضعهم على الخط الأقوم الذي يحملون عباه منذ ان دخلوا افواجاً في دين الله ، واستطاع أن يجعل عشيرته صفاً واحداً معه ضد الخوارج ، وكان جريئاً في الحق حيث تحدث عن نصرته لآل البيت ، وانه مع قومه من أتباعهم . وبهذه الخطة انتزع من كل رؤساء عشيرته موافقته ، فكل قومه قال : لعنهم الله وبرىء الله منهم ، فلا والله لا نؤوينهم ، ولئن علمنا بمكانهم لنطلعنك عليهم .

غير سليم بن محدوج الذي اختفى الخوارج عنده ، حيث مضى إلى بيته والهم يعتلج في صدره ، وضيقه جاثم على أنفاسه ، وعرف الخوارج ذلك منه، فما طلع الفجر، وفي بيته منهم مخبر) (٢) .

فلقد رحلوا بعيداً دون أن يبقى منهم أحد .

وكان الأولى بسليم أن يهيىء المجال لحصر الفتنة ، والقبض عليهم قبل انتشارهم ، وانتشار الفتنة معهم اين حلوا واينما رحلوا ؛

---

(١) الطبري ج٥ ص ١٨٦ .

(٢) الطبري ج٥ ص ١٨٧ .

غير انه رفض أن يخفر ذمته ويغدر بمن وثق به ، ولم يجد حلاً إلا الرحيل .

اما صعصعة بن صوحان فقد صحا ، ومع الضحى مضى إلى الأمير المغيرة بن شعبة تتنازعه هواجس شتى ؟!!

ترى هل يكون على قيادة الحملة التي تقابل الخوارج ؟!!

لكن بينه وبين الأمير بعض الملامة ، وحب آل البيت مشتعل في فؤاده ، ولكم نصحه الأمير أن يكف عن مديحهم في المجالس العامة، لكن دون جدوى ؛ كما أن هناك منافسين آخرين قد يصلون إلى قيادة الحملة ضد هؤلاء المارقة ، لكن لا عليه ، فهو يعرض نفسه رغم خطورة المهمة التي يمضي بها .

ووصل صعصعة إلى مجلس الأمير ، وقبل أن تفوته الفرصة في المجلس أسرع ليعرض نفسه لقيادة حملة الخوارج ، وهو يدافع شكوكه بعتب الأمير عليـه ، لكنه لا يمكن أن يبتدىء بالحديث في مجلس امير الكوفة ، فأخذ ينتظر الفرصة السانحة .

واتت الفرصة حين افتتح الأمير الحديث بعد حمد الله والثناء عليه بقوله ـ وحوله رؤساء الناس ـ : إن هؤلاء الأشقياء قد اخرجهم الحين ـ الهلاك ـ وسوء الراي ، فمن ترون أبعث إليهم ؟!

فقال عدي بن حاتم : كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه ، وبطاعتك مستمسك ، فأينا شئت سار إليهم .

وقال معقل بن قيس : إنك لا تبعث اليهم أحداً ممن ترى حولك من اشراف المصر إلا وجدته سامعاً مطيعاً ، ولهم مفارقاً ولهلاكهم محباً .

ولا ارى ـ اصلحك الله ـ ان تبعث إليهم احداً من الناس اعدى لهم ولا اشد عليهم مني ، فابعثني إليهم فإني اكفيكهم بإذن الله .

وبعد كلام كثير جرى في المجلس ؛ توجه الأمير المغيرة بن شعبة لمعقل بن قيس الرياحي قائلاً :

اخرج على اسم الله .

ودعا المغيرة أحد رؤساء جنده ـ وهو قبيصة بن الدمون ـ وأفضى إليه بخطة التعبئة قائلاً له :

(الصق لي بشيعة علي فأخرجهم مع معقل بن قيس ، فإنه كان من رؤوس أصحابه ، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون ، فاجتمعوا جميعاً ؛ استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا ، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة ، واجرأ عليهم من غيرهم ، وقد قاتلوا قبل هذه المرة) .

وكان قبيصة عند حسن ظن المغيرة ، فعبأ ثلاثة آلاف مقاتل ، وهم نقاوة الشيعة ، وفرسانهم ، فأتى معقل بن قيس المغيرة يسلم عليه ويودعه ، فقال له المغيرة : يا معقل بن قيس إني قد بعثت معك فرسان أهل المصر ، أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً ، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فادعهم إلى التوبة ، وإلى الدخول في الجماعة ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم واستعن بالله عليهم .

فأجابه معقل بحماس ووعي :

سندعوهم ونعذر ، وايم الله ما ارى أن يقبلوا ، ولئن لم يقبلوا الحق لا نقبل منهم الباطل .

ومضى الجيش على اسم الله ، ولم تنته معاركه الطاحنة مع الخوارج إلا بقمع الفتنة والقضاء على المارقين ، وقتل قائدهم ، وعادت وحدة الكلمة للأمة بعبقرية المغيرة ، وحسن بلاء المجاهدين من شيعة علي رضي الله عنه في العراق .

لقد توحدت الطاقات كلها ضد الخوارج ، وكانت نهرواناً جديدة حسمت الموقف مع العابثين بوحدة الأمة المسلمة .



زياد بن أبيه أمير المشرق

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اكثر ما يشغله ــ العراقان ــ الكوفة والبصرة . وهذا معاوية قد اطمأن إلى الكوفة رغم وجود اكبر خصومه السياسيين فيها ، وذلك بسبب حكمة المغيرة وعبقريته ، وهو الذي استطاع أن يوجه الطاقات كلها ضد الخوارج ، ويذلل الأمر للخليفة في هذا المصر بحسن سياسته .

أما البصرة وما وراءها فكان عليها عبد الله بن عامر ، ورغم بلاء عبد الله بن عامر في الفتوح ؛ إلا ان جانب اللين عنده كان غالباً عليه ، فأدى ذلك اللين إلى ان يفلت زمام الأمر من يده ، فشاعت الفوضى، وانتشر اللصوص، وعبث الفساق واختل الأمن، واصبحت البصرة وما وراءها مسرحاً للفتن .

وكان زياد بن أبيه قد اختار الكوفة مقاماً له بعد بيعته للخليفة ، وهو كالأسد المصفد في اغلاله ، يرى هذا العبث والفوضى، والرعب بين الناس ، ولا سبيل له ولا سلطان له على احد ، وشكا ابن عامر امير البصرة إلى زياد بن ابيه فساد الناس وظهور الخبث ، فقال : جرد فيهم السيف .

قال الأمير : إني اكره ان اصلحهم بفساد نفسي .

وبلغ السيل الزبى ، فتداعى العقلاء ، ودعوه إلى الصرامة في تنفيذ حدود الله .

فقال : أنا أتألف الناس فكيف انظر إلى رجل قد قطعت اباه وأخاه .

وكان هذا الخط كذلك خروجاً على المنهج الإسلامي الذي جعل الحدود نكالاً بالمجرمين وجعلها ردعاً للعابثين ، واكد القرآن على أن الرحمة في مثل هذه الامور خيانة للأمانة الملقاة على عاتق الإمام .

لقد اكد القرآن هذا المعنى حين قال بصدد عقوبة الزنى :

(... ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله) .

اما معاوية الخليفة ، فقد بقي يحمل اعباء الخلافة على عاتقه وحده بعد أن فقد ركنه الركين عمرو بن العاص ، وتتبع أنباء العراق وما يجري في هذا البلد الذي حاربه اربع سنين ، وجعل كلما حضر وفد إليه سأله سؤال اللهفان .

كان أكثر ما يشغله شأن البصرة ، وذات مرة احب ان يعلم علمها من اهل الكوفة حين حضر وفد منها إليه وفيهم ابن الكواء اليشكري .

فقال الرجل :

إن أهل البصرة اكلهم سفهاؤهم ، وضعف عنهم سلطانهم !!

ولم تكن هذه اول الأخبار التي تصل معاوية عن البصرة ، وهي قد شغلت تفكيره طويلاً .. واخيراً راى ان لابد من تولية زياد للبصرة ، ليضبط الساحة العابثة . لكن لابن عامر من حق القرابة ، وقدم الجهاد ما يحرجه .. لا ، إن مصلحة الأمة فوق مصلحة

الأفراد ، ولا بدّ من وال حازم عاقل للبصرة ، وليس لها إلا زياد ، الذي أصبح يدعى : زياد بن ابيه بعد أن استلحقه معاوية بنسبه(١) .

وكان هذا في السنة الرابعة من خلافته ، حيث احكم أمير المؤمنين إدارة الدولة من كل جوانبها ، واحاطها جميعها بسياج حزمه وحكمته .

واستدعى معاوية عبد الله بن عامر أمير البصرة لزيارته ، فجاء ابن عامر ونزل ضيفاً على الخليفة معززاً مكرماً ، ولم يفاتح بشيء من أمر إمارته . وعندما اوشك على المسير قام معاوية يودعه ويشيعه ، وفي اللحظة الأخيرة القى سهمه الصائب :

معاوية : إني سائلك ثلاثاً ، فقل : هنّ لك .

ابن عامر : هنّ لك وانا ابن أم حكيم .

---

(١) يقول القاضي ابو بكر بن العربي في كتابه العواصم من القواصم ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ :

واما نكتة الكلام وهو القول في استلحاق معاوية زياداً ، واخذ الناس عليه في ذلك فأي أخذ عليه فيه إن كان سمع ذلك من ابيه ؟ واي عار على ابي سفيان في ان يليط بنفسه ولد زنى كان في الجاهلية! فمعلوم أن سمية لم تكن لأبي سفيان ، كما لم تكن وليدة زمعة لعتبة . لكن كان لعتبة منازع تعين القضاء له ، ولم يكن لمعاوية منازع في زياد .... فالحارث بن كلدة لم يدع زياداً ، ولا كان إليه منسوباً ، وإنما كان ابن امته ولد على فراشه ـ اي في داره ـ فكل من ادعاه فهو له ، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه . فلم يكن على معاوية في ذلك مغمز ؛ بل فعل فيه الحق على مذهب مالك . فإن قيل : فلمَ انكر عليه الصحابة ؟ قلنا : لأنها مسألة اجتهاد ، فمن رای أن النسب لا يلحق بالوارث الواحد أنكر ذلك وعظّمه .

معاوية : ترد عليّ عملي ولا تغضب .

ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وتهب لي مالك بعرفة ؟

ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وتهب لي دورك بمكة .

ابن عامر : قد فعلت .

معاوية : وصلتك رحم .

وعرف ابن عامر أن الأمر أفلت من يده ، وهو يحس في أعماقه أن الأمر أكبر منه ، واستعمل ذكاءه في اللحظة المناسبة ، فقال ابن عامر :

يا أمير المؤمنين إني سائلك ثلاثاً ، فقل : هن لك .

قال : هن لك وأنا ابن هند .

ابن عامر : ترد عليّ مالي بعرفة .

معاوية : قد فعلت .

ابن عامر : ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع لي أثراً .

معاوية : قد فعلت .

ابن عامر : وتنكحني ابنتك هنداً .

معاوية : قد فعلت(1) .

وبذلك انتهت الأزمة .

---

(1) الطبري ج ٥ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ . عن عمر بن شبة عن علي بن محمد .

وخلافاً للمعهود بعث معاوية الحارث بن عبد الله الأزدي في نوعٍ من الإيهام ليكون والياً على البصرة حتى ينسى الناس والأهل عزل ابن عامر . كان هذا في سنة خمس وأربعين ، وبعد مرور أربعة أشهرٍ أعلن معاوية توليـــة زياد أميراً على البصرة ، ومـــع البصرة خراسان وسجستان ، وبذلك اطمأن إلى المشرق كله فقد جمع له الهند والبحرين وعمان .

فلنتابع زياداً والي البصرة ، لنشهد عبقريته ، ووقع إمارته على قادة البصرة وعلى سفهائها العابثين .

ولنستمع مع المسلمين في المسجد الجامع بالبصرة ، تلك الخطبة التي قلبت الموازين وزلزلت أركان العابثين (١) .



(١) قيل : إنه لم يحمد الله فيها فسميت البتراء . وقيل : إنه حمد الله فقال : الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه ، اللهم كما رزقتنا نعماً فألهمنا شكراً على نعمتك علينا .

من الخلافة إلى المُلك

قال زياد في خطبته :

أما بعد :

فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والفجر (الفجور) الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيرها ؛ ما يأتي سفهاءكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآي الله ، ولم تقرؤوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمد الذي لا يزول .

أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون انكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به ؛ من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل .

ألم تكن منكم نُهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟!!

قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغطون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو معاداً !! ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً (مستترين) في مكانس الريب .

حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله ؛ لين في غير ضعف ، وشدة في غير جبرية وعنف . . .) .

وصدق زياد . فالإسلام هو الذي يصلح هذه الأمة ، ولا بد من تهديم المواخير وقمع المنكر ، وتسوية بيوت الانحراف بالأرض هدماً وإحراقاً .

وماذا يستطيع أهل البصرة أن يردوا به على زياد أميرهم الجديد ؟!

أما المبدأ الذي اعلنه في الجانب السياسي فهو مبدأ إسلامي خالد ، وهو الذي يناسب الأمة الوسط في دينها ، في بعدها عن الغلو في الإفراط او التفريط .

أما القسم الثاني من الخطبة ، فيختلف تماماً عن المنهج الأول.

قال : وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقيم ؛ حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انجَ سعد فقد هلك سعيد . أو تستقيم لي قناتكم . . .) .

ووقوفنا مع هذه الخطبة عند هذه الفقرة يطلعنا على انحراف ضخم عن المفهوم الإسلامي للحكم ، وهو الذي كان المنطلق الأول لتحول الحكم من خلافة إلى ملك .

إن الملك ينطلق من اتخاذ كل الوسائل الممكنة نظيفة او غير نظيفة للوصول إلى الغاية ، اما مفهوم الخلافة فلا يتنازل عن سلامة الوسيلة وسلامة الغاية ، بل يتعبد الله بالوسيلة والغاية معاً .

فالملك يعتمد الإرهاب والقوة والفتك ليصل إلى غايته ، ولو كانت الغاية الحكم بشريعة الله ، بينما ترفض الخلافة ذلك .

ثم يعلن زياد بيانه السياسي الهام المعبر عن اتجاهات الدولة :

١ ــ إن كذبة المنبر تبقى مشهورة ، فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة ، فقد حلّت لكم معصيتي .

٢ ــ من بُيِّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له .

٣ ــ إياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إلي .

٤ ــ وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

٥ ــ وقد احدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقته ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته حياً ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي .

٦ ــ لا يظهر من أحدٍ منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كان بيني وبين أقوام إحَن ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته .

٧ ــ إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره .

٨ ــ فاستأنفوا اموركم ، واعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئسٍ بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس .

٩ ـ أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا) .

إن مفهوم الخلافة الإسلامي ينطلق من بيعة الناس للخليفة ، وميزان الطاعة والمعصية فيه هو طاعة الله ومعصيته ، فالسلطان ليس تفويضاً من الله بمقدار ما هو وكالة من الأمة .

يقول الصدّيق سيد الخلفاء رضي الله عنه :

(إني وليت عليكم ولست بخيركم ، إن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني) .

وشتان بين هذا النص ونص زياد :

(إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا) .

فالصدّيق يربط الولاية بالأمة نفسها ، وللأمة التقويم عند الخطأ ، أما زياد فيربط الولاية بعطاء الله هذا السلطان للحاكم .

وهذا هو الفرق الأول بين الخلافة والملك ، ونلاحظ هذا الموقف من خلال المبادىء التالية :

ـ إياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه .

ـ إياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

ـ لا يظهر أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه .

فسفك الدم وقطع اللسان وضرب العنق ومنع المناظرة ، ليست من نظام الإسلام في الحكم في شيء .

فرسول الله ﷺ يقول :

(لا يحل دم امرىء إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) .

اما ان يكون مجرد إعلان الراي أو المعارضة كافياً لضرب العنق وسفك الدم ؛ فهذا مالم يعهده نظام الخلافة الإسلامي ابداً .

ومنـــع المناظرة لمن ابدى رايـــه ، هي سمات الفتك في الملك وليست من سمات الخلافة . اين هذا الموقف من موقف عثمان رضي الله عنه وهو يناقش الناس ويناظرهم على المنبر ، ويدعوهم من الآفاق ليستمع منهم إلى رايهم في ولاتهم ، ويعزل الولاة ممن يثبت لديه صحة اتهامهم .

اين هذا من منع المناظرة وسفك الدم ، ودفن الأحياء .

إن في شريعة الله واحكامه سعة (وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) .

وتطبيق شريعة الله هو الكفيل بتحقيق العدل ، وضبط الأمن ، وحفظ الاعراض والأموال ، أما التجاوز بقتل أي معارض ، ودفن اي معترض ، وسفك دم اي مجرم ، وضرب عنق أي مخالف للراي العام حوله ، وضبط النفس بالإرهاب والقوة ، ثم تطبيق شريعة الله بعد ذلك ؛ فهذا من مفهوم الملك بلا شك ، وليس من مفهوم الخلافة.

أما الفرق الثاني فهو في مفهوم المال :

ونحن نرى ان مفهوم المال في نظام الخلافة الإسلامي لا يخرج عن ان يكون مالاً للأمة ؛ كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

(ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف) .

وقد حدد هذا المعروف بقوله :

(إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما أحج به وأعتمر ، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ثم أنا بَعْدُ رجل من المسلمين) .

ولقد أقام أبو ذر الدنيا وأقعدها على معاوية رضي الله عنهما يوم قال عن المال : مال الله ، ولم يقل مال المسلمين ، ولم يتركه حتى تعهد له معاوية رضي الله عنه بإعادة التسمية .

(أما إني لن أقول أن المال لغير الله ، ولكني أقول المال مال المسلمين) .

وكم الفرق كبير بين قول عمر رضي الله عنه السابق ، وقول زياد :

(ونذود عنكم بفيء الله الذي خوَّلنا) .

وهذا معاوية رضي الله عنه نراه يختبر وضع الناس ومفهومهم حول المال في الحادثة المذكورة .

فعن أبي قبيل عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أنه صعد المنبر يوم الجمعة فقال في خطبته : إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه ، فلم يجبه أحد .

فلما كان في الجمعة الثانية قال مثل ذلك ، فلم يجبه أحد .

فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته ، فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال : كلا إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا !!

فنزل معاوية ، فأرسل إلى الرجل فأدخله ، فقال القوم : هلك الرجل . ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير ، فقال معاوية :

إن هذا أحياني أحياه الله ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(سيكون بعدي أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة) . وإني تكلمت أول جمعة فلم يرد عليّ أحد ، فخشيت أن أكون منهم ، ثم تكلمت في الجمعة الثانية ، فلم يرد عليّ أحد ، فقلت في نفسي : إني من القوم . فلما تكلمت في الجمعة الثالثة ، فقام هذا الرجل فرد عليّ فأحياني أحياه الله (١) .

إنها تقوى معاوية رضي الله عنه في حرصه على هدي النبوة ، وخشيته ان يكون في حكمه بعيداً عن منهج الله فيتقحم في النار .

واي شيء يقوله حتى يثير ردود الفعل عند الناس ؟!

لم يجد خيراً من أن يمسهم في أموالهم ، وهو أول حاكم يعلن هذا الموقف النشاز عن منهج سلفه .

ولقد ملأ قلبه الرعب يوم لم يرد عليه أحد في خطبته هذه .

ترى هل هلك نتيجة خوف الناس ورعبهم منه .؟!!

إن أي حاكم في الأرض بلا عقيدة ينتفش وينتفخ يوم يرى انصياع الناس وطاعتهم له ، فلا يجرؤ صوت أن يرتفع بمخالفة .

وتكراره الأمر في الجمعة الثانية والثالثة يدل على مدى عظمة العقيدة في كيانه ، ومدى خوفه الرهيب من النار أن يهلك بهذا الحكم الذي آل إليه .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وابو يعلى ، قال الهيثمي : ورجاله ثقات .

ولكنه في الجمعة الثالثة اطمأن إلى ان الأمة لا تزال بخير ، وانها تقول للظالم يا ظالم ، وانها لا تخاف في الله لومة لائم .

اما عندما يبلغ الطغيان مبلغه ، ويبلغ الذعر بالناس كما قال زياد : انج سعد فقد هلك سعيد ؛ عندها تستحق الأمة الفناء ، وتصيب الفتنة الحاكمين والمحكومين على السواء . ولا شك ان معاوية الخليفة رضي الله عنه قد اعاد الثقة للنفوس ، حين تهامسوا فيما بينهم فيما قاله عن تخوفه الهلاك ، وعرفت الأمة أن حاكمها هو تتمة ذلك العقد من الخلفاء .

إنما يمكن القول : إن هذا لم يكن عاماً في ارجاء الخلافة الاسلامية ، ففي بعض الولايات أصبح الناس يخافون قول الحق ، ولا يأمنون على حياتهم إذا طالبوا بحقوقهم ، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الانتقال من الخلافة إلى الملك . وهذا بعض الاضطراب الذي نلحظه في خطبة زياد التي عمل ببنودها بدقة متناهية ، ولا يمكن الفصل بين معاوية وزياد في الوقت نفسه لأن زياداً والي معاوية ، ولو كان غير راضٍ عن هذا الموقف السياسي لعزل زياداً ووضع والياً آخر مكانه .

والجانب الثالث الذي نرى فيه اختلافاً عن منهج الخلافة الراشدة هو ميزان الطاعة للحاكم .

فالميزان الذي قدمه زياد لفرض الطاعة على المسلمين ، واستحقاق الحاكمين لها ؛ هو العدل ، وهذا الميزان وإن كان من الموازين الدقيقة التي يقوَّم بها الحاكمون في الإسلام ، لكنما الميزان الأول الذي يشمل فيما يشمل العدل هو طاعة الله ورسوله . حدّد ذلك رسول الله ﷺ حين قال :

(اسمعوا واطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن راسه زبيبة ما اقام فيكم كتاب الله تعالى) (١) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

(على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره ، إلا ان يؤمر بمعصية ، فإن امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (٢) .

ولقد طبق سيد الخلفاء ابو بكر رضي الله عنه هذا المنهج تمام التطبيق يوم قال في خطبة تولّيه الخلافة : (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) .

وهنا تفترق الخلافة عن الملك كذلك .

ويختم زياد خطبته بقوله :

(واعلموا اني مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث :

لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانه ، ولا مُجَمِّراً لكم بعثاً (مبقياً جيشاً) في أرض العدو اكثر من اربعة أشهر .

فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليــه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ؛ فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولاتدركوا حاجتكم ؛ مع انه لو استجيب لكم لكان شراً لكم . اسأل الله ان يعين كلاً على كل . وإذا رايتموني انفذ فيكم الأمر فأنفذوه على اذلاله .

---

(١) اخرجه البخاري .

(٢) اخرجه الخمسة .

وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة . فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي) (١) .

هذا البرنامج السياسي الذي اعلنه زياد من النقاط العشر ؛ كان أمراً خطيراً في تاريخ الامارات الاسلامية ، فهدف إقامة الحدود، وضبط المجتمع بالشريعة الإسلامية ، وإقامة الجهاد في سبيل الله ؛ بقي هو الأول والأعلى في هذا البرنامج السياسي . اما الخروج على المنهج الإسلامي ، فكان في :

١ ـ التخلي عن إرادة الأمة المسلمة في الحكم .

٢ ـ اللجوء إلى العنف والارهاب فيه .

٣ ـ منع الناس من محاسبة الولاة على تصرفاتهم المالية .

٤ ـ اعتبار الطاعة مرتبطة بالعدل ، لا بتطبيق شريعة الله .

وإن كانت هذه الاخيرة لا تعني خروج الحاكمين عن هذه الشريعة الى شريعة أخرى ، إنما تعني أن بعض المخالفات لهذه الشريعة في المال والحكم قد تمرّ دون تغيير او إصلاح .

ولعل هناك من يعذر زياداً في هذا النهج لطبيعة الفوضى والعبث والفساد المنتشر في البصرة ، لكن الإسلام لا يقبل هذا العذر ، ويعتبر الحكم بهذه الطريقة انتقالاً من الخلافة إلى الملك .

فعن سعيد بن جهمان ، عن سفينة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٧ ـ ٢١٩ . عن عمر (ثقة) عن علي (ثقة) عن مسلمة (مجهول) والهذلي (اخباري علامة لين الحديث) .

(خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء) .

قال سعيد : قال لي سفينة : أمسِك عليك !! أبو بكر سنتين، وعمر عشراً ، وعثمان اثنتي عشرة ، وعلي كذا .

قال سعيد : قلت لسفينة : إن هؤلاء يزعمون أن علياً رضي الله عنه لم يكن بخليفة ، قال : كذبت أستاه بني الزرقاء ــ يعني بني مروان ــ (١) .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ، واللفظ لأبي داود .

وقال الترمذي عن هذا الحديث : حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جهمان ولا نعرفه إلا من حديثه .

يقول الهيثمي : قلت : قد رواه عبد الله ابن الإمام أحمد من حديث أبي ريحانة ــ واسمه عبد الله بن مطر البصري ــ عن سفينة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ، فقال رجل كان حاضراً في المجلس :

قد دخلت من هذه الثلاثين سنة وستة شهور في خلافة معاوية .

فقال : من هاهنا أتيت ، تلك الشهور كانت البيعة للحسن ابن علي بايعه أربعون ألفاً ، أو اثنان وأربعون ألفاً .

قال ابن كثير :

كانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال . وكانت خلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين وستة أشهر
←

وإذا عدنا في الذاكرة إلى زياد وهو معتصم بفارس ، وإلى اخيه من امه ابي بكرة صاحب رسول الله ﷺ وهو يحمي ولد زياد عند معاوية ويأخذ الأمان لزياد ، ورأينا مدى إجلال معاوية لأبي بكرة ؛ يطالعنا هذا الحديث بين ابي بكرة الذي لا يخشى في الله لومة لائم مع معاوية الحاكم :

فعن عبد الرحمن بن ابي بكرة قال :

وفدنا إلى معاوية مع زياد ومعنا ابو بكرة رضي الله عنه ، فدخلنا عليه ، فقال له معاوية رضي الله عنه :

حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عسى الله أن ينفعنا به.

قال : نعم . كان نبي الله ﷺ يعجبه الرؤيا الصالحة ويسأل عنها، فقال رسول الله ﷺ : ايكم راى رؤيا ؟

فقال رجل : انا يا رسول الله ، إني رايت رؤيا : رايت كأن ميزاناً دُلّي من السماء فوزنت انت وابو بكر فرجحت بأبي بكر ،

→

واربعة ايام . وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً . وكانت خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه خمس سنين إلا شهرين . قال : وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وهذا من دلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه .

وقال ابن كثير ايضاً : والسُنة ان يقال لمعاوية رضي الله عنه : ملك ، ولا يقال له : خليفة ؛ لحديث سفينة رضي الله عنه .

ثم وزن أبو بكر بعمر فرجح أبو بكر بعمر ، ثم وزن عمر بعثمان فرجح عمر بعثمان ، ثم رفع الميزان . فاستاء لها رسول الله ﷺ ثم قال :

خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء .

ففضب معاوية فزج في أقفائنا واخرجنا .

فقال زياد لأبي بكرة : أما وجدت من حديث رسول الله ﷺ حديثاً تحدثه غير هذا .

فقال : والله لا أحدثه إلا به حتى أفارقه .

قال : فلم يزل زياد يطلب الاذن حتى اذن لنا ، فأدخلنا ، فقال معاوية : يا أبا بكرة حدثنا بحديث عن رسول الله ﷺ لعل الله ان ينفعنا به .

قال : فحدثه ايضاً بمثل حديثه الأول ، فقال له معاوية :

لا أبا لك تخبرنا انا ملوك ، فقد رضينا أن نكون ملوكاً(١) .

* * *

ثم نتساءل بعد هذا كله : كيف كان وقع بيان زياد على الأمة المسلمة ؟

نلاحظ ذلك من خلال ثلاثة نماذج :

---

(١) رواه الإمام احمد ، والطيالسي . ورواه ابو داود مختصراً دون الوفادة على معاوية ، وهو حديث حسن . وقد رواه مختصراً كذلك الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

أولاً : انموذج المتزلفين والمنافقين ، نراه من خلال عبد الله بن الأهتم حيث قال :

أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب .

وعلى ما يبدو فهؤلاء لن يكون لهم صولة ودور عند زياد ، إذ أجابه على الثناء الكاذب بقوله :

(كذبت ذاك نبي الله داود عليه السلام) .

وبذلك قطع دابر الفئة التي تعيش على الفتات وتحيا بالمديح الزائف للحكام .

ثانياً : انموذج قلب الأمة وعصبها الحي . ويمثل هؤلاءالأحنف ابن قيس سيد بني تميم ، الذي قال :

(قد قلت فأحسنت أيها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثني حتى نبتلي) .

فقال زياد : صدقت .

ثالثاً : انموذج المتطرفين في الأمة ــ الخوارج ــ ونرى نموذجاً لهؤلاء أبا بلال مرداس بن أديّة الذي قال وهو يهمس :

(أنبأ الله بغير ما قلت ، قال الله عز وجل : « وإبراهيم الذي وّفى . الا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . فأوعدنا الله خيراً مما واعدت يا زياد)(١) .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٩ ، عن عمر بن شبة (ثقة) عن علي ابن محمد (صدوق) عن مسلمة (مجهول) والهذلي (اخباري لين الحديث) .

وصدق أبو بلال بن اديَة . ولكن انى للبشر أن يملك العدل التام الشامل .

ويعلم زياد ما وراء قول أبي بلال ، والتجمع الذي يمثل رايه. فقال له وقد فهم كل منهما على صاحبه :

إنا لا نجد إلى ما تريد انت وأصحابك سبيلاً حتى نخوض إليها الدماء .

وإشارة زياد تعني أنه لا بد من العنف والأخذ بالظِّنَّة حتى يستقيم العدل فيما بعد ، وكان زياد كما قال ابن جرير :

أول من شدّ أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس بالطاعة .

وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف واخذ بالظِّنَّة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً . حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المراة ، فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المراة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها . وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ، وادرّ العطاء وبنى مدينة الرزق .

وقيل لزياد : إن السبل مخوفة .

فقال : لا أعاني شيئاً سوى المصر ؛ حتى اغلب على المصر وأصلحه ، فإن غلبني المصر فغيره اشد غلبة .

فلما ضبط المصر تكلف ما سوى ذلك فأحكمه . وكان يقول :

(لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه) .

واستعان زياد بعدة من أصحاب النبي ﷺ ، منهم : عمران بن حصين الخزاعي ، ولاه قضاء البصرة ، والحكم بن عمرو الغفاري ولاه خراسان ، وسمرة بن جندب ، وانس بن مالك ، وعبد الرحمن ابن سمرة . فاستعفاه عمران فأعفاه . واستقضى عبد الله بن فَضالة الليثي ، ثم أخاه عاصم بن فضالة ، ثم زرارة بن أوفى الجرشي ، وكانت أخته لبابة عند زياد (١) .

وكان من مظاهر الملك لدى زياد : انه أول من سيّر بين يديه بالحراب ، ومشي بين يديه بالعمد ، واتخذ الحرس رابطةخمسمائة، واستعمل عليهم شيبان صاحب مقبرة شيبان من بني سعد ، فكانوا لا يبرحون المسجد .

وبذلك اطمأن معاوية إلى المشرق الإسلامي الذي عاداه أربع سنين متواليات .



---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٤ عن عمر بن شبة عن علي بن محمد. وقد سبقت ترجمتهم .

إلى الفتوح من جديد

آن الأوان لأن يفرغ المسلمون إلى عدوهم الخارجي ، وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ممعناً في بلاد الروم يحمل راية الجهاد التي حملها أبوه سيف الله خالد بن الوليد من قبل .

ولئن كان ابو بكر رضي الله عنه قال :

لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد !!

فلقد انسى معاوية الروم وساوس الشيطان بعبد الرحمن ابن خالد !!

ولئن قال خالد يوم حانت منيته :

والله ما في جسدي مقدار شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، او رمية بسهم ، وها أنذا اموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

فلقد امتدت أيدي الجبناء إلى عبد الرحمن بن خالد ، وقتلته غيلة بالسم (١) ؛ وذلك حين عجزت الصليبية أن تنال منه وجهاً

---

(١) أورد الطبري رواية يفهم منها أن لمعاوية ضلعاً في موت ابن خالد بالسم ، وأن العملية تمت بإيعاز منه ؛ والرواية ضعيفة ، وفيها مسلمة بن محارب (مجهول لا ذكر له في كل كتب التراجم) . وعلق عليها ابن كثير قائلاً : (وزعم بعضهم أن ذلك عن امر معاوية له في ذلك ، ولا يصح) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١ .

لوجه ، بعد ان خضد شوكتها ، وحطم كبرياءها ، فأوعزت إلى ابن أثال احد نصارى الشام ، فسقاه شربة فيها سم ، فمات على إثرها متأثراً بسمه . فتحرك خالد بن عبد الرحمن بن خالد من المدينة إلى حمص فقتل ابن أثال ثأراً لأبيه .

وكان بجانب عبد الرحمن بن خالد فرسان آخرون يحملون لواء الجهاد في تخوم الروم وهم : بسر بن ابي أرطاة ، ومالك بن هبيرة السكوني .

ومرت السنوات تترى والجهاد فيها قائم في بلاد الروم ، وكانت سنة تسع واربعين حافلة بالجهاد . فقد ذكر ابن جرير أنه :

(كان فيها مشتى مالك بن هبيرة السكوني بأرض الروم ، وفيها كانت غزوة فضالة بن عبيد جربة ، وشتا بجربة وفتحت على يديه ، وأصاب فيها سبياً كثيراً ، وفيها كانت صائفة عبد الله ابن كرز البجلي ، وفيها كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر فشتا بأهل الشام ، وفيها كانت غزوة عقبة بن نافع البحر فشتا بأهل مصر ، وفيها كانت غزوة يزيد بن معاوية الروم حتى بلغ قسطنطينية ومعه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وابو ايوب الأنصاري)(١) .

وتحقق موعود الله لهذه الأمة في غزو القسطنطينية مدينة قيصر ، وشارك في هذا الغزو كبار صحابة رسول الله ، حيث تبدت وحدة الأمة المسلمة في أروع مظاهرها في هذه المشاركة ، فكان فيهم ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو ايوب الأنصاري .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٣٢ . سنة تسع واربعين .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فيما اخرجه البخاري رضي الله عنه قوله عليه الصلاة والسلام :

(أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم) (١) .

وكان هذا اول جيش يغزو القسطنطينية .

وكان هذا إشارة من جانب آخر على مدى الاستقرار والتمكن والألفة التي وصلت إليه الأمة المسلمة بعد أن رقأت جراحها ،وقطعت نزيفها الداخلي .

وكان هذا في الميزان العالمي يعني زعزعة الامبراطورية الكبرى من جذورها ، حين تغزى في عقر دارها ، ويدفن احد سادات المسلمين ـ أبو ايوب الأنصاري ـ قريباً من اسوارها .

وهناك إشارة كبيرة وخطيرة إلى هذا الحادث الجلل ؛ هذه الاشارة هي بروز شخصية جديدة على المسرح الاسلامي هي شخصية يزيد بن معاوية الذي قاد هذا الزحف إلى القسطنطينية .

فلقد تعرف على كبار الصحابة ، وكبار القادة المسلمين ، واضطلع بمسؤولية ضخمة على مستوى الأحداث ، وتوجهت له الأنظار ، مما هيأ الجو فيما بعد إلى ان يرشحه ابوه أميراً للمؤمنين من بعده .

---

(١) روى أبو داود بسند صحيح أن أول غزو تم للقسطنطينية كان بقيادة عبد الرحمن بن خالد ، فقد أخرج : (غزونا من المدينة نريد القسطنطينية . . . وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد) وكان ذلك قبل عام ست واربعين،أما غزو يزيد فكان عام خمسين للهجرة. سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٨/١ .

إنه ليس هناك أخطر من هذه المسؤولية التي أنيطت به ، وأثبت أنه كفؤ لها .

كما حدث في هذا العام أن غاب عن الساحة الاسلامية الحسن ابن علي بن أبي طالب سيد شباب أهل الجنة ، والرجل الوحيد الذي استحق من بين المسلمين هذا اللقب ـ سيد ـ كما سماه عليه الصلاة والسلام .

« إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » .

ولم يَتوفَّ رضي الله عنه حتى شهد بأم عينه ثمرة إيثاره وحدة كلمة المسلمين على الجاه والسلطان ، ووجد الفتوحات تزلزل مدينة قيصر ، فلقد كانت هذه الثمار المباركة نتيجة حكمته وترفعه عن هواه ، ولنتصور الوضع لو بقي الحسن رضي الله عنه ينازع معاوية الخلافة ، وكيف سيكون التمزق والصراع والدماء !!

ولعل أفضل ما عبر به عن نفسه يوم قال :

(كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ، ويحاربون من حاربت . فتركتها ـ أي الخلافة ـ ابتغاء وجه الله) .

وقوله كذلك :

(خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً أو أكثر أو أقل تنضح أوداجهم دماً كلهم يستعدي الله فيم اهريق دمه ؟!) (١) .

---

(١) تتضافر الروايات الموضوعة دائماً لتجعل كل شخصية لها وزن خطير في الأمة ؛ تقضي نحبها بالسم عن طريق معاوية . وكأنما ←

كما توفي الحكم بن عمرو الغفاري الصحابي الذي كان يلي امر خراسان لزياد . وشهدت السنة الخمسون للهجرة تطورات حاسمة ونهائية في موضوع الولايات ، فلقد توفي فيها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه الساعد الأشد لمعاوية ، والذي كان يكفيه الكوفة ــ معقل خصومه ــ بالحكمة واللين والمداراة . ومع وفاته كان لا بد لمعاوية ان ينهي امر المشرق الاسلامي كله ، وايقن معاوية ان الأمير الذي يليق بهذا المصر العظيم هو زياد بن أبيه ، فهو الرجل العاقل الحازم الشجاع الذي يليق بالإمرة وتليق هي به .

→

الأمر غدا من المسلّمات التي لا نقاش فيها ، علماً بأن الروايات التي تذكر ذلك ليس لها سند ، وتبدأ عادة بـ (وسمعت بعض من يقول) . اما أقرب الروايات إلى الصحة في موضوع وفاة الحسن فهي ما رواه عبد الرحمن بن صالح العتكي ــ هو صدوق يتشيع ــ عن أبي أسامة (صدوق) عن ابن عون (ثقة) عن عمير بن اسحاق (مقبول) قال : دخلت أنا ورجل آخر من قريش على الحسن بن علي ، فقام فدخل المخدع ثم خرج ، فقال : (لقد لفظت ــ أخرجت ــ طائفة من كبدي اقلبها بهذا العود . ولقد سقيت السم مراراً ، وما سقيت مرة هي اشد من هذه . قال : وجعل يقول لذلك الرجل : سلني قبل أن لا تسألني ــ اي تفقدني ــ فقال : ما أسألك شيئاً ، يعافيك الله ، قال : فخرجنا من عنده ثم عدنا إليه من الغد وقد اخذ في السوق فجاء حسين حتى قعد عند راسه . فقال : اي أخي ! من صاحبك ؟ قال: تريد قتله ، قال : نعم ! . قال : لئن كان صاحبي الذي اظن لله أشد نقمة . وإن لم يكنه ما أحب أن تقتل بي بريئاً .) أورده ابن كثير عن ابن ابي الدنيا بهذا السند في كتابه البداية ج ٨ ص ٤٢ .

وهكذا أصبح زياد بن أبيه أمير الكوفة والبصرة ، وما يليهما من أرض خراسان وسجستان والهند .

وهكذا غدا زياد أمير المشرق الاسلامي .

ولقد بقي معاوية يخشى انقضاض العراق عليه ، وكان يحس أن في سيف زياد رهقاً وبطشاً ، وكان يود أن تبقى الرهبة في قلوب أهل العراق حتى لا يفتح مجالاً لثغرات داخلية وحروب جانبية .

ويروى أنه كتب لزياد قائلاً :

إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة ، باللين فيمرحوا ، ولا بالشدة فيحمل الناس على المهالك . ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة ، وأنا للين والألفة والرحمة . حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه (١) .

ولا شك أن قناعة الناس بحلم معاوية رضي الله عنه ولينه تبقى مجالاً فسيحاً للأمل أن لا يظلموا عنده ، وتجعل لدى الأمة قناعة أنه مهما كانت سلطة الوالي وسطوته فلدى الخليفة في دمشق ما يحقق العدل ، ويغفر الذنب ، ويعفو عن المسيء .

* * *

وماذا عن المغرب الاسلامي ؟؟

كان لعقبة بن نافع رضي الله عنه دور عظيم في افتتاح افريقية ، وعندما احتاج مرة أن ينصب المعسكر في إحدى غابات افريقيا التي تموج بالسباع والحشرات السامة ، تقدم عقبة ومعه بعض الصحابة ونادى قائلاً :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير . ج ٨ ص ١٣٦ .

أيها الحشرات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ، فارحلوا فإنا نازلون ، فمن وجدناه بَعْدُ قتلناه .

وما هي إلا لمحات قليلة حتى عمّ هذا الخبر أوساط هذه الحيوانات ، فارتحلت تحمل أولادها (١) .

* * *

وكانت سياسة معاوية أمير المؤمنين تقوم على اختيار أعظم الكفاءات وتقليدها أعظم المسؤوليات ، فجمع المغرب الإسلامي كله ؛ مصر وبرقة وأفريقية وطرابلس إلى مسلمة بن مخلد .

وهكذا توزع الشرق الاسلامي والمغرب الاسلامي بين مسلمة وزياد ، وبقيا في مسؤوليتهما حتى وفاة معاوية رضي الله عنه بالنسبة لمسلمة بن مخلد وحتى وفاة زياد بالنسبة إلى زياد .

وهكذا قبع الأعداء مذعورين ؛ خاصة الروم الذين كانوا يفكرون في الانقضاض على الدولة الاسلامية منذ أيام الفتنة بين المسلمين في الجمل وصفّين (٢) ، وما إن تفرغ معاوية لهم حتى جعل شأنه أن يقض مضجعهم في عقردارهم .

---

(١) عن كتاب : « اسباب سعادة المسلمين » صفحة ٥٩ طبعة دار القلم بدمشق .

(٢) لما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد بجنود عظيمة وطمع فيه . فكتب إليه معاوية :
(والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يالعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ، ولأخرجنَّك من جميع بلادك ، ولأضيقنّ عليك الأرض بما رحبت .) فعندئذ خاف وبعث يطلب الهدنة .

يقول ابو زرعة عن دحيم عن الوليد عن سعيدبن عبدالعزيز قال:

لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تغزو حتى كان عام الجماعة، فأغزا معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سرية في الصيف ويشتتوا بأرض الروم ثم تقفل وتعقبها اخرى . وكان في جملة من أغزى ابنه يزيد ومعه خلق من الصحابة ، فجاز بهم الخليج ، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها (١) .



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٣٣ .

هزة جديدة من الداخل

كانت هذه الهزة مقتل حجر بن عدي :

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن محمد بن سيرين (١) قال : خطب زياد يوماً الجمعة ، فأطال الخطبة وأخر الصلاة ، فقال له حجر بن عدي : الصلاة ! فمضى في خطبته ، ثم قال : الصلاة ! فمضى في خطبته . فلما خشي حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كفٍ من الحصى ، وثار إلى الصلاة وثار الناس معه فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس ، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في أمره ، وكثّر عليه .

(فكتب إليه معاوية أن شدّه في الحديد ثم احمله إلي .)

فلقد كانت الصورة التي بلغت معاوية رضي الله عنه ـ على ما يبدو ـ توحي بأن الكوفة على وشك الخروج عليه . ولأول مرة نجد لمعاوية موقفاً مغايراً لطبيعته وحلمه . ولقد تناقلت الآفاق موقف حجر بن عدي ، لأن الكوفة كما قلنا من قبل هي معقل الخصوم ، فأي موقف علني سرعان ما تتناقله الركبان ، يتوقعون

---

(١) أورده ابن جرير عن علي بن حسن (مقبول) عن مسلم الجرمي (مجهول) عن مخلد بن الحسن (مقبول) عن هشام بن عروة (ثقة ربما دلّس) عن محمد بن سيرين (ثقة ثبت) . وهو أقرب الأسناد إلى الصحة .

من خلاله حدثاً جديداً تتلوه أحداث جسام ... تغير موقف معاوية هذه المرة .

وبلغ الخبر ام المؤمنين عائشة ، فسارعت وارسلت عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام إلى معاوية تسأله ان يخلي سبيل حجر ومن معه (١) .

ولكن هيهات فلم يصل رسول ام المؤمنين إلى معاوية إلا وقد أفلت الأمر من يده .

ويتابع ابن جرير حديثه قائلاً :

فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ، ثم احمله إلي . فلما ان جاء كتاب معاوية اراد قوم حجر ان يمنعوه فقال :

لا ، ولكن سمع وطاعة .

فشد في الحديد ، ثم حمل إلى معاوية .

فلما دخل عليه قال :

السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال له معاوية : امير المؤمنين ؟!!

اما والله لا اقيلك ولا استقيلك .

اخرجوه فاضربوا عنقه .

فأخرج من عنده .

---

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٤ عن محمد ابن سعد في الطبقات عن بعض اهل العلم .

وظاهر من موقف معاوية رضي الله عنه انه موقف الغضبان المنزعج ؛ وذلك لأن كل الأجواء والدلائل تشير إلى اتهام حجر ، فلم يكن نكرة بين الناس ، وكان معروفاً بأنه من اشد شيعة علي واقواهم شكيمة ، وهو لا يخفي حبه لعلي وولاءه له حتى امام الولاة . وكان المغيرة بن شعبة كثيراً ما ينصحه في إخفاء موقفه العلني فلايستجيب، ولم يكن المغيرة راغباً في الوقت نفسه في فتح معركة مع حجر وشيعة علي خلفه ، إذ قال المغيرة :

إنه قد اقترب اجلي ، وضعف عملي ، ولا احب ان ابتدىء اهل هذا المصر بقتل خيارهم ، وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك واشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة . ولكني قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفيههم ، حتى يفرق بيني وبينهم الموت .

لكن سياسة زياد تختلف عن سياسة المغيرة ، ومع هذا لم يجرؤ أن يتصرف بشيء دون إذن معاوية .

واندفع معاوية في موقفه .

وها هو حجر يلقى مصيره .

وقال حجر للذين يلون امره : دعوني حتى اصلي ركعتين .

فقالوا : صلِّ .

فصلى ركعتين خفّف فيهما ، ثم قال :

(لولا ان تظنوا بي غير الذي انا عليه لأحببت ان تكونا اطول مما كانتا) !!

إنه يمضي على سنة خبيب رضي الله عنه الذي سن ركعتي الموت ، وكانتا ركعتين قصيرتين من خبيب كذلك . وقال :

لولا ان تروا ان ما بي جزع من الموت لزدت .

وهو ما عناه حجر رضي الله عنه،خشي أن يظنوا أن خوف الموت هو الذي دفعه إلى إطالة الصلاة ، إنه احب أن يقابل وجه ربه في آخر لحظات حياته ، ثم استعاد شريط حياته في لحظات قصار وقال:

ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير ، فما في هاتين خير .

وجاؤوا إليه يفكون وثاقه ، ولمعت في ذهنه بارقة ، فقال لهم في عزمة صادقة وثقة بحقه وموقفه :

لا تطلقوا عني حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً . فإني الاقي معاوية غداً على الجادة .

ثم قـدّم فضربت عنقه !!

وكان معاوية قد جلس بعدما غادره الجند الذين اوكل لهم قتل حجر بن عدي واصحابه وكانوا اربعة عشر رجلاً . وراح يراجع رأيه وموقفه ، ثم غلب حلمه عليه ، واحب ان يحقن دماءهم ، فلم يضع دمهم في عنقه ؟

الا يمكنه أن يسجنهم ، أو يفرقهم في الأمصار ، فيسكت الفتنة ويجتثها ؟!

الم تنجح هذه الخطة معه مع جميع خصومه دون ان يهريق دم احد ؟ .

ثم استقر رأيه على ذلك بعد حديث نفسي طويل ، وقرر إنقاذ حياة القتلى قبل إنفاذ القتل ، فبعث رسولاً بذلك على عجل .

ووصل رسول معاوية بأمره إلى الجند . بَيْد ان الأمر كان قد افلت من يده ، فقد كان القوم قد لقوا مصرعهم ، ومضى حجر إلى ربه شهيداً بأصفاده ، ومضى معاوية قلقاً مهموماً كلما عاد حجر إلى ذاكرته هو وصحبه .

وسادت الأمة المسلمة موجة الم وهم لما نزل بحجر .

حتى كان مقتل حجر بن عدي من اكبر ما اخذ الصالحون على معاوية رضي الله عنه ، فعائشة ام المؤمنين رضي الله عنها آلمها كثيراً مصرع حجر ، والحسن البصري كان يأخذ على معاوية فيما يأخذ قتله حجر بن عدي .

ومعاوية رضي الله عنه كان يأخذ فيما يأخذ على نفسه قتله حجراً ، ويقول :

يومي منك يا حجر يوم طويل (١) .



---

(١) أورده ابن جرير عن ابن سيرين في تتمة الرواية السابقة ٢٥٦/٥ .

قلت : لا شك أن مقتل صاحب رسول الله ﷺ حجر بن عدي أمر يحزن كل مسلم ، بيد انه كان امراً اجتهادياً من معاوية نظر فيه مصلحة الأمة ، ولم يدفعه إليه غضب او حب انتقام ، او فقدان حلم وتؤدة ؛ فلقد عمل حجر في الكوفة اعمالاً خشي معاوية معها ان تثور فتنة جديدة ، حتى إن حجراً حَصَبَ زياد بن ابيه وهو على المنبر .

وخير ما يمثل رأي معاوية في مصرع حجر وأصحابه كلمة قالها لعائشة ــ وقد عاتبته في ذلك ــ قال لها :

يا ام المؤمنين ، إني رايت قتلهم إصلاحاً للأمة ، وان بقاءهم فساداً . انظر البداية والنهاية ٢٢٥/٦ .

لِقَـاء مَعَ قادَة الأمَّــة

كان معاوية رضي الله عنه قد أجرى هذا اللقاء عندما حج وزار مكة والمدينة وذلك بعد مقتل حجر بن عدي ، فقد التقى بالحسين وعبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها . وها هو يجد نفسه الآن تتوق إلى حـج بيت الله الحرام ، وإلقـاء أوزاره التي تصدر عنه بصفته بشراً يخطىء ويصيب .

لقد أحس بأشواق روحية تدفعه إلى هذه الأماكن المقدسة ، ولعل مايعانيه من مقتل حُجر وصحبه مايزال يُورقه ، فهو يطمع أن يلقى قادة الأمة ، فيعتذر لهم عن هـذا الحدث الجلل . وكان ما عزم عليه ، فحج بالمسلمين هذا العام ، ثم مضى إلى المدينة .

وكان أهم مايخشاه لقاء عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فهو يعرف موقفها العنيف من مقتل أخيها محمد بن أبي بكر ، وهو يود أن تكون له سنداً وعوناً في حكمه ، فلو اتخذت موقفاً معاديـاً منه لزعزعت بنيان حكمه .

وها هـو يستأذن على عائشة فتتردد أولاً في الإذن لـه ، ثم تسمح له بذلك .

قالت عائشة : أقتلت حجراً ؟!

قال : يا أم المؤمنين إني وجدت قتل رجل في صلاح الناس خير من استحيائه في فسادهم (١) .

عائشة : يا معاوية قتلت حجراً واصحابه ، وفعلت الذي فعلت ، أما خشيت أن أخبأ لك رجلاً يقتلك ؟!!

وصمت معاوية قليلاً وقال :

لا . إني في بيت الأمان .

---

(١) لاشك أن الفساد المقصود هنا هو إثارة الناس على الحكم وخلق فتنة جديدة ، وهذا مرتبط بصحة المعلومات الواردة لمعاوية رضي الله عنه في هذا الموضوع ، ولا يبعد أن يكون فيها شيء من المبالغة ، وهذا لا مسؤولية على معاوية فيه ، لقد وجدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه يقع في بعض الأخطاء في القتل حتى ليتبرأ رسول الله ﷺ من صنيعه في بني جذيمة قائلاً :

(اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد) !!

ووجدنا عمر رضي الله عنه يطالب بعزل خالد في قضية الأسرى الذين قتلوا خطأً ، قائلاً لأبي بكر : اعزله إن في سيفه لرهقاً .

فكان جواب الخليفة العظيم لعمر رضوان الله عليه :

تأوّل فأخطأ ، كف لسانك عن خالد ، لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين !!

ولعل معاوية رضي الله عنه تأول فأخطأ ، كما قال في بعض اعتذاراته :

إنما قتلهم من شهد عليهم .

ومما قاله فيما روي عنه : إن يقتل رجل واحد خير من أن يقتل مائة ألف .

فتعود الدماء من جديد لاترقأ في الأمة ولا تصان .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) .

عائشة : اين ذهب عنك حلمك يا معاوية حين قتلت حجراً واصحابه ؟!

معاوية : حين غاب عني من قومي مثلك يا أماه .

وسادت فترة صمت قصيرة ، ثم قطعها معاوية قائلاً :

فكيف بري بك يا أماه ؟

عائشة : إنك بي لبار .

معاوية : كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجاتك وأمرك ؟

عائشة : صالح .

معاوية : فدعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا عزوجل (١) .

وغادر معاوية حجرة عائشة رضي الله عنها ، وأتاه وجوه أهل المدينة يسلمون عليه ، فاستقبلهم وبشّ لهم ،ثم أتى مسجد الرسول ﷺ وصعد المنبر ، فأعلن سياسته على المسلمين بمصارحة تامة ووضوح عجيب ، ووضع نفسه في الموضع الملائم ، بلا غرور ولا تفطرس ولا كبرياء ، وبتواضع متناهٍ وحكمة بالغة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

---

(١) ورد هذا في روايات عديدة وصحيحة ، منها رواية للامام احمد بسنده عن ابن أبي مليكة .

أما بعد : فإني والله ما وليت أمركم حين وليته إلا وأنا أعلم أنكم لاتسرون بولايتي ولا تحبونها ، وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك ، ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسة .

ويقف المرء أمام هذا التصور موقفاً متأنياً ويتساءل :

لم كان أهل المدينة لايحبون إمرة معاوية ؟!!

والجواب بيّن واضح :

فلئن كانت الكوفة مركز شيعة خصمه وهم الآن جنود وأتباع، فإن المدينة المنورة مركز القيادات الإسلامية ومستودع الأكفاء الذين يضارعون معاوية ؛ بل ويسبقونه جهاداً وسابقة وبلاءً .

لايزال في المدينة إلى الآن سعد بن أبي وقاص وهو من أهل الشورى الستة،ولا يزال فيها سعيد بن زيد أحد المبشرين العشرة.

ولا يزال فيها أنصار رسول الله وعدد من المهاجرين ، وبقية أهل بدر ، وبقية أهل بيعة الرضوان .

إن المدينة هي التي كانت تفرز القادة والولاة ، والحاكمين .

أو ليس معاوية وكثير من ولاته هم من تربية المدينة المنورة ونتاجها المبارك ؟ . وانتقال السلطة من المدينة إلى الشام يعني الانتقال من الخلافة إلى الملك ، وهذا ما صارح به معاوية الأمة وقادتها بقوله :

(ولقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه ، وأردتها على عمل ابن الخطاب فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك ، وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت عليّ،

وأين مثل هؤلاء ؟ ومن يقدر على أعمالهم هيهات أن يدرك فضلهم احد ممن بعدهم ؟ رحمة الله ورضوانه عليهم) .

إنه يعلن على الأمة أن الخلافة مضت مع ذلك الرعيل ، وانه لن يقدر أن يكون على مستواهم . فكيف يكون الوضع اليوم ؟ يقول :

(غير أني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة ، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مواكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة) .

إنه يعلن خطته الاقتصادية في توفير الرفاه للأمة ، ويرى ارتباط هذا بالاستقامة على منهج الله من قبل الحاكمين ، والطاعة في المعروف من المحكومين .

ولا ينكر على الناس أن يعتقدوا أن فيهم من هو خير منه ؛ فهذا حق شخصي لكل فرد ، لايتدخل فيه ، بل هو لايخالف في واقع هذا الأمر . إذ يقول : (فإن لم تجدوني خيركم ، فأنا خير لكم) .

ويعلن سياسته الأمنية فيقول :

(والله لا أحمل السيف على من لاسيف معه . ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دُبُر اذني) .

ويعلن لهم أن حقهم محفوظ ، ولن يألو جهداً في إبلاغهم إياه ، ولكن نقصان هذا الحق لايقتضي الفتنة والثورة ، لأن الفتنة تأكل النعمة ، وتورث النقمة ، وتأكل الأخضر واليابس ، فيقول :

(وإن لم تجدوني أقوم بحقكم فارضوا مني ببعضه . فإنها

بقابية (١) قوبها ، وإن السيل إذا جاء يبرى ، وإن قل أغنى ــ أي أن الفتنة إذا خرجت فلن تنتهي إلا بالإفناء ــ وإياكم والفتنة فلا تهموا بها ؛ فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة ، وتورث الاستئصال .

أستغفر الله لي ولكم ، أستغفر الله (٢) .

ثم نزل .

لقد كانت روح هذا البيان تختلف تماماً عن روح البيان الذي قدمه زياد :

بيان زياد ، تظهر منه روح السطوة والسلطة على قوم عاث سفهاؤهم فيهم فساداً .

أما روح بيان معاوية رضي الله عنه فهي أشبه باعترافات لأهل الحقوق بحقوقهم ، وإجلال لقادة الأمة في مراكزهم .

ونتساءل عن أهل المدينة وخليفتهم الراحل علي رضي الله عنه الذي كان آخر العقد في المدينة .

---

(١) قابية : البيضة . القوب : الفرخ (ويعني بانبثاق الفتنة من مهدها . كخروج الفرخ من البيضة) .

(٢) أورد ابن كثير هذه الخطبة عن الأصمعي (ثقة) عن الهذلي (ثقة) عن الشعبي (ثقة) . غير أن فيها إشكالاً هو أنها ذكرت في عام الجماعة ؛ علماً بأن معاوية رضي الله عنه لم يحج إلا عام أربعة وأربعين وعام خمسين أو واحد وخمسين . وأرجح أنها تمت في أحد هذين العامين . ونحن لا يضيرنا العام الذي قيلت فيه لأنها تمثل عرضاً نفسياً لطبيعة معاوية أياً كانت السنة التي قيلت فيها .

فلم يذكر معاوية علياً في خطبته ؛ لأنه في الأصل لم يعترف بخلافتــه .

وكان لابد أن يتعرف على راي خاتمة هذا العقد ، على راي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد المرشحين السابقين للخلافة . وتمت المقابلة بين الشخصيتين .

وبعد حديث قصير احب معاوية ان يعرف مكنون قلب سعد ، فما أمهله أن سأله :

ـ مالك لم تقاتل معنا ؟

سعد : إني مرت بي ريح مظلمة فقلت : أخ أخ ، فأنخت راحلتي حتىانجلت عني ، ثم عرفت الطريق فسرت .

معاوية : ليس في كتاب الله أخ أخ ، ولكن قــال الله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلــوا فأصلحــوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . . .) ؛ فوالله ماكنتَ مع الباغية على العادلة ، ولا مع العادلة على الباغية .

سعد : ماكنت لأقاتل رجلاً قال له رسول الله ﷺ : انت مني بمنزلة هارون من موسى غير انه لانبي بعدي !!

معاوية : من سمع هذا معك ؟

سعد : فلان وفلان وأم سلمة .

معاوية : أما إني لو سمعته منه ﷺ لما قاتلت علياً (١) .

---

(١) رواه كثير النوري عن عبد الله بن بديل . اما كثير النوري: فلم أعثر على اسمــه في تاريخ الرجال ، واما عبد الله بن بديل : فصدوق يخطيء . (البداية والنهاية ج ٨ ص ٧٧) .

وهكذا وبكل بساطة يقول الحق ويعتذر لأهله ، ولا عجب من ذلك فالزبير عندما قال له علي : أما تذكر يا زبير يوم قال لك رسول الله ﷺ : إنك ستقاتل علياً وأنت ظالم له ؟!

فقال الزبير يومها : لو ذكرت هذا ما خرجت إليك .

إنه الجيل الذي يعيش بالحق ومع الحق ، ولا يجد غضاضة في ان يؤوب إلى الحق ويذل نفسه للحق .

لقد كانوا كما وصفهم الله تعالى :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ...) .

وكما وصفهم في مكان آخر :

(أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ...) .

وكانوا بحق خير القرون على مدار التاريخ .

* * *

يزيد بن معاوية وليٌّ للعهد

العام تلو العام يمر، والأمن يضرب بجرانه في الأرض الإسلامية، والفتوحات تمتد في المشرق والمغرب، والمجاهدون على الثغور مرابطون في سبيل الله .

ونظر معاوية في نفسه ، فرأى انه يدلف إلى السبعين ، وقد ناءت به السنون ، وطال به العهد ، فراح يفكر في حال الأمة بعد موته كيف تؤول ؟ . كما أن ولاته الكبار قد تقدموا في العمر ، ولابد أن يمارس الجيل من الشباب مسؤولياته ، خاصة بعد وفاة أمير المشرق زياد بن أبيه .

لقد حرص معاوية منذ لقائه مع عائشة رضي الله عنها على التأسي برسول الله ﷺ ، فأرسل إليها قائلاً : أن أرسلي لي بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره .

يقول راوي الحادثة :

(فأرسلت به معي أحمله حتى دخلت به عليه ، فأخذ الانبجانية فلبسها ، وأخذ شعره فدعا بماء فغسله وشربه وأفاض على جلده(١) ثم احتفظ بالشعر عنده .

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ج٨ ص١٣٢ عن خالد ابن محمد البجلي (صدوق يتشيع) عن سليمان بن بلال (ثقة) عن علقمة بن أبي علقمة (ثقة علامة) عن أمه .

وكان لايدع فرصة تفوته يستمع فيها إلى صحابة رسول الله ﷺ ، يستشيرهم ويستأنس برأيهم .

هذا المسور بن مخرمة رضي الله عنه يفد على معاوية ، وكان يعلم ان المسور لايفتأ يوجه نقده للخليفة وولاته ، فكانت فرصة سانحة ان يفتح معه هذا الحوار :

معاوية : مافعل طعنك على الأئمة يا مسور ؟

المسور : ارفضنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له (فهو يريد صرف معاوية عن الحديث) .

معاوية : لتكلمني بذات نفسك .

يقول المسور : فلم ادع شيئاً اعيبه عليه إلا اخبرته به .

وساد الجو صمت قصير ، ثم رفع معاوية نظره للمسور وقال له في ثقة وعيناه مركزتان فيه :

فهل لك من ذنوب تخاف ان تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟

المسور : نعم : إن لي ذنوباً إن لم يغفرها هلكت بسببها .

واحس المسور وهو يرد الجواب انه قد افحم ، لكنه تابع نظره بمعاوية الذي قال له :

فما الذي يجعلك احق بأن ترجو انت المغفرة اكثر مني ؟؟

ولم يحر المسور جواباً . لكن معاوية مضى في جوابه باندفاع وحرارة يقول :

فوالله لما إلي من إصلاح الرعايا ، وإقامة الحدود ، والإصلاح بين الناس ، والجهاد في سبيل الله ، والأمور العظام التي لايحصيها إلا الله ، ولا تحصيها ؛ اكثر مما تذكر من العيوب والذنوب .

واطرق المسور ملياً يفكر ، ومعاوية لايزال ماضٍ في حديثه :

وإني لعلى دين يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات. والله على ذلك ماكنت لأخير بين الله وغيره ؛ إلا اخترت الله على غيره مما سواه .

واستأذن المغيرة ، ودخـل على معاويـة ، وكان المسور قد احرجته كلمات معاوية ، فما عاد يطيق المكث عنده ، فخرج .

يقول المسور رضي الله عنه يصف ماجرى له بعد الحديث مع معاوية :

ففكرت حين قال لي ما قال ، فعرفت أنه قد خصمني .

قال : فكان المسور إذا ذكره بعد ذلك دعا له بخير (١) .

* * *

كان أهم مايشغل بال معاوية : من يستخلف بعده ؟

كان يستعرض في ذهنه القادة المرموقين في الساحة الإسلامية، فيراهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عباس .

---

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٣ . عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن . عن المسور بن مخرمة . ورجال السند كلهم عدول ثقات .

لكنه كان يرى في نفس الوقت أن الأمر لا ينضبط لأي واحد منهم ، فقد تقع الأمة في خلافات ومحن جديدة ، وفي حروب تأكل فيها بعضها بعضاً ، وكفاها ماقدمت من تضحيات . إن يزيد ابنه ليس نِدّاً لهؤلاء ، ولكنه مع ذلك أهل للمسؤولية .

فلقد مارس مسؤولية ضخمة واثبت جدارته لها يوم حاصر القسطنطينية ، وكانت تلك الغزوة قمينة بأن توجه الأنظار إليه ، خاصة انه التقى فيها مع كبار المجاهدين وسادة المسلمين .

لكنه في هذا يسن سنة جديدة لم يسنها احد قبله .

أن يجعل في حياته ولاية للعهد أولاً .

وأن يكون ولي العهد ابن امير المؤمنين ثانياً .

ومع ذلك فقد أحب أن يتعرف على آراء بعض الصحابة في المدينة ؛ فبعث إلى واليه هناك : أن أوفد لي من شاء .

وكان الوافد الآخر :

(فوفد له عمرو بن حزم الانصاري يستأذن ، فجاء حاجب معاوية يستأذن فقال :

هذا عمرو قد جاء يستأذن .

معاوية : ماجاء بهم إلي ؟

قال : يا أمير المؤمنين يطلب معروفك .

معاوية : إن كان صادقاً فليكتب إلي فأعطيه ما سأله ، ولا أراه .

قال فخرج إليه الحاجب ، فقال : ماحاجتك ؟ اكتب ماشئت) فانفعل عمرو بن حزم رضي الله عنه وقال للحاجب :

(سبحان الله أجيء إلى باب أمير المؤمنين ، فأحجب عنه ، أحب أن ألقاه فأكلمه .

قال معاوية للحاجب : عده يوم كذا وكذا ، فإذا صلى الغداة فليجىء) .

ومضى عمرو مهموماً لهذا الإرجاء ، وكاد يقطع زيارته ويمضي إلى المدينة ؛ لولا أنه كان يشعر أن عنده رأياً خطيراً يود أن يقولـه لمعاوية ، ومرت الساعات ثقيلة عليه لكنه كان يحتسبها عند الله ، وحانت صلاة الغداة .

(فلما صلى معاوية الغداة ، أمر بسريره ، فجعل في الإيوان . ثم يخرج الناس عنه فلم يكن عنده إلا كرسي وضع لعمرو . فجاء عمرو فاستأذن ، فأذن له ، فسلّم عليه ثم جلس على الكرسي ، فقال له معاوية : حاجتك ؟

قـــال :

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

لعمري لقد أصبح يزيد بن معاوية واسط الحسب من قريش، غنياً عن المال ، غنياً إلا عن كل خير . وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إن الله تعالى لم يسترع عبداً رعية إلا وهو سائله عنها يوم القيامة ، كيف صنع فيها ؟ .

وإني أذكرك الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ من تستخلف عليها) . وانتهى كلامه ، ونظر إلى معاوية ما يكون منه ، ولا يضيره ذلك بالغاً ما بلغ .

أطرق معاوية ، ثم رفع رأسه وشهق شهيقاً طويلاً كاد يغيب فيه عن وعيه ، (فأخذه ربو ونفس في غداة قرٌ (برد) حتى عرق ، وجعل يمسح العرق عن وجهه ملياً ، ثم أفاق) .

لقد كان الأمر يملك عليه حياته ، فلم يفكر في استخلاف يزيد إلا بعد دراسة مستأنية وطويلة ، وانتهى به التفكير إلى هذا الرأي .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(أما بعد فإنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك بالغاً مابلغ) .

فلقد أسعده جراة عمرو بن حزم وتذكيره له بربه .

وتابع قائلاً : (.. وإنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، فابني أحق من أبنائهم .

حاجتك .

قال عمرو : مالي حاجة .

قال : قم .

فقال له أخوه : إنما جئنا من المدينة نضرب أكبادها من أجل كلمات ؟!

قال : ماجئت إلا للكلمات ..

قال : فأمر لهم بجوائزهم ، وأمر لعمرو مثلها (١) .

عمرو بن حزم يضرب أكباد الإبل من المدينة للشام ليذكر معاوية بحديث رسول الله ﷺ ، وليطلب منه أن يستأني قبل أن يعلن قراره

---

(١) مجمع الزوائد عن ابن سيرين ج٤ . سكت عنه البوصيري . وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

الأخير ، لأن الله سائله عن هذه الأمة من استخلف عليهـا . عمرو هذا يتجشم هذا السفر الطويل ليقول كلمة الحق ، لايخشى في الله لومة لائم ، بالغاً مابلغ . لأنه يعلم أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

ولا بد من نصيحة الإمام استجابة لله ورسوله .

وهذا الخليفة يجد من يتحرك إلىالمدينة ليذكره بالله ورسوله، وأن يحسن اختيار الخليفة من بعده . فيشكر له نصحه ، ويشكر له جهده ، ويعطيه جائزته كما يعطيها للوفد غير منقوصة درهماً واحداً عن إخوانه .

ويعلم معاوية رضي الله عنه أن المعارضـة ليزيد إن وجدت ، فلن توجد إلا مـن قـادة الأمة : عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي بن أبي طالب .

والمدينة هي المركز الوحيد الذي فيه صفوة خيار المسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ فلابد مـن مواجهة الموقف والمسير إلى المدينة لأخذ البيعة بشخصه لأنه لن يستطيع هذا الأمر احد غيره .

ومما يسعدنا أن يكون بين أيدينا رواية للمحدثين تصور كيف أخذ معاوية هذه البيعة ، وهي اصح ماورد في هذا الموضوع :

فعن ذكوان مولى عائشة قال : لما اجمع معاوية أن يبايع لابنه يزيد حج فقدم مكة في نحو من الف رجل ، فلما دنا من المدينة خرج ابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر . فلما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ابنه يزيد فقال : من احق بهذا الأمر منه ؟ !

ثم ارتحل فقدم مكة فقضى طوافه ، ودخل منزله فبعث إلى ابن عمر ، فتشهد وقال :

أما بعد يابن عمر فإنك كنت تحدثني انك لاتحب ان تبيت ليلة سوداء ليس عليك امير ، وإني احذرك ان تشق عصا المسلمين ، وان تسعى في فساد ذات بينهم .

فلما سكت تكلم ابن عمر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

(أما بعد : فإنه قد كانت قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من ابنائهم ، فلم يروا في ابنائهم ما رايت انت في ابنك ، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار) .

لقد ادى ابن عمر رضي الله عنهما نصيحته ، وقال كلمة الحق لايهاب لومة لائم ثم قال :

(وإنك تحذرني ان اشق عصا المسلمين ، وان اسعى في فساد ذات بينهم ؛ ولم اكن لأفعل ، إنما انا رجل من المسلمين ، فإذا اجتمعوا على امر فإنما انا رجل منهم) .

وهذه هي وجهة نظر ابن عمر رضي الله عنهما في مواقفه دائماً .

لن يكون اساساً لشق عصا المسلمين .

(وارسل إلى عبد الرحمن بن ابي بكر ، فتشهد واخذ في الكلام . فقطع عليه كلامه فقال : إنك والله لوددت ان وكلناك في امر ابنك إلى الله ، وإنا والله لانفعل . والله لتردن هذا الأمر شورى في المسلمين أو لنعيدنها عليك جذعة . ثم وثب فقام) .

وموقف ابن ابي بكر رضي الله عنهما موقف واضح صريح . لا بد من تطبيق منهج الخلافة ، من تطبيق الشورى في الحكم ، او الحرب إن لم يكن ذلك .

فقال معاوية : اللهم آلفنيه بما شئت ، ثم خاطبه معاوية :

على رسلك أيها الرجل ، لا تشرفنّ بأهل الشام ؛ فإني اخاف أن يسبقوني بنفسك ، حتى اخبر العشية أنك قد بايعت . ثم كن بعد ذلك على ما بدا لك من امرك) .

إن معاوية قد خشي على حياة ابن ابي بكر ، فسارع إلى نصحه ان لا يواجه جماعة الشام بأفكاره ، وترك له ان يتصرف كما يحب بعد إظهار البيعة .

ثم أرسل إلى ابن الزبير فقال :

يا ابن الزبير ، إنما انت ثعلب روّاغ ، كلما خرج من جُحر دخل آخر ، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين ـ ابن عمر ، وابن أبي بكر ـ فنفخت في مناخرهما وحملتهما على غير رأيهما .

فتكلم ابن الزبير فقال :

إن كنت قد مللتَ الإمارة فاعتزلها ، وهلمّ بنا ابنك فلنبايعه ! ارايت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع ؟ لأيكما نطيع ؟! لا نجمع البيعة لكما والله ابداً) .

لقد واجه ابن الزبير رضي الله عنهما الأمر من طرف آخر ، من باب الإنكار على اجتماع البيعتين في وقت واحد ، ورفض هذا المنطق الجديد الذي لم يسبق له احد .

إن معاوية بين امرين : إما ان يفرض البيعة بالقوة على معارضيه وهو مقتنع فيها ، وهذا قد يقود إلى إزهاق ارواح اكرم الشخصيات الإسلامية وهذا مالا يرضاه ابداً ، ولا شيء اكره له من ذلك .

وإما أن يترك هؤلاء بلا بيعة فيشقون عصا الطاعة ، وقد يقود هذا إلى ان تراق دماء الأمة كلها في تحزبها لقيادات جديدة .

لقد كانت وجهة نظره أن يسكت قادة الأمة على البيعة فلا يشقون عصا الطاعة ، ولا يذلون في البيعة ، وهذا الذي سارع إلى تنفيذه :

(ثم قام فراح معاوية فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار ؛ زعموا أن ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر الصديق لم يبايعوا يزيد ! قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له .

فقال أهل الشام : لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم . فقال :

مَه ، سبحان الله ، ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء ! لا أسمع هذه المقالة من أحدٍ بعد اليوم . ثم نزل .

فقال الناس : بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر ، ويقولون : لا والله ما بايعنا . ويقول الناس : بلى لقد بايعتم . وارتحل معاوية فلحق بالشام)(١) .

ثم ما هي وجهة نظر معاوية في ولاية يزيد للعهد ؟

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط عن وهب بن جرير (ثقة) عن جرير بن حازم (لا بأس به) عن النعمان بن راشد (صدوق فيه ضعف) عن الزهري (الفقيه الحافظ الثقة) . أما الرواية الثانية التي تشير إلى تهديدهم بالقتل فهي مروية عن أشياخٍ من المدينة مجهولين فلا يمكن الاطمئنان إليها (عن وهب بن جرير عن جويرية ابن أسماء عن أشياخٍ من المدينة) .

فلقد كانت بيعة يزيد في حقيقة الأمر من علائم الملك لا من علائم الخلافة ، إنه لا غضاضة أن تتم البيعة في حياة معاوية لأحد قادة الأمة كي يطمئن على الأمة بعد وفاته ، فلقد استخلف قبله من هو خير منه كما فعل الصديق رضي الله عنه .

ولا غضاضة أن يدع الأمر بعده للمسلمين ، فلقد ترك رسول الله ﷺ الأمر للمسلمين من بعده .

ولا غضاضة أن يحدد الأمر في قادة المسلمين من بعده كما فعل من هو خير منه الفاروق رضي الله عنه .

أما أن تكون البيعة لولده من بعده من جهة ، وأن تحدد به في حياة الخليفة نفسه من جهة ثانية ؛ فهو الشيء الخارج على الأصول المرعية في الخلافة الإسلامية ، وهو أشبه ما يكون بالملك لا بالخلافة، وهذا ما حدا ببعض المسلمين أن يطلق على هذا التصرف : هرقلية وكسروية ؛ كلما مات قيصر قام قيصر .

ونعود لنتساءل ثانية : ما هي وجهة نظر معاوية في ولايته للعهد ؟

إن الفتن التي تلاحقت يتلو بعضها بعضاً جعلت من الصعوبة بمكان أن يلتقي المسلمون على خليفة واحد ، خاصة والقيادات الإسلامية المتكافئة في الإمكانيات قد يضرب بعضها بعضاً ، فتقع الفتن والملاحم بين المسلمين مرة ثانية ، ولا يعلم إلا الله مداها .

ومرور قرابة عشرين عاماً ، وذات البين حسنة ، وطاقات المسلمين موجهة إلى عدوهم ؛ هو نموذج رائع لوحدة الكلمة بين المسلمين .

هذا من جهة .

ومن جهة ثانية :

فإمكانيات الحكم ورجاله وسلاحه كلها متوفرة في الشام ، وبنو أمية عصب الملك قد تمرسوا بمسؤوليات الحكم ، وخبروا أساليبه . وجمهور قاعدة الحكم من الجنود واجهزة الدولة قد انصاعوا على الولاء لمعاوية رضي الله عنه ، فأي تغيير جديد في هذه الأجهزة قد يعيد البلبلة والفوضى من جديد .

وكون يزيد بن معاوية قد تمرس بالسلطة وخبر أساليبها ومارس جوانب من مسؤولياته فيها ، وعرف فنونها وطرائقها ، وقاد الجيوش ، وحاصر العدو ، وعرف نكايته وأساليبه وطرائقه ؛ كان هذا كافياً لأن يقع اختيار معاوية على يزيد .

لقد كانت هذه القناعة واضحة في خط معاوية السياسي كله .

فلقد ذكر ابن دريد عن أبي حاتم عن العتبي قول معاوية :

يا أيها الناس : ما أنا بخيركم وإن منكم لمن هو خير مني . عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما من الأفاضل . ولكن عسى أن أكون انفعكم ولاية ، وأنكاكم في عدوكم ، وادرّكمْ حلباً (١).

ولا ننكر أبداً دور العاطفة البشرية من الأب لابنه ، فقد ساهمت مع الأسباب السابقة في اختيار يزيد ولياً للعهد .

وإنكار دور العاطفة البشرية إنكار لا مبرر له ، وحصر الأسباب من خلال هذه العاطفة هو تعصب كذلك لا مبرر له ، فثقة معاوية بكفاءة يزيد ثقة جيدة .

---

(١) رواه أصحاب محمد عن ابن سعد عن محمد بن مصعب (صدوق كثير الغلط) عن أبي بكر بن أبي مريم (ضعيف) عن ثابت مولى معاوية (البداية والنهاية ج٨ ص١٣٤) .

ولكننا حين نقارن بين الموقفين : موقف علي وموقف معاوية : نلاحظ الفرق بين الملك والخلافة .

علي رضي الله عنه يسأله المسلمون وهو على فراش الموت : انولي الحسن بعدك ؟

فكان جوابه : لا آمركم ولا انهاكم .

فرغم ثقته بكفاءة ابنه الحسن ؛ لكنه ابتعد عن ذلك لئلا يكون للعاطفة الأبوية دور في هذا التوجيه ، واعلن رأيه بصراحة تامة : لا آمركم ولا أنهاكم .

فالأمر امر المسلمين ، وهم ادرى بشؤونهم منه ، وهو متجه إلى جوار ربه .

يقول ابن كثير رحمه الله :

(فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية ، ورأى انه لذلك أهلاً ، وذلك من شدة محبة الوالد لولده ، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية ، وسيما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب وترتيب الملك ، والقيام بأبهته . وكان ظن أن لا يقوم أحد من ابناء الصحابة في هذا المعنى . ولهذا قال لعبد الله بن عمر فيما خاطبه به :

إني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راع) (١) .

ولقد صدّق الواقع حدس معاوية ونبوءته ؛ فبعد هلاك يزيد ابن معاوية ماذا كان الأمر ؟ العراق والحجاز لعبد الله بن الزبير ، والشام لعبد الملك بن مروان .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٨٠ .

ووقعت دماء وسالت أنهاراً حتى انتصر عبد الملك على خصمه عبد الله بن الزبير .

وتلك العراق التي أقضَّت مضجع الخلافة الإسلامية ، هي نفسها التي تعلن الثورة على يزيد ، وتستدعي الحسين بن علي رضي الله عنهما ، ثم تقوده إلى الذبح متخلية عنه ؛ بعد أن منحوه قلوبهم وشهروا عليه سيوفهم .

وعندما دعي ابن الزبير رضي الله عنه إلى أن يمضي إلى الشام، رفض ذلك ؛ لأن أركان الحكم في الشام وجنوده وأعوانه لا يرتاح إليهم أولاً ، ولا يمكن أن يخلصوا له من جهة ثانية .

إن طبيعة المعركة التي تمت بين علي ومعاوية جعلت جيش معاوية في استقرار تام ، وطاعة عظيمة ، وانقياد عجيب . بينما كان جيش علي رضي الله عنه يخرج عليه ، ويتلكأ أهل العراق في طاعته ؛ حتى ليدعو ربه أن يتخلص منهم ومن سلبيتهم وخذلانهم له.

ولقد أصاب الحسنَ بن علي رضي الله عنه من أهل العراق ما أصاب أمير المؤمنين علياً رضوان الله عليه .

ولو قام الحكم في أي مكان غير دمشق فلسوف تكون الشام خطراً عليه .

لقد تركز الملك ومفاهيمه في الشام ، ولقد تبدل كثيرٌ من أسس الخلافة الأولى التي كانت تربط الأمة بالمبدأ أكثر من ربطها بالشخص .

هكذا آل الوضع ، وصدق معاوية حين قال : رضينا بها ملكاً .

هل يمكن أن نقول : أن الجيل الثاني من الأمة لم يكن على مستوى الخلافة ؟

نعم ، يمكن أن يكون ذلك .

وفي ميزان الملك : فيزيد جدير به .

وفي ميزان الخلافة : فكل أولئك النفر هم أجدر من يزيد بها : عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، والحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين .

لقد كان معاوية رضي الله عنه يدرك هذه الجوانب جميعاً ، وكان على ثقة من كفاءة يزيد ، ولكنه كان يخشى في الوقت نفسه أن يكون اختيار يزيد قد طغت عليه العاطفة ، فدفعته عن الحق في هذا الإطار .

لقد كان يدعو ربه متضرعاً إليه وعلى ملأ من الناس ، وعلى المنبر ، ويقول :

(اللهم إن كنت تعلم أني وليته لأنه فيما أراه أهلاً لذلك ؛ فأتمم له ما وليته . وإن كنت وليته لأني أحبه ؛ فلا تتمم له ما وليته) .

فهذا النص الذي أورده ابن كثير رحمه الله ورواه عن معاوية كاف لأن يعطينا أوضح دليل على نفسية معاوية ودوافعه رضوان الله عليه .

لقد اختلطت العاطفة الأبوية بمفهوم القناعة والكفاءة ، فضرع إلى ربه جل وعلا أن يختار للأمة ما يرضيه ، ولو أن الأمر خرج من يزيد . لقد كان معاوية رضي الله عنه يرى الكفاءة في العديد من قادة الأمة ، ولكنه لم يكن يرى أن يزيد اقل منهم كفاءة ، ولعل هذا الأمر

ترجح له في المرحلة الأخيرة من حياته ، اما قبل فلم يكن الأمر كذلك، فقد ذكر قبيصة بن جابر قوله :

بعثني زياد في شغل إلى معاوية ، فلما فرغت من اموري قلت :

يا امير المؤمنين لمن يكون الأمر من بعدك ؟

فسكت ساعة ثم قال :

يكون بين جماعة : إما كريم قريش سعيد بن العاص ، وإما فتى قريش حياءً ودهاءً وسخاءً عبد الله بن عامر ، وإما الحسن بن علي فرجل سيد كريم ، وإما القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله مروان بن الحكم ، وإما رجل فقيه عبد الله بن عمر ، وإما رجل يرد الشريعة مع دواهي السباع ، ويروغ روغان الثعلب فعبد الله بن الزبير (١) .

وصدق حدس معاوية ، فما انتهى يزيد حتى آل الأمر لمروان ابن الحكم القارىء الفقيه الشديد في حدود الله .

* * *

هذا ولا بد لنا ان نقول كلمة فيما ذكر ان ناساً من اهل المدينة كانوا يتهمون يزيد باللهو ومعاقرة الخمر فنقول :

لم يرد ذلك في رواية صحيحة ابداً وحاشى لمعاوية رضي الله عنه ان يبايع لرجل يفعل هذا ، ولقد تضخم هذا الأمر عند اهل

---

(١) اورده ابن كثير ج٨ ص ٨٥ عن عبد الملك بن عمير (ثقة) عن قبيصة بن جابر (ثقة) .

المدينة ، ولم يوافقهم على هذا الاتهام ليزيد أعظم الصحابة قـدراً في ذلك العهد : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقد روى الإمام أحمد عن نافع مولى ابن عمر قال :

(لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد وقال : أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال : هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الاشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته . فلا يخلعن أحد منكم يزيد ، ولا يسرفن أحد منكم في هـذا الأمر فيكون الفيصل بيني وبينه) ورواه مسلم والترمذي .

(ولما رجع أهل المدينة من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيـع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية؛ فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم .

فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب .

فقال لهم : ما رأيت منه ماتذكرون ، وقـد حضرته واقمت عنده ، فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، يسأل عـن الفقه ، ملازماً للسنة .

قالوا : فإن ذلك كان تصنعاً لك .

فقال : ما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع ؟! أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟! فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لاتعلموه !!

قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه .

فقال لهم : ابى الله ذلك على اهل الشهادة فقال : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ولست من أمركم من شيء .

قالوا : فلعلك تكره ان يتولى غيرك فنحن نوليك امرنا .

قال : ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً أو متبوعاً .

قالوا : قد قاتلت مع أبيك .

قال : جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه . . .) (١) .



(١) البداية والنهاية ٢٣٣/٨ .

المَلِكُ المجاهــدُ إلى جِوارِ رَبِّهِ

الجهاد لم ينقطع طيلة حياة معاوية رضي الله عنه ؛ خاصة في الحدود المتاخمة للروم ، فهذا سعيد بن عثمان (١) يقاتل الصُغْد وينتصر عليهم ، ويأخذ ابناء عظمائهم رهينــة عنــده عنوانــاً على استسلامهم . وهذا عبد الله بن قيس يجعل مشتاه بأرض الروم في عام ثمانية وخمسين . ولم يخل هذا العام من شرور الخوارج في العراق ، فخرجوا فحوصروا وقتلوا .

---

(١) سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما كان ذا شأن بين الشخصيات الاسلامية . وفد على معاوية وسأله أن يستعمله على خراسان ، قال معاوية : إن بهــا عبيد الله بن زيــاد (وكان قــد تولاها بعد وفاة زياد أبيه) فانفعل سعيد وخاطب معاوية بغلظــة وجفاء قائلاً :

اما لقد اصطنعك أبي ورفاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجارى إليه ولا يسامى ، فما شكرت بلاءه ، ولا جازيته بآلائه ، وقدمت عليَّ هذا (يعني يزيد بن معاوية) وبايعت له ؛ ووالله لانا خير منه اباً وأماً ونفساً .

فقال معاوية :

أما بلاء أبيك : فقد يحق عليَّ الجزاء به ، وقد كان من شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى تكشفت الأمــور ، ولست بلائم لنفسي في التشمير .

←

وها هو معاوية يودع الرعيل الأول الذين كانوا رفاقه في الجهاد أو خصومه ، فيموتون واحداً إثر الآخر : عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عامر ، وسعيد بن العاص ، وزياد بن أبيه ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . وها هي الأوجاع تترى على جسمه الضعيف وقد غدا وله نيّف وسبعون عاماً .

وكانت أغرب رسالة وصلته من رجل من أهل المدينة ففضها فإذا فيها :

إذا الرجال ولدت أولادها
واضطربت من كبر أعضادها
وجعلت أسقامها تعتادها
فهي زروع قد دنا حصادها

فطوى الكتاب ، وصمت هنيهة ، ثم قال :

نَعى إلي نفسي .

ورأى انه غدا ثقيل الحركة ، بطيء الخطا . فخرج إلى الناس،

←

واما فضل ابيك على أبيه : فأبوك والله خير مني ، وأقرب برسول الله ﷺ . واما فضل امك على امه فما ينكر ؛ امرأة من قريش خير من امرأة من كلب . واما فضلك عليه : فوالله ما أحب ان الغوطة دَحَسَتْ ـ اي امتلأت ـ ليزيد رجالاً مثلك .
وكاد أن يتفجر الموقف ؛ لولا حصافة يزيد ولبقاته التي انقذت الموقف فقال لأبيه : يا امير المؤمنين ابن عمك ، وانت احق من نظر في أمره ، وقد عتب عليك لي فأعتبه ـ أرضِه ـ . فولاه حرب خراسان . الطبري ج٥ ص٥٣٠ عن عمر (صدوق) عن علي (صدوق) عن محمد بن حفص (مقبول) .

وصعد درج المنبر بصعوبة وعيون المسلمين شاخصة إليـه ، وهم يرون آثار الجهد بادية على وجهه ، فيعلو وجوههم الهم ، وتبـدو عليها مسحة الكآبة . وها هم يستمعون إلى امير المؤمنين ، ينعي إليهم نفسه ، فيقول بعد أن حمد الله واثنى عليه :

ايها الناس ، إني من زرع قد استحصد ، وإني قد وليتكم ، ولن يليكم احد بعدي خير مني ، وإنما يليكم من هو شر مني ، كما كان من وليكم قبلي خيراً مني .

ويا يزيد إذا دنا اجلي فولّ غسلي رجلاً لبيباً ، فإن اللبيب من الله بمكان .

وترقرقت الدموع في المحاجر . وكأن امير المؤمنين يتحـدث امامهم اليوم في الوداع الأخير . وتابع معاوية رضي الله عنه حديثه :

(فلينعم الغسل ، وليجهر بالتكبير . ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ وقراضة من شعره واظفاره ...) وما كاد يتم كلامه حتى سالت الدموع على الوجوه غزيرة ، فقد ذكر امامهم سيد الأحبة محمداً ﷺ ، ثوبه واظفاره وقراضة من شعره .

وبين هذا السيل الجارف من الذكريات ، وبين أمير المؤمنين الذي يلقي عليهم نظرة الوداع ــ فلعلهم لا يلقونه بعد اليوم ــ كان القوم غارقين . وكلام معاوية كأنما يعصر قلوبهم عصراً من الألم .

وتابع معاوية كلامه :

(فاستودع القراضة انفي وفمي واذني وعيني ، فإذا ادرجتموني في جريدتي ، ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وارحم الراحمين)

وغادر معاوية المسجد ، وكان اللقاء الأخير له مع المسلمين في الشام ، ودخل بيته ، وكان البرد قد اشتد عليه فلبس ثوباً ثقيلاً ، فاغتم منه .

ودنا اجل الملك المجاهد ، فرمى ببصره بعيداً بعيداً وراء الأفق. واستعاد شريط ذكرياته الطويل ، وحصيلة سبعين عاماً ونيّفاً انسلخت من عمره ، ورأى تفاهة الدنيا وضآلة شأنها ماثلة بين عينيه ؛ فقال :

تباً لك من دار ، ملكتك اربعين سنة ، عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، وهذا حالي فيك ، ومصيري منك !!

ثم تنهد وقال بصوت متهدج : تباً للدنيا ومحبيها !!

* * *

وكان لا بد أن يقدم وصيته لخليفته من بعده ، فهموم الأمة تلاحقه حتى الرمق الأخير ، فاستدعى قائد شرطته الضحاك بن قيس الفهري وطلب منه أن يكتب وصيته إلى يزيد الذي لم يكن حاضراً في ايامه الأخيرة ، كما دعا مسلم بن عقبة المري ـ وكان من اخص مستشاريه ـ فأفضى إليهما بخاصة نفسه ، وامرهما أن يبلّغا يزيد وصيته وهي :

١ ـ انظر أهل الحجاز فإنهم اصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب .

٢ ـ وانظر أهل العراق فإن سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ؛ فإن عزل عامل احب إلي من ان تشهر عليك مائة ألف سيف .

٣ ـ وانظر اهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشـــام إلى بلادهم ، فإنهم إن اقاموا بغير بلادهم ، اخذوا بغير اخلاقهم .

٤ ـ وإني لست اخاف من قريش إلا ثلاثة :

حسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمساً شيئاً قبلك .

واما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف ، وارجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل اخاه . **وإن له رحماً ماسة ، وحقاً عظيماً ، وقرابة من محمد ﷺ . ولا اظن اهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه .**

وأما ابن الزبير فإنه خبٌ ضب ، فإذا شخص لك فالبَدْ له ، إلا أن يلتمس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبل منه (١) .

٥ ـ واحقن دماء قومك ما استطعت (٢) .

وهكذا القى لابنه يزيد بحصالة تجاربه خلال ثلاثةأرباعالقرن.

---

(١) هناك رواية أخرى للوصية يتهم فيها معاوية عبد الرحمن ابن أبي بكر باللهو والنساء ويوصي فيها يزيد بأن يقطع ابن الزبير إرباً إرباً إن ظفر به . وهي روايــة متهافتة محورهــا ابو مخنف الشيعي الذي كان له دور كبير في تشويه شخصيات الاســلام ، والذي يدل على كذب هذه الرواية أن عبد الرحمن بن أبي بكر توفي في حياة معاوية .

(٢) الطبري ٣٢٣/٥ عن هشام عن عوانة .

واحس انه قد القى حملاً ثقيلاً عن كتفه ، ثم أحس بثقل أكبر ، فقال لأهله : احشوا عيني إثمداً ، واوسعوا راسي دهناً .

ولم يدر أهله سبباً لذلك ، ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن .

وطلب وسادة يتكىء عليها ، فأجلس ، ثم قال :

ائذنوا للناس فليسلموا علي قياماً ، ولا يجلس أحد .

فجعل الرجل يدخل فيسلم قائماً ، فيراه مكتحلاً مدهناً فيقول : يقول الناس : إن أمير المؤمنين لمآبه ، وهو اصح الناس .

فلما خرجوا من عنده قال معاوية في صوت متهدّج وهو يتمثل قول الشاعر :

وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

وكان هذا آخر عهده بالناس والدنيا .

وبقي بين يدي أهله ، ففاضت دمعة من مآقيه ، ورسم خط حياته كله ؛ فقال وهو يحتضر ـ وكأن المجد في الدنيا كله يعلن على لسانه ـ :

لعمري لقد عُمرت في الدهر برهة
ودانت لي الدنيا بوقع البواتر
وأعطيت حمر المال ، والحكم والنهي
ولي سلمت كل الملوك الجبابر

ثم ماذا جرى بهذا المجد :

فأضحى الذي قد كان مما يسرني
كحكم مضى في المزمنـات الفوابـر

ثم ها هي الأمجاد تتلاشى سريعاً ويفقدها من بين يديه ، وها هو حاكم الدنيا الاسلامية يعلن امام الموت ، ويتمنى .

وماذا يتمنى ؟!!

فياليتني لـم اعنِ في الملك ساعـة
ولم أسعَ في لـذات عيش نواضر
وكنت كذي طمريـن عاش ببلغـة
فلم يـك حتى زار ضيق المقابـر

إيه يا أول الملوك ، تغبط ذا الطمرين الذي عاش ببلغة في حياته؛ وانت ابو المجد والجاه والسؤدد .

واوصى معاوية .. وماذا كانت وصيته ؟

أوصى بنصف ماله ان يرد إلى بيت المال ، وكأنـه اراد ان يطيب له الباقي وان يكون له اقتداء بالفاروق عمر بن الخطاب الذي قاسم ولاته نصف اموالهم . وهم الذين لايرقى الشك إلى ورعهم وتقـاهم .

وانقطع عن الكلام ، وخيم على المكان صمت رهيب ، إنـه صمت الموت . ثم قال وقد فتح عينيه وهو في وداعه الأخير :

(ياليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى ، ولم الِ من هـذا الأمر شيئاً) .

إنه موقف الخليفة الفاروق رضي الله عنه وقد جاءه الموت ، وراح الناس يعرضون عليه ولاية ابنه عبد الله : بحسب آل عمر أن

يحاسب منهم رجل واحد ، إن خرجت من الدنيا كفافاً لا علي ولا لي ؛ إني إذاً لسعيد !!

إنها اللحظات التي تستجمع فيها الذنوب ، وتغيب فيها الدنيا بهجاتها ولذاتها ، فمن له في هذه اللحظات غير رب العالمين .

هاهم اهله يسمعونه يناجي ربه ، ولا يكاد يلتقط نفسه ، وحشرجة الموت تخالط انفاسه الضعيفة :

إن تناقش يكن نقاشك يارب
عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز تجاوز العفو واصفح
عن مسيء ذنوبه كالتراب

وها هو يتقلب على فراشه ، ويعاني من سكرات الموت :

يضع خداً على الأرض ثم يقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ، ويقول :

اللهم إنك قلت في كتابك : (إن الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) اللهم اجعلني فيمن تشاء ان تغفر له .

إنه يرى الموت عياناً فأين الفرار منه !!

هو الموت لا منجا من الموت والذي
تحاذر بعد الموت ادهى وافظع

ثم يقول :

اللهم اقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرجُ غيرك ، فإنك واسع المغفرة ، ليس لذي خطيئةمنخطيئته مهرب إلا إليك .

ثم غاب عن الوعي . واغمي عليه .

فقاموا فتحسسوا يديه .

لا يزال قلبه ينبض ، فلم يسلم الروح بَعْدُ .

ثم فتح عينيه بعد غيبوته ، وكان آخر ما قاله يوصي أهله :

اتقوا الله عز وجل فإن الله سبحانه يقي من اتقاه . ولا واقي لمن لا يتقي الله .

وما هي إلا لحظات حتى أسلم معاوية الروح لبارئها سبحانه .

أسلمها وكل رجائه بالله أن يغفر الله له .

(إن رسول الله ﷺ كساني قميصاً فرفعته. وقلّم أظفاره يوماً فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة .. فإذا مت فألبسوني ذلك القميص ، وقطّعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفي فيّ ، فعسى الله أن يرحمني ببركتها .

يا رحمة الله لك يا معاوية . يا أول الملوك .

يامن كنت تهز الدنيا بيدك ، وتقود الجيوش بإشارتك ، وترتجف كثير من القلوب هيبة من ذكرك .

ها أنت على فراش الموت تقلبك ابنتاك دون أن تملك حراكاً . وقد شارفت على الثمانين ، وها أنت واقف على أعتاب قبرك وانت طامع برحمة ربك ؛ دون أن ينتابك غرور الدنيا بجهدك وجهادك اربعين عاماً أو يزيد ... ومضيت وبقيت الدنيا بعد أن غاب شخصك تتحدث عنك .. عن أعظم ملوك الاسلام الملك المجاهد ، معاوية بن ابي سفيان .



قـالوا في مُعـاويَة

١ ــ اللهم علم معاوية الكتاب والحساب ، وقه العذاب .
محمد رسول الله ﷺ

٢ ــ اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به .
محمد رسول الله ﷺ

٣ ــ لما عزّيت هند (أم معاوية) في يزيد بن أبي سفيان قيل لها :
إنه قد جعل معاوية اميراً مكانه .
قالت : او مثل معاوية يجعل خلفاً من احد ؟

فوالله لو أن العرب اجتمعت متوافرة ثم رمي به فيها لخرج من اي أعراضها (نواحيها) شاء .

٤ ــ دعوا فتى قريش وابن سيدها ، إنه لمن يضحك عند الغضب ، ولا ينال منه إلا على الرضا ، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه .
عمر بن الخطاب

٥ ــ هذا كسرى العرب ، تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما ؛ وعندكم معاوية ؟!
عمر بن الخطاب

٦ ــ دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء ، فنظر إليها الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة ، فجعل يضربه بها. وجعل معاوية يقول : يا امير المؤمنين ! الله الله فيّ .

فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم :
لم ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله ؟

فقال : والله ما رايت إلا خيراً ، وما بلغني إلا خير ، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رايتم . ولكن رايته ــ واشار بيده إلى راسه ــ فأحببت ان اضع منه ما شمخ .

٧ ــ رايت رسول الله ﷺ في المنام وابو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت عليه وجلست . فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية، فأدخلا بيتاً واجيف الباب وأنا انظر ، فما كان بأسرع من ان خرج علي وهو يقول :
قضي لي ورب الكعبة .

ثم ما كان بأسرع من ان خرج معاوية وهو يقول :
غفر لي ورب الكعبة .
عمر بن عبد العزيز

٨ ــ أيها الناس لا تكرهوا إمارة معاوية فإنكم لو فقدتموه رايتم الرؤوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل .
علي بن أبي طالب (منصرفه من صفين)

٩ ــ ما رايت أحداً بعد عثمان اقضى بحقٍ من صاحب هذا الباب ــ يعني معاوية ــ
سعد بن أبي وقاص

١٠ ــ ما رأيت أحداً أعظم حلماً ، ولا أكثر سؤدداً ، ولا أبعد أناة ، ولا الين مخرجاً ، ولا أرحب باعاً بالمعروف ، ولا اشبه سريرة بعلانية من معاوية .
قبيصة بن جابر

١١ ــ قد علمت بم غلب معاوية الناس : كان إذا طاروا وقع ، وإذا وقعوا طار !!
عبد الله بن عباس

١٢ ـ لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تغزو ، حتى كان عام الجماعة فأغزا معاوية ارض الروم ست عشرة غزوة ، تذهب سرية في الصيف وتشتو بأرض الروم ، ثم تقفل وتعقبها اخرى .

سعيد بن عبد العزيز

١٣ ـ ادرك خلافة معاوية عدة من الصحابة منهم : اسامة وسعد وجابر وابن عمر وزيد بن ثابت ومسلمة بن مخلد وابو سعيد ورافع بن خديج وأبو امامة ، وانس بن مالك ، ورجال أكثر ممن سمينا بأضعاف مضاعفة . كانوا مصابيح الهدى ، واوعية العلم ، حضروا من الكتاب تنزيله ، ومن الدين جديده ، وعرفوا من الاسلام مالم يعرفه غيرهم ، واخذوا عن رسول الله ﷺ تأويل القرآن . ومن التابعين لهم بإحسان ما شاء الله ، منهم : المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود ، وسعيد بن المسيب ، وعبد الله بن محيريز ، وفي أشباه لهم لم ينزعوا يداً من جماعة في أمة محمد ﷺ .

الأوزاعي

١٤ ـ نظر ابو سفيان يوماً إلى معاوية وهو غلام فقال لهند :

إن ابني هذا عظيم الراس ، وإنه لخليق أن يسود قومه .

فقالت هند : قومه فقط ؟!!. ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة .

١٥ ـ أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس فقال : اوتر معاوية بركعة بعد العشاء !

فقال : دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ ، اصاب ، إنه لفقيه .

١٦ ـ كان معاوية إذا حدّث عن رسول الله ﷺ لم يتهم .

محمد بن سيرين

١٧ ـ كان معاوية يبعث رجلاً يقال له : ابو الجيش في كل يوم؛ فيدور على المجالس يسأل هل ولد لأحد ولد ؟ او قدم احد من الوفود ؟ فإذا اخبر بذلك اثبت في الديوان ـ يعني ليجري عليه الرزق ـ .

محمد بن سيرين

١٨ ـ رايت معاوية في سوق دمشق وهو مردف وراءه وصيفاً ، عليه قميص مرقوع الجيب ، وهو يسير في أسواق دمشق .

يونس بن ميسرة بن حلبس

١٩ ـ لو رايتم معاوية لقلتم هذا المهدي .

الأعمش عن مجاهد

٢٠ ـ ما رايت احداً أسود (من السيادة) من معاوية . قال : قلت : ولا عمر ؟ قال : كان عمر خيراً منه ، وكان معاوية أسود منه !!

عبد الله بن عمرو

٢١ ـ ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية قيل : ولا أبو بكر ؟ قال : كان ابو بكر وعمر وعثمان خيراً منه وهو أسود .

العوام بن حوشب

٢٢ ـ ما رايت أحداً أخلق للملك من معاوية ، إن كان ليرد الناس منه على أرجاء واد رحب .

عبد الله بن عباس

٢٣ ـ نميل على جوانبه كأنا   نميل إذا نميل على ابينا
نقلبه لنخبر حالتيه   فنخبر منهما كرماً ولينا

ابو الجهم

٢٤ ـ لله در ابن هند ، إن كنا لنفرقه ، وما الليث في براثنه باجرا منه . فيتفارق لنا ـ يظهر الخوف ـ وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من اهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا . والله لوددت انا متعنا به مادام في هذا الجبل حجر .   عبد الله بن الزبير

٢٥ ـ قال معاوية لابن عباس يعزّيه في الحسن رضي الله عنه : لايسوؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي .

فقال ابن عباس لمعاوية : لا يحزنني الله ولا يسوؤني ما أبقى الله امير المؤمنين .

٢٦ ـ من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وشهد للعشرة بالجنة ، وترحم على معاوية ؛ كان حقاً على الله ان لا يناقشه الحساب .   سعيد بن المسيب

٢٧ ـ تراب في أنف معاوية خير من عمر بن عبد العزيز .
عبد الله بن المبارك

٢٨ ـ سئل المعافى بن عمران أيهما أفضل ؟ معاوية أو عمر بن عبد العزيز ؟ فغضب وقال للسائل : أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين؟ معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وامينه على وحي الله .

٢٩ ـ معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كشف الرجل الستر اجترا على ماورائه .   الربيع بن نافع

٣٠ ـ ما رايت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية ، فإنه ضربه أسواطاً   إبراهيم بن ميسرة

٣١ ـ الدهاة أربعة : معاوية ، وعمرو ، والمغيرة ، وزياد .
الشعبي

٣٢ ـ الدهاة في الفتنة خمسة : معاوية ، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وكان معتزلاً ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وعبدالله ابن بديل بن ورقاء .

الزهري

٣٣ ـ ما رايت معاوية متكئاً قط ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى ، كاسراً عينه يقول لرجل تكلم إلا رحمته .

عمرو بن العاص

٣٤ ـ كان معاوية طويلاً أبيض جميلاً ، إذا ضحك انقلبت شفته العليا وكان يخضب .

ابو بكر بن ابي الدنيا

٣٥ ـ كان أبيض طويلاً أجلح ، أبيض الراس واللحيـة ، يخضبهما بالحناء والكتم ، وقد أصابته لوقة في آخر عمره ، فكان يستر وجهه ويقول : رحم الله عبداً دعا لي بالعافية ، فقد رميت في أحسني ـ أي وجهه ـ ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي . وكان حليماً وقوراً ، رئيساً سيداً في الناس عادلاً شهماً .

ابن كثير

٣٦ ـ إياكم والفرقة بعدي ، فإن فعلتم فإن معاوية بالشام ، وستعلمون إذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبزها دونكم .

عمر بن الخطاب

٣٧ ـ قلت للحسن بن علي لما قدم من الكوفة إلى المدينة : يا مذل المؤمنين قال : لا تقل ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك معاوية .

سفيان بن الليل

* * *

مِن كلمات معاوية

١ ـ في خطابه لعائشة بنت عثمان :

يا بنت أخي ، إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد . فبعناهم هذا بهذا ، وباعونا هذا بهذا . فإن أعطيانهم غير ما اشتروا منا شحوا علينا بحقنا ، وغمطناهم بحقهم ، ومع كل إنسان منهم شيعته ، وهو يرى مكان شيعته ، فإن نكثناهم نكثوا بنا ، ثم لا ندري أتكون لنا الدائرة أم علينا . وأن تكوني ابنة عثمان أمير المؤمنين ، أحب إلي أن تكوني أَمَة من إماء المسلمين ، ونعم الخلف انا لك بعد ابيك .

٢ ـ في خطبة له على منبر دمشق يوم جمعة :

أيها الناس اعقلوا قولي ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني ، اقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم .

خذوا على أيدي سفهائكم ، أو ليسلطنّ الله عليكم عدوكم ، فليسومنكم سوء العذاب .

تصدّقوا ولا يقولن الرجل: إني مقلّ ، فإن صدقة المقل افضل من صدقة الغني . إياكم وقذف المحصنات ، وأن يقول : سمعت وبلغني ، فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة .

٣ ـ انا اول الملوك وآخر خليفة .

٤ — إني لأرفع نفسي من ان يكون ذنب اعظم مـن عفوي ، وجهل اكثر من حلمي ، أو عورة لاأواريها بستري ، أو إساءة اكثر من إحساني .

٥ — يا أبا الجهم إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ اخذ الأسد ، وإن قليله يغلب كثير الناس .

ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال .

٦ — يابني أمية فارقوا قريشاً بالحلم ، فوالله لقد كنت القى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً واوسعه حلماً ؛ فأرجع وهو لي صديق ، إن استنجدته انجدني ، واثور به فيثور معي . وما وضع الحلم عن شريف شرفه ، ولا زاده إلا كرماً .

٧ — آفة الحلم الذل .

٨ — لا يبلغ الرجل مبلغ الراي حتى يغلب حلمه جهلـه ، وصبره شهوته ، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم .

٩ — قيل لمعاوية من اسود الناس فقال :

اسخاهم نفساً حين يسأل ، واحسنهم في المجالس خلقاً ،واحلمهم حين يستجهل .

١٠ — كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات :

فما قتل السفاهة مثل حلـم ... يعـود بـه على الجهل اللئيم
فلا تسفـه وإن ملّيـت غيظاً ... على احـد فإن الفحش لوم
ولا تقطع اخاً لك عنـد ذنب ... فإن الـذنب يغفـره الكريـم

١١ — كتب معاوية إلى نائبه زياد قائلاً :

إنه لاينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة؛باللين فيمرحوا،

ولا بالشدة فنحمل الناس على المهالك . ولكن كـن انت للشـدة والفظاظة والغلظة ، وانا للين والألفة والرحمة ، حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه .

١٢ ــ قال عبد الله بن جعفر لدهقان فارس :

اسجد لله ، واحمل مالك إلى منزلك ، فإنا اهل بيت لا نبيع المعروف بالثمن .

فقال معاوية :

لأن يكون يزيد قالها أحب إلي من خراج العراق .

ابت بنو هاشم إلا كرماً .

١٣ ــ قيل لمعاوية : أيكم كان اشرف ، انتم او بنو هاشم ؟

فقال : كنا اكثر اشرافاً وكانوا هم اشرف .

فيهم واحد لم يكن في عبد مناف مثل هاشم .

فلما هلك كنا أكثر عدداً واكثر اشرافاً .

وكان فيهم عبد المطلب ، ولم يكن فينا مثله ؛ فلما مات صرنا اكثر عدداً وأكثر اشرافاً .

ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ؛ فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا : منا نبي .

فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله محمد ﷺ .

فمن يدرك هذه الفضيلة ، وهذا الشرف ؟!

١٤ ــ المروءة في اربع :

العفاف في الاسلام ، واستصلاح المال ، وحفظ الإخـوان ، وحفظ الجار .

١٥ ــ قيل لمعاوية : اسرع إليك الشيب ! قال :

كيف لا ، ولا ازال ارى رجلاً من العرب ، قائماً على راسي يلقح لي كلاماً يلزمني جوابه ؛ فإن اصبت لم احمد ، وإن اخطأت سارت بها البرود .

١٦ ــ العقل والحلم افضل ما اعطي العبد : فإذا ذُكّر ذَكر ، وإذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا وعد انجز ، وإذا قدر غفر ، وإذا اساء استغفر .

١٧ ــ ما من شيء ألذ عندي من غيظ اتجرعه .

١٨ ــ زين الشريف العفاف .

١٩ ــ قال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم بن ابي العاص :

يا ابن أخي إنك قد لهجت بالشعر : فإياك والتشبيب بالنساء فتعُرّ الشريفة ، والهجاء فتعر كريماً وتستثير لئيماً ، والمدح فإنه طعمة الوقاح ؛ ولكن افخر بمفاخر قومك ، وقل من الأمثال ما تزيد به نفسك ، وتؤدب به غيرك .

٢٠ ــ اغلظ رجل لمعاوية فأكثر ، فقيل له : اتحلم عن هذا ؟

فقال : إني لا احول بين الناس والسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا .

٢١ ــ رحم الله ابا بكر ، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا . واما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . واما عثمان فأصاب من الدنيا واصابت منه ؛ واما نحن فتمرغنا فيها .

ثم كأنه ندم فقال : والله انه لملك آتانا الله إياه .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه ، وتتناول اعلام المسلمين في شتى الميادين .

صدر منها :

١ ـ عبد الله بن المبارك (الإمام القدوة)
تاليف محمد عثمان جمال

٢ ـ الإمام الشافعي (فقيه السنة الأكبر)
تأليف عبد الغني الدقر

٣ ـ مصعب بن عمير (الداعية المجاهد)
تأليف محمد حسن بريغش

٤ ـ عبد الله بن رواحة (أمير شهيد وشاعر على سرير من ذهب)
تأليف د. جميل سلطان

٥ ـ ابو حنيفة النعمان (إمام الأئمة الفقهاء)
تاليف وهبي غاوجي الألباني

٦ ـ عبد الله بن عمر (الصحابي المؤتسي برسول الله)
تاليف محيي الدين مستو

٧ ـ انس بن مالك (الخادم الأمين والمحب العظيم)
تاليف عبد الحميد طهماز

٨ ـ سعيد بن المسيب (سيد التابعين)
تاليف د. وهبة الزحيلي

٩ ـ السلطان محمد الفاتح (فاتح القسطنطينية وقاهر الروم)
تاليف د. عبد السلام فهمي

١٠ ـ الإمام النووي (شيخ الإسلام والمسلمين وعمدة الفقهاء والمحدثين)
تاليف عبد الغني الدقر

١١ ـ الشيخ محمد الحامد (العلامة المجاهد)
تاليف عبد الحميد طهماز

١٢ ـ السيدة عائشة (ام المؤمنين وعالمة نساء الإسلام)
تاليف عبد الحميد طهماز

١٣ ـ الإمام البخاري (سيد الحفاظ والمحدثين)
تاليف د. تقي الدين الندوي المظاهري

١٤ ـ عبادة بن الصامت (صحابي كبير وفاتح مجاهد)
تاليف د. وهبة الزحيلي

١٥ ـ عبد الله بن عباس (حبر الأمة وترجمان القرآن)
تاليف د. مصطفى الخن

١٦ ـ جابر بن عبد الله (صحابي إمام وحافظ فقيه)
تاليف وهبي غاوجي الألباني

١٧ ـ احمد بن حنبل (إمام اهل السنة والجماعة)
تاليف عبد الغني الدقر

١٨ ـ كعب بن مالك (شاعر العقيدة الاسلامية)
تاليف د. سامي مكي العاني

١٩ ـ أبو داود (الإمام الحافظ الفقيه)
تاليف د. تقي‌الدين الندوي المظاهري

٢٠ ـ أسامة بن زيد (حِبُ رسول الله وابن حِبِّه)
تاليف د. وهبة الزحيلي

٢١ ـ معاوية بن أبي سفيان (صحابي كبير وملك مجاهد)
تاليف منير الغضبان



